

إستراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي

١٨٦٩ - ١٩١٤م

في إطار التنافس العثماني البريطاني

على أقطار الخليج العربي

أ.د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب الأسبق
مؤسس معهد الدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. محمود رمضان

مدير مركز الخليج
للبحوث والدراسات التاريخية
خبير الآثار والعمارة الإسلامية

د. ناجي عبد الباسط هدهود

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل معهد الدراسات والبحوث الآسيوية
جامعة الزقازيق



**استراتيجية الدولة العثمانية
في منطقة الخليج العربي**



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساهم على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز
على عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

استراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي

١٨٦٩ - ١٩١٤م

في إطار التنافس العثماني البريطاني على أقطار الخليج العربي

تأليف

أ. د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عميد كلية الآداب الأسبق

مؤسس معهد الدراسات الآسيوية جامعة الزقازيق

د. محمود رمضان

د. ناجي عبد الباسط هدهود

مدير مركز الخليج

للبحوث والدراسات التاريخية

خبير الآثار والعمارة الإسلامية

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

وكيل معهد الدراسات والبحوث الآسيوية

جامعة الزقازيق



الكتاب: استراتيجية الدولة العثمانية
في منطقة الخليج العربي
١٨٦٩ - ١٩١٤ م

المؤلف: أ. د. رأفت غنيمي الشيخ
د. ناجي عبد الباسط هدهود
د. محمود رمضان

الناشر: مركز الحضارة العربية
الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٤

الجمع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز
تصميم وجرافيك: محمد النور
011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٠٣٨٨
الترقيم الدولي: 2-150-496-977-978

الشيخ، رأفت غنيمي.
رأفت غنيمي الشيخ: استراتيجية الدولة العثمانية في
منطقة الخليج العربي ١٨٦٩ - ١٩١٤ م في إطار
التنافس العثماني البريطاني على أقطار الخليج العربي.
ط ١. - الجزيرة: مركز الحضارة العربية للإعلام
والتنشر والدراسات، ٢٠١٣
٢٥٦ ص؛ ٢٤ سم
تدمك: ٢ - ١٥٠ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - شبة الجزيرة العربية - تاريخ - العصر العثماني.
٢ - الإمبراطورية العثمانية - شبة الجزيرة العربية.
أ - هدهود، ناجي عبد الباسط (مؤلف شارك).

إهداء

**لصاحب السمو الشيخ الدكتور
سلطان محمد القاسمي**

حاكم إمارة الشارقة

عضو المجلس الأعلى لإتحاد الإمارات العربية

تقديراً وعرفاناً

لما قدمه ويقدمه لخدمة العلم والعلماء في مصر ودولة الإمارات العربية المتحدة وخاصة رعايته لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة والجمعية التاريخية المصرية ودار الوثائق القومية في القاهرة، وكلية الزراعة جامعة القاهرة، والمجمع العلمي المصري وغير ذلك كثير.

داعين الله أن يمتعته بالصحة والسعادة

المؤلفون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الدولة العثمانية "دولة عثمانية مفترى عليها" هذا هو اسم السفر الكبير للمرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر، الذي احتوت مجلداته الأربعة على تبيان دور الدولة العثمانية في نشر الإسلام والدفاع عن المسلمين في أوروبا والأناضول وفي المشرق العربي وفي المغرب العربي أيضاً، بل وفي الجنوب العربي ضد الغزاة الأوربيين في تلك البقاع.

ولقد تعرضت الدولة العثمانية لاتهامات من بعض المؤرخين بأنها (استعمرت واستغلت وأساءت إلى الشعوب التي حكمتها)، وبلغ الأمر بالبعض بنسيان ما قامت به من إيجابيات لصالح المسلمين وبلادهم في مواجهة الغزو والاستعمار الأوروبي، بداية من البرتغاليين ثم الأسبان، ثم الفرنسيين ثم الهولنديين وأخيراً البريطانيين.

وحيث إن لكل عهد وحكم إيجابيته وسلبياته، فإننا كمؤرخين لا يمكن الوقوف عند السلبيات ونبرزها وننسى الإيجابيات ونهملها. . . ومن ثم فإننا نسوق هذه الدراسة عن الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي لنشير إلى ما قامت به الدولة العثمانية من خلال هذه الإستراتيجية من محاولات الوقوف أمام الأطماع الأوروبية في أقطار الخليج العربية اعتباراً من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين الميلادي.

لقد تطورت الدولة العثمانية منذ كانت إمارة في شبه جزيرة الأناضول بزعامة عثمان بن أرطغرل عام ١٢٩٩م، وتوسعت في الأناضول ثم في البلقان حتى وسط أوروبا، ثم في أقطار الوطن العربي: العراق والشام ومصر والحجاز وأقطار شمال أفريقيا: الجزائر وليبيا (طرابلس الغرب) وتونس، وصارت قوة كبيرة يحسب لها حسابها عالمياً. ولكن كما قال عبد الرحمن بن خلدون فإنه بعد القوة يأتي الضعف والتفكك والانحيار، وهو ما حدث للدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى أوائل القرن العشرين، عندها تكالبت الدول الأوروبية لاقتطاع أجزاء من ممتلكات الدولة العثمانية ووصفتها بالرجل المريض.

وقد تميزت الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي بالدفاع عن أقطار تلك المنطقة ضد المطامع الأوروبية الساعية لفرض نفوذها على تلك الأقطار التي تشرف على طريق حيوي للتجارة الهندية التي يحتاجها الأوروبيون، ويحققون من ورائها ثروات كبيرة

ويسعون من خلالها إلى فرض النفوذ والاحتلال والاستغلال.

ولأن منطقة الخليج العربي ذات أهمية إستراتيجية واقتصادية - وحتى قبل اكتشاف النفط واستخراجه والعمل في مجالاته - باعتبارها شرياناً حيوياً بين الهند - درة التاج البريطاني ومنبع التجارة في المواد التي تشتهر بها مثل الفلفل والبهارات وغيرها - فإننا ناقشنا أهمية مشيخات الخليج في أعمال التجارة والنفوس على اللؤلؤ ونقل المتاجر والإبحار في المياه المحيطة مثل البحر العربي والمحيط الهندي.

وعندما تعرضت أقطار الخليج العربي للغزو الاستعماري الأوروبي بداية من غزو البرتغاليين حتى سيطرة البريطانيين، اهتمت الدولة العثمانية بالدفاع عن هذه الأقطار باعتبارها عمقاً إستراتيجياً لولاية العراق العثمانية، ومن ثم اهتمت بكل تلك الأقطار، مما دفعنا إلى معالجة هذا الاهتمام العثماني بكل قطر خليجي عربي: الأحساء والكويت وقطر وغيرها، وناقشنا الموقف البريطاني من هذا الاهتمام العثماني بأقطار الخليج العربية، وذلك الاهتمام الذي تغلف بفكرة الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية.

والله نسأل أن نكون قد توفقنا في عرض الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي، ودور المصلح العظيم مدحت باشا والي العراق في تحقيق تلك الإستراتيجية، والذي وضع الأسس للإصلاح والإدارة المتميزة، وإن كانت الفترة التي عاشها في العراق وأشرف منها على منطقة الخليج قصيرة حيث امتدت من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٧١م.

والله ولي التوفيق

المؤلفون

الفصل الأول

الدولة العثمانية

- مقدمة

- أولاً: قيام الدولة العثمانية ١٢٩٩ - ١٤٥٣م
ثانياً: دور التوسع والقوة ١٤٥٣ - ١٦٨٣م:
١ - حقبة النمو والازدهار ١٤٥٣ - ١٥٦٦م.
٢ - حقبة الركود والانتعاشات ١٥٦٦ - ١٦٨٣م.
ثالثاً: دور الركود ١٦٨٣ - ١٨٢٧م.
رابعاً: دور الأفول والتنظيمات ١٨٢٨ - ١٩٠٨م.
خامساً: دور الانحلال وخاتمة الدولة ١٩٠٨ - ١٩٢٢م.
سادساً: الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م.
سابعاً: حرب الاستقلال التركية ١٩١٩ - ١٩٢٢م.
ثامناً: أحوال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م.

مقدمة:

الدولة العثمانية بالتركية العثمانية: دَوْلَتِ عَلِيَّةٔ عُثْمَانِيَّة؛ بالتركية الحديثة: Yüce Osmanlı Devleti) هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول ابن أرطغرل، واستمرت قائمة لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وبالتحديد منذ حوالي ٢٧ يوليو سنة ١٢٩٩م حتى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣م. بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاث: أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا. وصل عدد الولايات العثمانية إلى ٢٩ ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، التي أضحت بعضها يُشكل جزءاً فعلياً من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي. كان للدولة العثمانية سيادة على بضعة دول بعيدة كذلك الأمر، إما بحكم كونها دولاً إسلامية تتبع شرعاً سلطان آل عثمان كونه يحمل لقب "أمير المؤمنين و خليفة المسلمين، كما في حالة سلطنة آتشيه السومطرية التي أعلنت ولاءها للسلطان في سنة ١٥٦٥م أو عن طريق استحوادها عليها لفترة مؤقتة، كما في حالة جزيرة "أنزاروت" في المحيط الأطلسي، والتي فتحها العثمانيون سنة ١٥٨٥م.

أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول "القانوني" - حكم منذ عام ١٥٢٠م حتى عام ١٥٦٦م - قوة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها استانبول تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي^(١)، وبعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، الذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئاً فشيئاً، على الرغم من أنها عرفت فترات من الانتعاش والإصلاح إلا أنها لم تكن كافية لإعادتها إلى وضعها السابق.

انتهت الدولة العثمانية بصفقتها السياسية بتاريخ ١ نوفمبر سنة ١٩٢٢م، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣م، بعد توقيعها على معاهدة لوزان، وزالت نهائياً في ٢٩ أكتوبر من السنة نفسها عند قيام الجمهورية التركية، التي

(1) Finkel, Caroline, Osman's Dream, (New York: Basic Books, 2005)

تعتبر حالياً الوريث الشرعي للدولة العثمانية.

عُرفت الدولة العثمانية بأسماء مختلفة في اللغة العربية، لعل أبرزها هو "الدولة العلية" وهو اختصار لاسمها الرسمي "الدولة العلية العثمانية"، كذلك كان يُطلق عليها محلياً في العديد من الدول العربية، وخصوصاً بلاد الشام ومصر، "الدولة العثمانية"، اشتقاقاً من كلمة "عثملى - Osmanlı" التركية، التي تعني "عثماني". ومن الأسماء الأخرى التي أضيفت للأسماء العربية نقلاً من تلك الأوروبية: "الإمبراطورية العثمانية" بالتركية: Osmanlı İmparatorluğu)، كذلك يُطلق البعض عليها تسمية "السلطنة العثمانية"، و"دولة آل عثمان".^(١)

العثمانيون قوم من الأتراك، فهم ينتسبون - من وجهة النظر الأثنية - إلى العرق الأصفر أو العرق المغولي، وهو العرق الذي ينتسب إليه المغول والصينيون وغيرهم من شعوب آسيا الشرقية. وكان موطن الأتراك الأول في آسيا الوسطى، في البوادي الواقعة بين جبال آلطاي شرقاً وبحر قزوين في الغرب، وقد انقسموا إلى عشائر وقبائل عديدة منها عشيرة "قايي"، التي نزحت في عهد زعيمها "كندز ألب" إلى المراعي الواقعة شمالي غربي أرمينيا قرب مدينة خلاط، عندما استولى المغول بقيادة جنكيز خان على خراسان. إن الحياة السياسية المبكرة لهذه العشيرة يكتنفها الغموض، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق، وإنما كل ما يُعرف عنها هو استقرارها في تلك المنطقة لفترة من الزمن، ويُستدل على صحة هذا القول عن طريق عدد من الأحجار والقبور تعود لأجداد بني عثمان. ويُستفاد من المعلومات المتوافرة أن هذه العشيرة تركت منطقة خلاط حوالي سنة ١٢٢٩م تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة، بفعل الحروب التي أثارها السلطان جلال الدين الخوارزمي وهبطت إلى حوض نهر دجلة.

أولاً: قيام الدولة العثمانية (١٢٩٩ - ١٤٥٣)

توفي "كندز ألب" في العام التالي لنزوح عشيرته إلى حوض دجلة، فترأس العشيرة ابنه سليمان، ثم حفيده "أرطغرل" الذي ارتحل مع عشيرته إلى مدينة إرزينجان، وكانت مسرحاً للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، فالتحق بخدمة السلطان علاء الدين سلطان قونية، إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة السلاجقة العظام وسنانه في حروبه ضد الخوارزميين، فكافأه السلطان السلجوقي بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب مدينة أنقرة وظل أرطغرل حليفاً للسلاجقة حتى أقطعه السلطان السلجوقي

(١) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ص ١١ - ١٧.

منطقة في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية، في المنطقة المعروفة باسم "سوغوت" حول مدينة أسكي شهر، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة إلى جانب إمارات تركمانية سبقتها إلى المنطقة. علا شأن أرطغرل لدى السلطان بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة، وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية في كل معركة ووجدت دوماً في مقدمة الجيوش وتمّ النصر على يدي أبنائها، فكافأه السلطان بأن خلع عليه لقب "أوج بكي"، أي محافظ الحدود، اعترافاً بعظم أمره، غير أن أرطغرل كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعه إياها السلطان السلجوقي، ولا باللقب الذي ظفر به، ولا بمهمة حراسة الحدود والحفاظ عليها؛ بل شرع يهاجم باسم السلطان ممتلكات البيزنطيين في الأناضول فاستولى على مدينة "أسكي شهر" وضمها إلى أملاكه، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير على مقاطعة حدودية، وتوفي في سنة ٢٨١ م عن عمر يناهز التسعين عاماً، بعد أن خلع عليه لقب كبير آخر هو "غازي"، تقديراً لفتوحاته وغزواته.

بعد أرطغرل تولى زعامة الإمارة ابنه البكر عثمان، فأخلص الولاء لل دولة السلجوقية على الرغم مما كانت تتخبط فيه من اضطراب وما كان يتهدها من أخطار^(١)، أظهر عثمان في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه، فعقد تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لاستكمال رسالة دولة سلاجقة الروم بفتح الأراضي البيزنطية كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، وانهماكها بالحروب في أوروبا^(٢)، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي الأناضول، وفي عبور الدردنيل إلى أوروبا الشرقية الجنوبية. ومن الناحية الإدارية، فقد أظهر عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطاً كبيراً على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعاً إلى دولة كبرى. وقد أبدى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث تقديره العميق لخدمات عثمان، فمنحه لقب "عثمان غازي حارس الحدود العالي الجاه، عثمان باشا".

أقدم عثمان - بعد أن ثبت أقدامه في إمارته - على توسيع حدودها على حساب

(١) شفيق جحا وآخرون: المصور في التاريخ، ج ٦، دار العلم للملايين، ص ١١٦

(٢) أ.د. محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة: ص ٢٦

البيزنطيين، ففي عام ١٢٩١م فتح مدينة "قره جه حصار" الواقعة إلى الجنوب من سوغوت، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة والبحر الأسود، وحين تغلب المغول على دولة قونية السلجوقية، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة ولقب نفسه "باديشاه آل عثمان" أي عاهل آل عثمان، فكان بذلك المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التركية الكبرى التي نسبت إليه لاحقاً^(١). وظل عثمان يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطاناً مستقلاً حتى تاريخ ٦ أبريل سنة ١٣٢٦م، الموافق فيه ٢ جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ، عندما احتل ابنه "أورخان" مدينة بورصة الواقعة على مقربة من بحر مرمرة، وفي هذه السنة توفي عثمان عن عمر يناهز السبعين عاماً بعد أن وضع أسس الدولة ومهد لها درب النمو والازدهار، وخُلع عليه لقب آخر هو "قره عثمان"، وهو يعني "عثمان الأسود" باللغة التركية الحديثة، لكن يُقصد به "الشجاع" أو "الكبير" أو "العظيم" في التركية العثمانية.

عني أورخان بتنظيم مملكته تنظيمًا محكمًا، فقسّمها إلى سناجق أو ولايات، وجعل من بورصة عاصمةً لها، وضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألف فرقاً من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتیان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشاً قوياً عُرف بجيش الإنكشارية. وقد درّب أورخان هؤلاء الفتیان تدريباً صارماً وخصّهم بامتيازات كبيرة، فتعلقوا بشخصه وأظهروا له الولاء. وعمل أورخان على توسيع الدولة، فكان طبيعياً أن ينشأ بينه وبين البيزنطيين صراعٌ عنيف كان من نتيجته استيلاؤه على مدينتيّ إزمير ونيقية. وفي عام ١٣٣٧م شنّ هجوماً على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين نفسها، ولكنه أخفق في احتلالها^(٢) ومع ذلك فقد أوقعت هذه الغزوة الرعب في قلب إمبراطور الروم "أندرونيقوس الثالث"، فسعى إلى التحالف معه وزوجه ابنته. ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين وبين الاندفاع إلى الأمام، وتثبيت أقدامهم سنة ١٣٥٧م في شبه جزيرة غاليبولي، وهكذا اشتد الخطر العثماني على القسطنطينية من جديد. شهد المسلمون في عهد أورخان أول استقرار للعثمانيين في أوروبا، وأصبحت الدولة العثمانية تمتد من أسوار أنقرة في آسيا الصغرى إلى تراقيا في البلقان، وشرع المبشرون يدعون السكان إلى اعتناق الإسلام. توفي أورخان الأول في سنة ١٣٦٠م بعد أن أيد الدولة الفتية بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، وتولّى بعده ابنه "مراد الله"، الملقب بمراد الأول.

(١) شفيق جحا وآخرون: مرجع سابق، ص ١١٦

(1) J. J. Norwich (1996) Byzantium: the Decline and Fall, Penguin, London p. 320

كانت فاتحة أعمال مراد الأول احتلال مدينة أنقرة مقر إمارة القرمان، وذلك أن أميرها واسمه علاء الدين، أراد انتهاز فرصة انتقال الملك من السلطان أورخان إلى ابنه مراد لإثارة حمية الأمراء المجاورين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يوماً فيوماً، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهم مدنه^(١) وتحالف مراد مع بعض أمراء الأناضول مقابل بعض التنازلات لصالح العثمانيين، وأجبر آخرين على التنازل له عن ممتلكاتهم، وبذلك ضمّ جزء من الممتلكات التركمانية إلى الدولة العثمانية. ووجه اهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان التي كانت في ذلك الحين مسرحاً لتناحر دائم بين مجموعة من الأمراء الثانويين، ففتح مدينة أدرنة سنة ١٣٦٢م ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية في وقت لاحق، كما تم فتح عدة مدن أخرى مثل صوفيا وسالونيك، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا. وفي ١٢ يونيو سنة ١٣٥٨م، الموافق فيه ١٩ جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ التقت الجيوش العثمانية بالقوى الصربية - تساندها قوى من المجر والبلغار والألبانيين، في إقليم "قوصوة"، المعروف حالياً باسم "كوسوفو"، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون، إلا أن السلطان قتل في نهايتها على يد أحد الجنود الذي تظاهر بالموت.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الأول ابنه بايزيد، وعند ذلك كانت الدولة قد اتسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها بكل ما يملك من وسائل، وانتزع من البيزنطيين مدينة "الاشهر"، وكانت آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وأخضع البلغار عام ١٣٩٣م إخضاعاً تاماً. فجزع "سيكسموند" ملك المجر من هذا التوسع العثماني، خصوصاً بعد أن تاخمت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فاستنجد بأوروبا الغربية، فدعا البابا "بونيفاس التاسع" إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين لمنعهم من التوغل في قلب أوروبا، فلبّى الدعوة ملك المجر سالف الذكر، وعدد من أمراء فرنسا وبافاريا والنمسا وفرنسا القديس يوحنا في رودس وجمهورية البندقية، وقدمت إنكلترا مساعدات عسكرية. تقابل الجيشين العثماني والأوروبي في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م الموافق ٢١ ذي الحجة ٧٩٨هـ، ودارت بينهما رحى معركة ضارية هُزم فيها الأوروبيون وردوا على أعقابهم. حاصر بايزيد القسطنطينية مرتين متواليتين، ولكن حصونها المنيعة صمدت في وجه هجماته العنيفة، فارتد عنها خائباً. ولم ينس بايزيد وهو يوجه ضرباته الجديدة نحو

(١) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، ط ١٠، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص: ١٢٩

الغرب، أن المغول يستعدون للانقضاض عليه من جهة الشرق، وخاصةً بعد أن ظهر فيهم رجلٌ عسكري جبار هو تيمورلنك الشهير المنحدر من سلالة جنكيز خان. لذلك عمل بايزيد على تعزيز مركزه في آسيا الصغرى استعداداً للموقعة الفاصلة بينه وبين تيمورلنك. وهكذا خف الضغط العثماني على البيزنطيين، وتأخر سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين خمسين سنة ونيماً^(١) وفي ربيع سنة ١٤٠٢ م، تقدم تيمورلنك نحو سهل أنقرة لقتال بايزيد، فالتقى الجمعان عند "جُبِقْ آباد" ودارت معركة طاحنة انهزم فيها العثمانيون وأُسر السلطان بايزيد وحمله المغول معهم عائدين إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية، حيث عاش بقية أيامه ومات في سنة ١٤٠٣ م.

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارات صغيرة كما حصل بعد سقوط الدولة السلجوقية، لأن تيمورلنك أعاد إلى أمراء قسطنطيني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد، واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاح، ولم يبق تابعاً للراية العثمانية إلا قليل من البلدان. ومما زاد الخطر على الدولة عدم اتفاق أولاد بايزيد على تنصيب أحدهم، بل كان كل منهم يدعي الأحقية لنفسه، فنشبت بينهم حروب ضارية، ولكن النصر كان آخر الأمر من نصيب محمد بن بايزيد، الملقب بمحمد الأول أو "محمد چلبى"، الذي استطاع أن يعيد للدولة بعض ما فقدته من أملاكها في الأناضول. وبعد محمد الأول تولى عرش السلطنة العثمانية مراد الثاني، فاستمر بإخضاع المدن والإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية، وحاصر القسطنطينية، ولكنه لم يوفق إلى احتلالها. ثم حاول أن يعيد إخضاع البلقان لسيطرته، ففتح عدّة مدائن وقلاع وحاول أن يضم إليها مدينة بلغراد لكنه فشل في اقتحامها، فكان هذا الهجوم إنذاراً جديداً لأوروبا بالخطر العثماني، فقامت قوات مجرية - وعلى رأسها يوحنا هونياد - بالالتحام مع العثمانيين وهزمتهم هزيمة قاسية كان من نتائجها بعث الروح الصليبية في أوروبا، وإعلان النضال الديني ضد العثمانيين.

ولمّا توفي السلطان مراد الثاني ارتقى عرش العثمانيين ابنه محمد، فكان عليه بادئ الأمر أن يخضع ثورة نشبت ضده في إمارة قرمان بآسيا الصغرى، فاستغل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر هذا الأمر، وطلب من السلطان مضاعفة الجزية التي كان والده يدفعها إلى البيزنطيين لقاء أسرهم الأمير أورخان حفيد سليمان بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني. فاستاء السلطان محمد من هذا الطلب لما كان ينطوي عليه من

(١) شفيق جحا وآخرون، مرجع سابق، ص ١٢٠

تهديد بتحريض أورخان هذا على العصيان، فأمر بإلغاء الراتب المخصص له، وراح يتجهز لحصار القسطنطينية والقضاء على هذه المدينة في أقرب فرصة ممكنة. وكان أول ما قام به في هذا السبيل تشييده عند أضيق نقطة من مضيق البوسفور قلعة "روملي حصار" القائمة على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية. وعندئذ أرسل الإمبراطور قسطنطين بعثة من السفراء إلى السلطان محمد لتحتج لديه على ذلك، فلم يلقوا منه جواباً شافياً، بل أصرّ على البناء لما في القلعة من أهمية إستراتيجية. واستتجد الإمبراطور قسطنطين بالدول الأوروبية فلم تنجده إلا بعض المدن الإيطالية، أما البابا فقد أبدى استعداداً لمساعدة الإمبراطور شرط أن تتحد الكنيسة الشرقية والغربية، ووافق قسطنطين على المشروع، ولكن تعصّب الشعب حال دون تحقيق ذلك.

وكان السلطان قد حشد لقتال البيزنطيين جيشاً عظيماً مزوداً بالمدافع الكبيرة وأسطولاً ضخماً، وبذلك حاصروهم من ناحيتي البر والبحر معاً. والواقع أن البيزنطيين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، لكن ما أن مضى ٥٣ يوماً على الحصار حتى كان العثمانيون قد دخلوا المدينة بعد أن هُدمت أجزاء كبيرة من أسوارها بفعل القصف المدفعي المتكرر، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف جداً دارت رحاه في الشوارع، وذهب ضحيته الإمبراطور نفسه وكثير من جنوده. حتى إذا انتصف النهار دخل محمد المدينة وأصدر أمره إلى جنوده بالكف عن القتال، بعد أن قضى على المقاومة البيزنطية ونشر راية السلام اتخذ السلطان محمد لقب "الفاتح" بعد فتح المدينة، وأضاف إليه لقب "قيصر الروم"، على الرغم من عدم اعتراف بطريركية القسطنطينية ولا أوروبا الغربية بهذا الأمر، ونقل مركز العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي غير اسمها إلى "إسلامبول"، أي مدينة الإسلام أو تخت الإسلام، وأعطى للمسيحيين الأمان وحرية إقامة شعائرهم الدينية، ودعا من هاجر منهم خوفاً إلى العودة إلى بيوتهم. سقطت الإمبراطورية البيزنطية عند فتح المدينة بعد أن استمرت أحد عشر قرناً ونيفاً، وتابع السلطان محمد فتوحاته في أوروبا خلال السنوات اللاحقة التي أعقبت سقوط القسطنطينية، فأخضع بلاد الصرب وقضى على استقلالها، وفتح بلاد المورة في جنوب اليونان، وإقليم الأفلاق وبلاد البشناق وألبانيا، وهزم البندقية ووحده الأناضول عبر قضائه على إمبراطورية طرابزون الرومية وإمارة قرمان. وقد حاول السلطان محمد أيضاً فتح إيطاليا لكن وافته المنية سنة ١٤٨١م فانصرف العثمانيون عن هذه الجهة.

ثانياً: دور التوسع والقوة (١٤٥٣ - ١٦٨٣)

يُمكن تقسيم هذه الفترة في التاريخ العثماني إلى حقبتين مميزتين: حقبة النمو والازدهار العسكري والثقافي والحضاري والاقتصادي، وهي تمتد حتى سنة ١٥٦٦م، وحقبة شهدت بأغلبها ركوداً سياسياً وعسكرياً، وتخللتها فترات إصلاح وانتعاش، وقد دامت حتى سنة ١٦٨٣م.

١ - حقبة النمو والازدهار (١٤٥٣ - ١٥٦٦)

بعد موت السلطان محمد الفاتح تنازع ابناه "جم" و"بايزيد" على العرش. ولكن الغلبة كانت من نصيب بايزيد، ففر جم إلى مصر حيث احتفى بسلطان المماليك "قايتباي"، ثم إلى رودس حيث حاول أن يتعاون مع فرسان القديس يوحنا والدول الغربية على أخيه، لكن بايزيد استطاع إقناع دولة الفرسان بإبقاء الأمير جم على الجزيرة مقابل مبلغ من المال، وتعهد بأن لا يمس جزيرتهم طيلة فترة حكمه، فوافقوا على ذلك، لكنهم عادوا وسلموا الأمير إلى البابا "إنوسنت الثامن" كحل وسط، وعند وفاة الأخير قام خليفته بدس السم للأمير بعد أن أجبره الفرنسيون على تسليمهم إياه، فتوفي في مدينة نابولي، ونقل جثمانه فيما بعد إلى بورصة ودُفن فيها. اتصف السلطان بايزيد بأنه سلطان مسالم لا يدخل الحروب إلا مدافعاً، فقاتل جمهورية البندقية بسبب الهجمات التي قام بها أسطولها على بلاد المورة، وحارب المماليك حين قرر السلطان قايتباي السيطرة على إمارة ذي القدر ومدينة ألبستان التابعتين للدولة العثمانية، وعدا ذلك فكان يفضل مجالسة العلماء والأدباء. وفي عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس؛ فبعث بعدة سفن لتحميل الأندلسيين المسلمين واليهود إلى القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة، وفي عهده أيضاً ظهرت سلالة وطنية شيعية في بلاد فارس، هي السلالة الصفوية، التي استطاعت بزعامة الشاه إسماعيل بن حيدر، أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق.

وفي أواخر عهد بايزيد دبّ النزاع بين أولاده بسبب من الأحق بولاية العهد. ذلك أن بايزيد اختار ابنه أحمد لخلافته، فغضب ابنه الآخر سليم، وأعلن الثورة على والده، وكان لثورة سليم أسباب سياسية ومذهبية وتجارية وعرقية، ذلك أن الصفويين كانوا يعملون على نشر المذهب الشيعي في الأناضول على حساب المذهب السني، وقطعوا طريق التجارة مع الهند والشرق الأقصى، ومنعوا نزوح المزيد من قبائل التركمان من آسيا الوسطى إلى الأناضول وأوروبا الشرقية، وكان الشاه إسماعيل يدعم الأمير أحمد للوصول إلى سدة الحكم ولم يحرك الأخير ساكناً لمنع التدخل الصفوي في الشؤون العثمانية. نتيجة لكل

ما سلف، ثار سليم على والده وشقيقه ثم استولى على أدرنة، فما كان من بايزيد إلا أن انبرى لقتال ابنه سليم، فهزمه وقرر نفيه، لكن الجنود الإنكشارية قاموا بالضغط على السلطان وأرغموه بالتنازل عن العرش لصالح ابنه سليم. وقد مات بايزيد يوم ٢٦ مايو سنة ١٥١٢م الموافق ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨هـ، واختلف المؤرخون على سبب الوفاة. كان على سليم، بعد اعتلائه العرش، تثبيت أقدامه في الحكم والتفاهم مع الدول الأوروبية الفاعلة ليتفرغ لأخطر أزمة واجهتها الدولة منذ أعقاب معركة أنقرة، ألا وهي القضية الصفوية، فأقدم على قتل إخوته وأولادهم حتى لا يبقى له منازع في الحكم، ثم أبرم هدنة طويلة مع الدول الأوروبية المجاورة، وحوّل انتباهه إلى الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين والمماليك وكان السلطان سليم يهدف إلى السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، والتوسع على حساب القوى في المشرق، والقضاء على المد الشيعي، وتوحيد الأمصار الإسلامية الأخرى حتى تكون يدًا واحدة في مواجهة أوروبا، وخاصة بعد سقوط الأندلس وقيام البرتغاليين بالتحالف مع الصفويين وإنشائهم لمستعمرات في بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي وكان الشيعة المقيمون في آسيا الصغرى قد ثاروا على الدولة العثمانية اعتمادًا على تأييد الصفويين، فأخضع سليم هذه الثورة وعمد إلى اضطهاد الشيعة، فذهب ضحية هذه السياسة أربعون ألفًا منهم، ثم انبرى لقتال الشاه، فالتقى الفريقان في سهل چالديران والتحما في معركة كبيرة كان النصر فيها لصالح السلطان سليم، وفرّ الشاه ناجيًا بحياته، أما سليم فتقدم إلى تبريز عاصمة خصمه الصفوي، فاستولى عليها ورجع عائدًا إلى بلاده.

تقدم العثمانيون، بعد انتصارهم على الصفويين، لإخضاع السلطنة المملوكية، فنشبت بينهم وبين المماليك معركة على الحدود الشامية التركية تُعرف بمعركة مرج دابق، انتصر فيها العثمانيون وقتل سلطان المماليك "قنصوه الغوري"، ثم تابعوا زحفهم نحو مصر والتحموا بالمماليك من جديد في معركة الريدانية التي قررت مصير مصر كلها، وانتصروا عليهم مجددًا ودخلوا القاهرة فاتحين. وفي أثناء ذلك قدم شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم اعترافًا بخضوع الأراضي المقدسة الإسلامية للعثمانيين^(١) وتنازل في الوقت ذاته آخر الخلفاء العباسيين، محمد الثالث المتوكل على الله، عن الخلافة لسلطان آل عثمان، فأصبح كل سلطان منذ ذلك التاريخ خليفة للمسلمين، ويحمل لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة رسول رب العالمين". وعند نهاية حملته الشرقية، كان السلطان سليم قد جعل من الدولة العثمانية قوة إقليمية كبرى ومنافسًا كبيرًا للإمبراطورية البرتغالية على زعامة

(١) شفيق جحا وآخرون، مرجع سابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

المنافذ المائتة العربية. توفي السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠م، الموافق فيه ٩ شوال سنة ٩٢٦هـ، وهو على أهبة الاستعداد لقتال فرسان القديس يوحنا في رودس.^(١) فارتقى العرش من بعده ابنه سليمان، الذي يُعرف في الشرق باسم "القانوني"، ويُعرف في الغرب باسم "العظيم". والواقع أن الفتوح في الشرق شغلت السلطان سليم طوال أيام حكمه، فكان طبيعياً أن ينصرف السلطان سليمان إلى ناحية الغرب ليُتم الفتوح التي كان أسلافه قد بدأوها من قبله. واحتل سليمان مدينة بلغراد بسهولة، عام ١٥٢١م، وعقد العزم على ما كان أبوه السلطان سليم قد شرع يستعد له قبل وفاته، أي الاستيلاء على جزيرة رودس، فتمكن من ذلك في سنة ١٥٢٣م، ثم ضمّ إلى الأملاك العثمانية القسم الجنوبي والأوسط من مملكة المجر، بعد أن استغل الأوضاع الداخلية المضطربة للمملكة، والأوضاع الخارجية الملائمة.

اشتبكت الجيوش العثمانية مع نظيرتها المجرية في وادي موهاج بالمجر بتاريخ ٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٦م، في معركة دامت حوالي الساعتين، وانتصر فيها العثمانيون نصراً كبيراً وثبتوا أقدامهم في البلاد لفترة طويلة من الزمن، وعين السلطان "جان زابوليا" ملك ترانسلفانيا حاكماً عليها، عندئذ أرسل فرديناند ملك النمسا، وفدّاً إلى السلطان يلتمس منه الاعتراف به ملكاً على المجر، فسخر سليمان من الوفد وزجّ أعضائه في السجن فترة من الزمن، ولمّا أفرج عنهم جعلهم رسالة إلى الملك ليستعد لملاقاته. وقاتل سليمان فرديناد بجيش عظيم، فلم يصمد في وجهه، فراح سليمان يتعقبه حتى فيينا العاصمة، وهنا ضرب سليمان الحصار على هذه المدينة القائمة في قلب أوروبا، وأحدثت الجنود العثمانية ثغراً في أسوارها إلا أن الذخيرة والمؤن نفذت منهم، وأقبل فصل الشتاء فقفّل السلطان ورجع إلى بلاده^(٢). وفي عام ١٥٣٢م، عاود سليمان الكرة، فحاصر فيينا من جديد، ولكن التوفيق خانة في حملته الثانية هذه أيضاً، فعقد مع فرديناند صلحاً احتفظ بموجبه بجميع ما استولى عليه من الأراضي المجرية. وكان مما رغب سليمان في عقد الصلح اضطراره إلى الالتفات صوب الشرق بعد أن توترت العلاقات بينه وبين "طهماسب بن إسماعيل الصفوي" شاه فارس، وتفصيل ذلك أن عامل بغداد من قبل طهماسب خان مولاه الصفوي وانحاز إلى العثمانيين بناءً على إلحاح الشعب بسبب سياسة التطرف المذهبي التي انتهجها الصفويون، فسار إليه طهماسب يريد تأديبه، فلم يكن من السلطان سليمان إلا أن

(2) Hess, Andrew G. (January 1973). "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth - Century World War

(١) أ. د. محمد سهيل طقوش: مرجع سابق، ص ٢١٢

اغتنم هذه الفرصة للانقضاض على بلاد فارس، وهكذا احتل تبريز عاصمة الفرس، ثم استولى على بغداد ودخلها في أبهة بالغة.

حقق العثمانيون أيام السلطان سليمان عدّة فتوحات بحرية مهمة، وذلك بفضل البحار يوناني الأصل، خير الدين بربروس، الذي كان سبق وضمّ الجزائر للدولة العثمانية أيام السلطان سليم. عيّن السلطان سليمان خير الدين هذا أميرًا للبحر عام ١٥٢٣م، فنهض بالأسطول العثماني نهضة جبارة مكنته من انتزاع تونس من أيدي الإسبان وإخضاعها للسلطة العثمانية ولو لفترة قصيرة من الزمن. وفي سنة ١٥٢٨م حقق خير الدين للدولة العثمانية نصرًا بحريًا كبيرًا، فقد وفق إلى إنزال هزيمة قاسية بآندريا دوريا الذي كان يقود أساطيل كارلوس الخامس ملك إسبانيا والبابا بولس الثالث والبندقية مجتمعة، وذلك قرب بروزة، الواقعة على خليج آرنا في الشمال الغربي من اليونان. ومن الفتوح المهمة التي حققها الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان، فتح طرابلس الغرب وتحريرها من الإسبان وفرسان القديس يوحنا على يد القبطان "طورغول بك". توفي السلطان سليمان في ٥ سبتمبر ١٥٦٦م الموافق فيه ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ، وكانت الدولة العثمانية آنذاك قد بلغت أعلى درجات الكمال وأصبح وجودها ضروريًا لحفظ التوازن السياسي في الشرق الأوسط وأوروبا، ووصل عدد سكانها إلى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة بحسب بعض المصادر.

٢ - حقبة الركود والانتعاشات (١٥٦٦ - ١٦٨٣م)

يُعتبر عصر سليمان القانوني عصر الدولة العثمانية الذهبي، وما أن انقضى هذا العصر حتى أصاب الدولة الضعف والتفسخ. فقد كان سليم الثاني، خليفة سليمان، سلطانًا ضعيفًا لا يتصف بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلًا عن إضافة شيء إليها، بالإضافة إلى أنه كان حاكمًا منحلًا خاملًا، وكان ماجنًا سكيّرًا. وما يميّز عهد هذا السلطان هو أن وظيفة الصدر الأعظم أصبحت تجعل من يتقلدها الحاكم الفعلي وقائد الجيوش، فلولا وجود الصدر الأعظم محمد باشا صقللي المخضرم في الأعمال السياسية والحربية للحق الدولة الفشل، لكن حسن سياسة هذا الرجل وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظها من السقوط مرة واحدة. ومن أعمال محمد باشا صقللي أن أرسل جيشًا كبيرًا إلى اليمن سنة ١٥٦٩م بقيادة عثمان باشا يسانده سنان باشا والي مصر، لقمع ثورة الأهالي، وتمكن الجيش من إخماد الثورة، ودخل مدينة صنعاء بعد أن فتح جميع القلاع ومن أعمال الصدر الأعظم أيضًا فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من أيدي البنادقة. شنت الدولة العثمانية في عام ١٥٦٩م أيضًا حملة على مدينة أسترخان، الواقعة على مصب نهر الفولغا في بحر

قزوين، بهدف استرداد الإمارة ووضع حدًا لامتداد روسيا من ناحية الجنوب؛ خشية أن يؤدي توسعها إلى استيلائها على الطرق التجارية والأسواق الكبرى وإلى هيمنتها على تجارة البلدان الإسلامية، إلا أن هذه الحملة كان مصيرها الفشل، بسبب امتناع خاقان القرم، "دولت كراي الأول"، عن التعاون مع الجيش العثماني وسعيه شخصيًا لأن يقوم بالاستيلاء على أسترخان وقازان، كما تعذر ضرب الحصار على المدينة؛ لأن الروس بنوا قلعة قوية إلى الجنوب منها، على الطريق المؤدي إليها حالت دون تقدم الجيش العثماني.

وفي عهد السلطان سليم الثاني جرت موقعة ليبانتو البحرية التي هزّت صورة البحرية العثمانية والجيش العثماني الذي اعتبره كثيرون لا يُقهر. وتفصيل ذلك أنه بعد ازدياد الخطر العثماني في البحر المتوسط على أوروبا، وخاصة بعد فتح جزيرة قبرص، وبعض المواقع على البحر الأدرياتيكي، تحالف فيليب الثاني ملك إسبانيا مع البابا بيوس الخامس وجمهورية البندقية لوقف التقدم العثماني باتجاه إيطاليا من جهة، واسترداد جميع المواقع التي فتحوها على حساب أوروبا وبخاصة في شمال أفريقيا، من جهة أخرى. فجمعوا مائتين وثلاثين سفينة وثلاثين ألف جندي، وسلموا لواء القيادة إلى الدون يوحنا النمساوي، الذي أبحر إلى خليج باتراس، أحد فروع البحر الأيوني، وهناك اشتبك الأسطولان العثماني والأوروبي في معركة بحرية طاحنة هي إحدى أكبر المعارك في التاريخ الحديث، أسفرت عن انتصار الأوروبيين وانهزام العثمانيين هزيمة منكرة ولم تُعد هذه الحادثة همّة الصدر الأعظم محمد باشا صقلي، بل انتهز فرصة الشتاء وعدم إمكانية استمرار الحرب لتجهيز أسطول جديد، وبذل النفس والنفيس في تجهيزه وتسليحه حتى إذا أقبل صيف سنة ١٥٧٢م كان قد تمّ بناء ٢٥٠ سفينة بما فيها ٨ غلايين حديثة، وأعلم الصدر الأعظم البنادقة باستعداده للجولة الثانية، ففضلت البندقية أن تجنح للسلام ووقعت مع الدولة العثمانية معاهدة بذلك سنة ١٥٧٢م، فتفرغ العثمانيون لمحاربة إسبانيا التي عادت لاحتلال تونس، وكذلك هزموا أمير البغدان الذي تمرد على الدولة طلبًا للاستقلال.

توفي السلطان سليم الثاني يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٥٧٤م، الموافق فيه ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢هـ وتولّى بعده ابنه مراد الثالث. وفي عهد هذا السلطان تدخلت الدولة العثمانية في انتخاب حليفها "أتيين باتوري"، أمير ترانسيلفانيا، ملكًا على بولندا بعد شغور العرش، وبذا تحولت الحماية العثمانية على بولندا من حماية اسمية إلى حماية فعلية. وساعد العثمانيون سلطان مراكش لإخماد ثورة اندلعت في بلاده، فاصطدموا مع الثوّار والبرتغاليين الذين ساندوهم في موقعة القصر

الكبير وانتصروا عليهم وأعادوا السلطان إلى الحكم. أما أهم ما حصل في عهد السلطان مراد الثالث هو التوسع العثماني في الشرق، على حساب الدولة الصفوية، فبعد وفاة الشاه طهماسب الأول من غير أن يسمي من سيخلفه، تنازع أبناؤه على السلطة، فأرسل الصدر الأعظم محمد باشا صقللي حملة عسكرية إلى بلاد فارس لفتح ما تيسر من مدنها، فضموا إليهم من أملاكها بلاد الكرج، ثم أذربيجان الشمالية، ثم بلاد داغستان.

تعرضت الدولة العثمانية بعد هذه الغزوات لأزمة سياسية عنيفة، عندما تقلص نفوذ الصدر الأعظم محمد باشا صقللي، ومن ثم قُتل في سنة ١٥٧٩م، فعمّت الفوضى بعد موته بفعل ضعف حلفائه وتمرد الإنكشارية، وراح الولاة يتنافسون فيما بينهم على منصب الصدارة العظمى. وفي عام ١٥٩٠م أبرم العثمانيون صلحاً مع الصفويين، اعترفوا فيه بما تم ضمه إلى الدولة العثمانية، إضافةً إلى جنوب أذربيجان بما فيها العاصمة تبريز. وبعد إبرام الصلح استتب الأمن على حدود الدولة، إن في الشرق أو في الغرب، فثار الإنكشارية في القسطنطينية وفي الولايات نظراً لهبوط قيمة أجورهم، الأمر الذي دفع الصدر الأعظم الجديد، سنان باشا، أن يشغلهم بالحروب مع النمسا في المجر، ونظراً لما وصل إليه الإنكشارية من فوضى توالى عليهم الهزائم، وفقدوا بعض القلاع، وعلى الرغم من أن سنان باشا استطاع أن يستردها لاحقاً، إلا أن أمراء الأقالق والبغدان وترانسلفانيا استغلوا الموقف وانتصروا على الجيوش العثمانية في بضعة معارك واستردوا منهم بعض المدن. وتوفي السلطان مراد الثالث مساء ١٩ يناير سنة ١٥٩٥م، الموافق فيه ٨ جمادى الأولى سنة ١٠٠٢هـ، بعد أن أصيب بداء عياء.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الثالث ابنه محمد، الذي خرج عن القاعدة التي استفحلت منذ أيام جده سليم الثاني، وهي تولي الصدر الأعظم قيادة الجيش، فقاد الجيوش بنفسه وخرج لقتال المجر والنمسا، وانتصر عليهم في موقعة كرزت سنة ١٥٩٦م. وفي بداية القرن السابع عشر حصلت في الأناضول ثورة داخلية كادت أن تكون عاقبتها وخيمة على الدولة، خصوصاً وأن نار الحروب كانت مشتتة على حدود المجر والنمسا، وخلصتها أن قائد إحدى فرق الإنكشارية التي نفيت إلى الأناضول عقاباً لها لعدم ثباتها في موقعة كرزت، ادعى أنه رأى النبي محمد ﷺ في منامه يبشره بالنصر على العثمانيين، فأعلن العصيان وثار على الدولة وقام بعدد من الفتن إلى جانب شقيقه، ثم مات بعد أن أصيب بجراح في إحدى المعارك^(١)، لكن شقيقه استمر يعصي الدولة إلى أن أعطته ولاية البوسنة ليحارب

(١) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص: ٢٦٧ - ٢٧٠

الأوروبيين حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين النمسا والمجر. وأعقبت هذه الثورة الكبيرة ثورة أخرى في القسطنطينية هي ثورة الخيالة، الذين طالبوا بتعويضهم عما لحق بهم من أضرار جرّاء الثورة السابقة، فاستعانت الدولة عليهم بجنود الإنكشارية وأدخلتهم في طاعتها مجدداً.

تميزت المدة الممتدة على مدار القرن السابع عشر بمظهر أقل روعة من مظهرها في القرن السادس عشر بالنسبة للدولة العثمانية، فبعد وفاة السلطان محمد الثالث ظهر سلاطين أكثر ضعفاً وانغماساً في الملذات، على الرغم من بروز بعض الشخصيات القوية منهم، مثل السلطان عثمان الثاني ومراد الرابع، وبعض الوزراء الذين عملوا على صون هيبة وسلطان الدولة، ومن هؤلاء مراد باشا القبوجي، الذي كان عوناً وعضداً للسلطان أحمد الأول الذي تولّى وهو لم يتجاوز الرابعة عشر إلا بقليل. وفي تلك الفترة تنازلت الدولة العثمانية عن عراق العجم للدولة الصفوية، فكانت تلك أول معاهدة تركت فيها الدولة فتوحاتها، وكانت بمثابة فاتحة الانحطاط. وبعد أحمد الأول تولّى أخوه مصطفى العرش لثلاثة أشهر فقط، قبل أن يُعيّن عثمان الثاني بدلاً منه، الذي حدث في عهده سابقة كانت الأولى من نوعها، وتدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة آنذاك، إذ تخاذل الإنكشارية في القتال، فأراد أن يؤدبهم ويستبدل بهم جنوداً جديداً مدربين، فثاروا عليه وقتلوه وأعادوا عمه مصطفى إلى الحكم.

وما أن انتشر خبر قتل الخليفة حتى عمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية، وقام الولاة يعلنون الاستقلال عن الدولة، فأشار الصدر الأعظم المعين بواسطة الإنكشارية بعزل مصطفى الأول وتعيين ابن أخيه مراد الرابع. استطاع مراد الرابع أن يُطهر الدولة من بعض الثورات مثل ثورة أبازلة باشا والي أرضروم، وثورة قام بها الإنكشارية، وحركة أمير لبنان فخر الدين المعني الثاني الاستقلالية، كما استرجع بغداد وهمدان وتبريز ويري فان وكامل أذربيجان من الصفويين. وفي عهد خليفته إبراهيم الأول، انتعشت الدولة بعض الانتعاش، فدخل الأسطول العثماني جزيرة كريت من غير أن يلقي مقاومة تذكر، وبعد هذا العهد عرف العثمانيون فترة من الضعف والعجز لم ينتشلهم منها إلا المصلح الكبير "محمد كوبرولي" الذي تولّى منصب الصدارة العظمى عام ١٦٥٦م في عهد السلطان محمد الرابع، فنهض بالدولة نهضة جديدة وطهرها من آفات الفتاكة، وهكذا اشتد ساعدها من جديد. وبعد محمد كوبرولي تولّى ابنه "فاضل أحمد" ذات المنصب وسار على نهج

أبيه، فقامت القوات العثمانية سنة ١٦٦٢م بهجوم على بلاد المجر وهددت فيينا نفسها بالسقوط. وفي سنة ١٦٧٢م استولى العثمانيون على أوكرانيا وكانت تابعة لملك بولندا وفي ١٧ يوليو سنة ١٦٨٣م، حاصرت جيوش السلطان محمد الرابع فيينا للمرة الأخيرة، ولكنها صُدّت عنها^(١).

ثالثاً: دور الركود (١٦٨٣ - ١٨٢٧م)

عُزل السلطان محمد الرابع بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧م، الموافق فيه ٢ محرم سنة ١٠٩٩هـ، فعُمت الفوضى بعد عزله، وتوالت الهزائم على الدولة العثمانية، فاحتلت النمسا بلغراد وأجزاء من بلاد الصرب، واحتلت البندقية أجزاء كثيرة منها كرواتيا ودلماسيا وأكثر أجزاء المورة. ولم يُنقذ الدولة من تلك المشاكل إلا "مصطفى كوبرولي باشا"، الابن الآخر للمصلح الكبير محمد كوبرولي، فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود، وأحسن للنصارى بشكل كبير حتى استمال جميع مسيحيي الدولة، واستطاع استرجاع بلغراد وإقليم ترانسيلفانيا لكن على الرغم من ذلك، فإن الدولة العثمانية لم تحقق أي فتوحات جديدة وراء الحدود التي رسمها السلطان سليمان القانوني، فكانت حروبها وفتوحاتها خلال هذه الحقبة لاسترداد ما سلب منها إجمالاً، ففي عهد السلطان مصطفى الثاني، انتصر العثمانيون على بولندا وأجبروا قيصر الروس بطرس الأكبر على فك الحصار عن مدينة آزوف، واستعادوا البوسنة وبعض الجزر في بحر إيجه، لكن الروس ما لبثوا أن عادوا لفتح آزوف، وانتصر النمساويون مرة أخرى على العثمانيين في "معركة زانطة"، وتحالفوا مع بضعة دول أوروبية ضد الدولة العثمانية وأجبروها على توقيع معاهدة "كارلوفتش"، التي فقدت فيها مدينة آزوف لصالح روسيا، وما بقي لها من بلاد المجر للنمسا، وأوكرانيا وبودوليا لبولندا، وساحل دلماسيا وبعض جزر بحر إيجه للبندقية.

إزداد وضع الدولة العثمانية سوءاً خلال السنوات القليلة اللاحقة، ففي أوائل القرن الثامن عشر، وفي عهد السلطان أحمد الثالث تحديداً، طلبت السويد دعم العثمانيين في حربها ضد الروس، لكن الأخيرة رفضت في بداية الأمر، فمالت كفة الميزان لصالح الروس الذين هزموا السويد وأرغموا ملكها على الفرار ملتجئاً إلى بلاد الترك، وعندما قررت الدولة العثمانية خوض الحرب أخيراً، سنحت لها الفرصة أن تقضي على القيصر بطرس الأكبر، لكن الصدر الأعظم رفع الحصار عنه بعد تلقيه رشوة من خلية القيصر كاترين. كذلك أجبر العثمانيون على توقيع معاهدة جديدة هي معاهدة "بيساروفتش"، وذلك بعد أن

(1) Lewis Bernard: The Emergence of Modern Turkey: p24

استجبت البندقية بالنمسا لتجبر الأخيرة العثمانيين على إعادة جزيرة كريت إلى البندقية، واضطرت الدولة في هذه المعاهدة أن تستغني عن بلغراد، ومعظم بلاد الصرب وجزءاً من الأفلاق للنمسا، وأن تظل البندقية مهيمنة على سواحل دلماسيا، مقابل عودة بلاد مورة للعثمانيين. استرجعت الدولة العثمانية أيضاً بعض المدن التي فقدتها سابقاً لصالح الصفويين، مثل همدان وتبريز وإقليم لورستان، لكنهم عادوا وهزموا وتنازلوا عن كل ما أخذوه من الصفويين.

سجلت هذه المرحلة بداية اليقظة العثمانية بالانفتاح على الغرب، وبدأت ترجمة بعض المؤلفات الغربية، وسمح بإنشاء مكتب للطباعة في العاصمة، وجرت الاستعانة بمجريّ اعتنق الإسلام، لبناء المطبعة وتشغيلها. وأخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية الإسلامية، إذ كانت الحضارة الغربية تتسرب، بشكل أو بآخر، إلى الدولة ولكن ببطء، وظهر عدد من المثقفين العلمانيين، كما وفد إلى البلاد عدد من الخبراء الأجانب الذين وضعوا خبراتهم في خدمة الدولة.

قامت الحرب مجدداً بين روسيا والدولة العثمانية خلال عقد الثلاثينيات من القرن الثامن عشر بسبب احتلال الأخيرة لبولندا بدعم من النمسا، فاتحدت الدولة العثمانية مع الفرس واستطاعت دحر الجيش الروسي والنمساوي وثارت لنفسها من النمسا بعد أن أرغمتها على توقيع معاهدة بلغراد التي نصت على عودة بلغراد وما استحوذت عليه النمسا من أراضي الصرب والأفلاق إلى الدولة العثمانية، وأن تلتزم روسيا بهدم قلاع مدينة آزوف، وألا تبخر أي سفينة حربية أو تجارية تابعة لها في البحر الأسود. لكن نيران الحرب عادت لتستعر مجدداً بين الروس والعثمانيين خلال عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر، عندما فقد العثمانيون عدة مدن لصالح الإمبراطورية الروسية، إلى جانب إقليم الأفلاق والبعغان. وحاول الروس احتلال طرابزون ولكنهم لم يستطيعوا، ولكنهم استطاعوا لاحقاً فصل القرم عن الدولة العثمانية، وقاومت الدولة العثمانية بكل ما أتيح لها من وسائل حتى أجلت الروس عن كثير من المناطق التي احتلوها. وعند هذه النقطة لجأت الإمبراطورية الروسية إلى أسلوب آخر لزعزعة كيان الدولة العثمانية، هو أسلوب الفتنة الداخلية، فقامت بإثارة مسيحيي المورة على العثمانيين، واتجه الأسطول الروسي إلى المورة لدعم الثورة، ولكنه مُني بالهزيمة، ولكن بعض السفن التي أفلتت تمكنت من إحراق جزء كبير من الأسطول العثماني، ثم اتجهت لاحتلال جزيرة "لمنوس"، فأجبرتها البحرية العثمانية على التقهقر، وأخذت الثورة في المورة. وفي ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢م،

الموافق فيه ٩ ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ، تهادن الفريقان مقابل بعض الامتيازات لصالح روسيا لعل أهمها هو حقها في حماية جميع المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية وفي غضون الحرب العثمانية الروسية، ظهرت حركتان استقلاليتان عن الدولة العثمانية هي: حركة علي بك الكبير في مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين، وقد تمكن العثمانيون من القضاء عليها.

ابتدأت محاولات الإصلاح الجدية في عهد السلطان سليم الثالث، الذي يُعد من أوائل المصلحين والرواد الحقيقيين في التاريخ العثماني كله، وقد قلده من جاء بعده، واستهدفت إصلاحاته نواحي الحياة كافة، إدارية وثقافية واقتصادية واجتماعية وعسكرية^(١) كانت ثقافة هذا السلطان أكثر اكتمالاً من ثقافة من سبقه من السلاطين، إذ تلقى بعض التدريب على الأفكار الغربية، كما تلقى تعليماً خاصاً بالطرق الأوروبية، وأطلع على كتابات المؤلفين الأوروبيين، ويبدو أنه استوعب الحالة المتدنية للدولة بشكل أفضل من أسلافه. وعندما اعتلى هذا السلطان العرش كانت ثروات البلاد قد وصلت إلى حالة متدنية، وكان العثمانيون قد عادوا للحرب مع روسيا والنمسا، ولم يكن باستطاعة أي سلطان أن يقوم بحملة إصلاحات ورحى الحرب دائمة، لكن جاءت عناية القدر، عندما ظهرت الثورة الفرنسية وانشغل الإمبراطور النمساوي بها، وخاف أن تمتد إلى بلاده، فعقد صلحاً مع العثمانيين أعاد إليهم بموجبه بلاد الصرب وبلغراد.

واجهت السلطان سليم الثالث في بداية حياته السياسية، المشكلات التقليدية القديمة: تفوق الغرب، والاتجاه المحافظ لشعبه، وكان بطبعه ميالاً للإصلاح بحيث لم يتردد في الأخذ ببعض الأنماط الغربية، بعد أن حصل على معلومات عن المؤسسات المدنية والعسكرية لدول أوروبا الغربية وأسباب تفوقها على العثمانيين. فجاء بفكرة الجنود النظامية ليتخلص من الإنكشارية الذين أصبحوا منبعاً للفتن والهزائم، وأصلح الثغور وبنى القلاع الحصينة لحمايتها وجعل إنشاء السفن على الطريقة الفرنسية، واستعان بالسويد في وضع المدافع، وترجم المراجع العلمية في الرياضيات والفن العسكري، كما وضع نظاماً هرمياً للقيادة العسكرية، وأخضع التجنيد لقواعد أكثر صرامة، ووضع نظاماً للجنود المشاة تضمن تعليمات لمساعدة الجنود على التصرف كوحدة، ودُعي هذا النظام "بالنظام الجديد". كان من الطبيعي أن تبرز المعارضة لإصلاحات السلطان سليم الثالث العسكرية من

(1) Amira K. Bennison, "Muslim Universalism and Western Globalization," in Globalization in World History, ed. A. G. Hopkins, p. 89.

جانب المحافظين عند إدراكهم لنتائجها ، فنظر الإنكشارية إلى هذه الإصلاحات نظرة ارتياب خاصة بعد فصل السلطان الأسطول والمدفعية عن فرقته، فثاروا ومعهم الجنود غير النظاميين وأجبروا الخليفة على إلغاء النظام العسكري الجديد ، ولم يكتفوا بذلك بل عزلوا السلطان وقاموا بقتله لاحقاً بناءً على أمر خليفته ، ويُعتبر سليم الثالث السلطان العثماني الوحيد الذي قُتل بسلاح أبيض.

وكان من أبرز الأحداث التي حصلت في عهد سليم الثالث قيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت الأول ، فتحول أعداء الأمس إلى حلفاء والعكس صحيح ، حيث انهارت الصداقة العثمانية الفرنسية التي قامت منذ عهد السلطان سليمان القانوني ، وتحالفت روسيا وبريطانيا مع الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر ، وفي هذه أيضاً تكونت جمهورية مستقلة في اليونان تحت حماية الدولة العثمانية وبعد سليم الثالث تولى مصطفى الرابع عرش آل عثمان ، ولم يدم ملكه طويلاً قبل أن تثور الإنكشارية عليه ويقوموا بعزله وتنصيب أخيه محمود بدلاً منه . امتلأ عهد محمود الثاني بأحداث مهمة ، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ، فنتيجة للضعف الشديد الذي دب في أوصال الدولة العثمانية ظهر فيها اتجاهان : الاتجاه الأول : الذي أرجع ما وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف إلى الابتعاد عن الإسلام ، والذي ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة في الأرض إلا بالتمسك به ؛ والاتجاه الثاني : الذي يقوم على ضرورة تقليد أوروبا تقليداً أعمى ، لكي يصل العثمانيون إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار وكان من نتيجة الإيمان بالاتجاه الأول أن قامت الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية واجتذبت إليها الكثير من أهلها ، ودعت إلى تطهير الإسلام من كامل الشوائب التي تعلقت به عبر القرون . ولما رأى السلطان محمود أنه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الإسلام ، كلف محمد علي باشا ، والي مصر ومؤسس أسرتها الخديوية العلوية ، بمحاربتها والقضاء عليها ، ففعل ما طلب منه وأباد الحركة الوهابية ، ثم شرع في إصلاح مصر وتنظيمها وفق النظام الأوروبي .

وفي بداية عهد محمود الثاني استقلت عدة دول أوروبية عن الدولة العثمانية ، وكانت بداية انشقاق أوروبا الشرقية عن الدولة العثمانية عندما ثار الصربيون وطالبوا باستقلالهم ، فقمعتهم الدولة العثمانية مرتين ، وتعهدت ألا تتدخل في شؤون الصرب الداخلية ، وأن تكون السيطرة للعثمانيين في الصرب على القلاع فقط سرعان ما أعقب هذه الثورة عصيان "علي باشا" والي مدينة يانية الألبانية ، حيث امتنع عن دفع الخراج واحترام الأوامر التي تُرسل إليه

من الأستانة، فأرسل إليه السلطان جيشاً تمكن قائده من القبض عليه وإعدامه، وما فتئت المشاكل تتهاج على الدولة العثمانية، فقد ثار اليونانيون طلباً للاستقلال وهزموا فرقة عسكرية عثمانية أرسلت لقمعهم، فلم يجد السلطان لإخماد الثورة في اليونان غير محمد علي باشا والي مصر، فاستجاب الأخير لطلبه وأرسل سفناً حربية محملة بالجنود إلى اليونان استطاعت أن تحقق انتصارات كاسحة على الثوار. غير أن ثورة اليونانيين نجحت، واستطاع الثائرون أن يستقلوا ببلدهم عن الدولة العثمانية بعد المساعدات التي تلقوها من الدول الأوروبية. كذلك كان الأسطول العثماني قد تحطم في معركة نافارين عام ١٨٢٧م، على يد السفن البريطانية والروسية.

رابعاً: دور الأفول والتنظيمات (١٨٢٨ - ١٩٠٨م)

تتميز هذه المرحلة بانحدار الدولة العثمانية سريعاً وفقدانها لمعظم ممتلكاتها الباقية في أوروبا، وقيام السلطان محمود الثاني بعدد من الإصلاحات الكبيرة الهادفة لجعل الدولة تواكب أوروبا الغربية في التطور والازدهار وأول ما قام به السلطان محمود الثاني في هذا المجال كان إلغاءه لطائفة الإنكشارية بعد أن أصبحت إحدى عوامل تخلف وتراجع الدولة يقيناً، فاعترض الإنكشارية على ذلك وحاولوا التمرد وتجمعوا في أحد ميادين الأستانة، فحصدتهم المدفعية العثمانية حصداً. أعلن السلطان بعد قضائه على الإنكشارية نظاماً جديداً للجنود قلد فيه الأوروبيين، كذلك قام بعدد من الإصلاحات المدنية مثل إقامة المدارس الحديثة ورفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم، وإرسال بعثات طلابية إلى الخارج، واتجه بالبلاد إلى تقليد أوروبا حتى إنه تزيا بزيتهم، واستبدل بالعمامة الطربوش، والعباءة والجلباب بالبذلة الغربية.

أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين بعد أن رفضت الدولة العثمانية الاعتراف بقرارات مؤتمر لندن الذي نص على استقلال اليونان، وتمكنت من احتلال البغدان والأفلاق، بل وصلت إلى مدينة أدرنه وهددت الأستانة بالسقوط، فتدخلت بريطانيا وفرنسا لوقف تقدم روسيا خوفاً على مصالحها في الشرق، فعقدت بين الروس والعثمانيين معاهدة أدرنه التي نصت على عودة المناطق التي احتلها الروس إلى الدولة العثمانية مقابل تمتع روسيا ببعض الامتيازات وتعويضها عن الخسائر التي تكبدتها في الحرب، واستقلال بلاد الصرب وتسليم ما تحتفظ به الدولة من قلاعها وفي أواسط سنة ١٨٣٠م، ساءت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا مجدداً، بعد أن نفذت الأخيرة ما كانت تتويبه من مدة، ألا وهو الاستيلاء على ولاية الجزائر بدعوى منع تعدي القراصنة المسلمين على مراكبها التجارية، وبذلك فقدت

الدولة العثمانية الجزائر إلى الأبد ، على الرغم من استبسال المقاومة بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ، الذي اضطر للاستسلام بعد أن دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة.

استمرت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية بعد سقوط الجزائر ، وذلك أن والي مصر محمد علي باشا طمع في توسيع رقعة نفوذه بعد أن غدا أقوى ولاية السلطان العثماني في الشرق العربي ، وكان السلطان محمود الثاني قد وعد محمد علي بأن يوليه على بلاد الشام لقاء خدماته الجليلة التي قدمها للدولة ، لكنه عاد وأخلف وعده ، إذ شعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها. فقرر محمد علي أن يجتاح بلاد الشام بالقوة ، فوجه جيشه إلى فلسطين وأخضعها ، ثم زحف على مدن الساحل اللبناني وفتحها الواحدة تلو الأخرى ، وسرعان ما لحقت بها سوريا الوسطى والشمالية ، وامتد زحف الجيش المصري إلى الأناضول حيث هزم الجيش العثماني حديث النشأة في قونية ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الأستانة ، حتى خيل للعالم في ذلك الوقت أن نهاية الدولة العثمانية أصبحت قريبة عقب هزيمة قونية ، استنجد السلطان محمود الثاني بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطر المداهم ، فلم ينجده إلا روسيا ، التي أرسلت ١٥ ألف جندي إلى الأستانة للدفاع عنها ، فخشيت بريطانيا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسي وتوسطت للصلح مع محمد علي ، حيث أقر له السلطان بولاية مصر وجزيرة كريت وفلسطين ولبنان وأضنة ، لقاء الأموال نفسها الأموال التي كان يؤديها عن الشام الولاية العثمانيون من قبل.

وفي غضون ذلك توسع النفوذ الروسي في الدولة خصوصاً بعد أن أبرم السلطان معاهدة مع روسيا تعهدت فيها الأخيرة بالدفاع عن الدولة العثمانية لوهاجمها المصريون أو غيرهم. عمل السلطان محمود الثاني في أواخر أيامه على استعادة الشام ومصر ، فجمع جيشاً جديداً ، ونشط عملاؤه في الشام يحرضون الشعب للثورة على المصريين ، ثم سار الجيش وقام بهجوم عبر الفرات أسفر عن كارثة نزلت به ، إذ بدده الجيش المصري في معركة نصيبين عام ١٨٣٩م. ولم تصل أنباء هذه الهزيمة إلى السلطان محمود الثاني ، إذ توفي قبل ذلك بأيام.

خلف السلطان عبد المجيد الأول أباه السلطان محمود الثاني ، وهو صبي لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وكانت الدولة العثمانية على شفير الانهيار ، إذ أصبحت بلا جيش ، بفعل خسارة الجيوش العثمانية أمام المصريين ، وتشتيت القوى المسلحة ، وبلا أسطول ، بفعل انضمام الأسطول العثماني طواعية إلى الأسطول المصري في الإسكندرية ، فسارع السلطان الفتى إلى إجراء مفاوضات مع محمد علي ، فاشترط الأخير ، لعقد الصلح ، أن

يكون الحكم في الشام ومصر حقاً وراثياً في أسرته، وكاد السلطان عبد المجيد يقبل شروط محمد علي لو لم تصله مذكرة مشتركة من الدول الأوروبية الكبرى، عدا فرنسا، تطلب إليه ألا يتخذ قراراً يتعلق بمحمد علي إلا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي، فوافق على ذلك.

ثم اجتمعت كل من بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا وعقدوا اتفاقية صدق عليها العثمانيون، وعرضوها على محمد علي، وهي تنص على بقاء ولاية مصر وراثية في عائلته، وولاية عكا مدى حياته، فرفض محمد علي ذلك وطرد المندوبين الأوروبيين والمندوب العثماني من مصر، وبناءً على ذلك هاجمت البوارج الحربية البريطانية والنمساوية والعثمانية مدن الساحل الشامي واستطاعت أن تحرز انتصاراً كبيراً على جيوش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وأجبرته على العودة إلى مصر والانكماش فيها، وبذلك عادت الشام إلى ربوع الدولة العثمانية، وأصبحت سيادة الدولة على مصر سيادةً اسمية. توصلت الدول الأوروبية الكبرى، بعد انتهاء الأزمة العثمانية - المصرية، إلى عقد اتفاقية جماعية مع الدولة العثمانية، أطلق عليها تسمية "معاهدة المضائق" أو "اتفاقية لندن للمضائق"، وقد أرست هذه الاتفاقية نظاماً للمضائق العثمانية ظل مطبقاً بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى. حدث في عهد السلطان عبد المجيد عدد من الفتن الداخلية في الولايات العثمانية، وازدادت الدولة ضعفاً على ضعف، مما زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسم "الرجل المريض"، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسام تركتها مستقبلاً.

اتخذت المسألة الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر، شكلها الحديث، وبرزت مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوروبا، ومع اتجاه العثمانيين المتزايد نحو فقدانهم تفوقهم العسكري أمام الدول الأوروبية، وبخاصة روسيا والنمسا، وقد تحكمت بها ثلاثة عوامل هي: ضعف الدولة العثمانية المتزايد وظهور عدد من القوميات المسيحية الصغيرة في شبه جزيرة البلقان والفتن الداخلية المستمرة في بعض الولايات، وقد سمحت جميع هذه العوامل للدول الأوروبية أن تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة وتسييرها حسب مصالحها.

ومن أبرز الأحداث التي استغلتها أوروبا للتدخل في الشؤون العثمانية كانت الفتن الطائفية التي وقعت في بلاد الشام خلال عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في جبل لبنان، فتدخلت فرنسا بحجة حماية الكاثوليك وبشكل رئيسي المواردنة، وتدخلت بريطانيا لدعم الدرروز، وروسيا لدعم الأرثوذكس، ف وقعت في البلاد مذابح

عظيمة تخللتها سنوات قليلة من السلام، كما اتجهت الدولة نحو سياسة نقل أمور الولايات إلى سلطة داخلية فأنها حُكم ممالك العراق في بغداد والبصرة وآل جليلي في الموصل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كما قضاوا على الإمارات الكردية شبه المستقلة في حكاري وسوران وبادينان إثر ضغط دولي عقب مجازر بدر خان في الأربعينيات من نفس القرن. تُعدّ حرب القرم التي ابتدأت عام ١٨٥٤م بين روسيا والدولة العثمانية، من أهم مراحل المسألة الشرقية، فقد دفعت هذه الحرب بالعلاقات الدولية نحو التأزم، وغيّرت التحالفات السياسية، فوقفت بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية للدفاع عن سلامة أراضيها ضد الروس.

وتتلخص هذه الحرب في أن القيصر الروسي نيقولا الأول اعتقد أن بإمكانه أن يطرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بشكل جذري، وأبدى نيته في اقتسام أملاك الدولة العثمانية، فعرض على بريطانيا تقسيم الدولة العثمانية بينهما، فرفضت، فحاول إغراء فرنسا بالإغراء نفسه، فرفضت أيضاً، فهددت روسيا باحتلال الأفلاق والبغدان إن لم تعد الدولة العثمانية للإمبراطورية الروسية حق حماية المسيحيين الأرثوذكس الذي فقدته وفق نص معاهدة المضائق، فلم يعرها السلطان أي اهتمام بعد أن وعدته بريطانيا وفرنسا بالدفاع عن الدولة ضد أي هجوم محتمل، فأقدمت روسيا على تنفيذ تهديدها، فتحالف العثمانيون مع بريطانيا وفرنسا والنمسا ومملكة البيدمونت بإيطاليا والسويد، وقصفت أساطيلهم ميناء سيفاستوبول في شبه جزيرة القرم، وضربت الكثير من قلاعها بالإضافة للإغارة على الكثير من موانئ روسيا على البحر الأسود، وتوغلت القوات المتحالفة في أراضي روسيا حتى طلبت الصلح، فعُقدت معاهدة سلام في باريس أنهت الحرب وأنقذت الدولة العثمانية من الخطر الروسي الذي كان يهددها، ويات من المنتظر أن تغدوا بلدًا متحدًا يأخذ بركب الحياة الدستورية كما عرفها الغرب، وتتضم إلى سائر أعضاء المنظمة الدولية على قدم المساواة.

وفي أواخر عهد السلطان عبد المجيد الأول، نشبت فتنة طائفية كبرى في الشام، وتحديداً في دمشق وسهل البقاع وجبل لبنان بين المسلمين والمسيحيين عمومًا، والدروز والموارنة خصوصًا ف وقعت مذابح مؤلمة وبلغ عدد القتلى اثني عشر ألفاً، وكان ممثلو بريطانيا وفرنسا يشجعون الفريقين على الانتقام ويساعدونهم على الثأر، فخشي السلطان أن تؤدي هذه الفتنة إلى تدخل الدول الأجنبية العسكرية، فأوعز إلى المسؤولين العثمانيين في بيروت ودمشق بوجوب إخمادها حالاً، وأوفد في الوقت ذاته وزير الخارجية فؤاد باشا الذي عُرف بالدهاء والحزم، وخوله سلطات مطلقة لمعالجة الموقف، فقام

بمهمته خير قيام وأعدم معظم الذين تسببوا بالمذابح وسجن الباقين ونفى بعضهم وأعاد بعض المسلوبات إلى أصحابها من المنكوبين المسيحيين، وجمع تبرعات كثيرة أنفقها على ترميم القرى. وكانت الدول الأوروبية قد ضغطت على السلطان وحملته على القبول بتشكيل لجنة دولية يوكل إليها أمر إعادة الهدوء إلى جبل لبنان ودمشق، وتصفية ذبول الفتنة. توفي السلطان عبد المجيد يوم ٦ يونيو سنة ١٨٦١م، الموافق فيه ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ، عن أربعين سنة، بعد أن قام ببعض الإصلاحات الكبيرة في الدولة، أبرزها فرمانه الشهير الصادر سنة ١٨٥٦م، الذي ساوى فيه بين جميع رعايا الدولة مهما اختلفت عقيدتهم الدينية، فتحسن وضع المسيحيين بشكل أكبر، وازدادت نسبة المتعلمين منهم، الأمر الذي ساهم في إنعاش اقتصاد الدولة لاحقاً.

بويع السلطان عبد العزيز الأول بالخلافة وعرش آل عثمان بعد وفاة أخيه عبد المجيد، ومما يذكر في عهده: افتتاح قناة السويس وقيام ثورة في جزيرة كريت تم إخمادها. ^(١١٥) وكان هذا السلطان كثير التجوال في البلاد الخارجية، فزار مصر ووزار فرنسا، وحاول تقرب روسيا إليه حتى تخافه دول أوروبا، لكنه عُزل بناءً على فتوى شرعية بسبب تبذيره أموال الدولة، كما تنص بعض المصادر، وعُثر عليه ميتاً في غرفته فقيل أنه انتحرو قيل أنه قُتل، وتولّى بعده شقيقه مراد، ولم يستمر عهده أكثر من ٣ أشهر، وتم عزله بسبب اختلال عقله.

وبعد مراد الخامس بويع عبد الحميد الثاني بالخلافة وعرش السلطنة، وفي ذلك الحين كانت البلاد تمر في أزمات حادة ومصاعب مالية كبيرة، وتشهد ثورات عاتية في البلقان تقوم بها عناصر قومية تتوثب لتحقيق انفصالها، وتتعرض لمؤامرات سياسية بهدف اقتسام تركيا "الرجل المريض". ومنذ اليوم الأول لارتقائه العرش، واجه السلطان عبد الحميد موقفاً دقيقاً وعصبياً، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية، ووجد السلطان نفسه مشبع بالثورة والاضطراب فقد تجددت الثورة في إقليميّ البوسنة والهرسك، واستمرت في بلغاريا، وكان الصرب والجبل الأسود في حالة حرب مع الدولة. ولهذه الأسباب تدخلت الدول الأوروبية لاستغلال الموقف بغية تحقيق مصالحها بحجة إحلال السلام. فشجعت روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود على حرب العثمانيين، حيث رغبت النمسا بضم البوسنة والهرسك، بينما رغبت روسيا بضم الأقالق والبغدان وبلغاريا، ووعدت روسيا النمسا والصرب والجبل الأسود بالوقوف بجانبهم إذا

قامت حرب بينهم وبين العثمانيين وبالفعل قامت الحرب بين الدولة العثمانية وتلك الدول، إلا أن الجيوش العثمانية استطاعت الانتصار ووصلت إلى مشارف بلغراد، غير أن تدخل أوروبا أوقف الحرب.

قدّمت الدول الأوروبية الكبرى لائحة للدولة العثمانية تقضي بتحسين الأحوال المعيشية لرعاياها المسيحيين، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين، فرفضت الدولة اللائحة؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحاً في شؤونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سبباً كافياً للحرب، وفي هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع العثمانيين، فاحتلت الأفلاق والبغدان وبلغاريا ووصلت أدرنة وأصبحت على بعد ٥٠ كيلومتراً فقط من الأستانة، كذلك دخلت جيوشها الأناضول، وعادت الصرب والجبل الأسود لتعلن الحرب على الدولة العثمانية، فاضطرت الأخيرة إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة سان ستيفانو مع روسيا، التي اعترفت فيها باستقلال الصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ثمّ تمّ تعديل هذه المعاهدة في مؤتمر عُقد في برلين تمّ بموجبه سلخ المزيد من الأراضي عن الدولة العثمانية. كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية هذا الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال الكامل، ودعمتها أوروبا في سبيل تحقيق ذلك، وهكذا توالى الأزمات السياسية في وجه السلطان عبد الحميد الثاني بعد الحرب العثمانية الروسية ومؤتمر برلين. انضمت تونس إلى قائمة الأقاليم التي فقدتها الدولة العثمانية لصالح أوروبا في عهد عبد الحميد الثاني عندما احتلتها فرنسا، ثم لحقتها قبرص التي احتلتها بريطانيا، وأتبعها بمصر والسودان، بحجة حماية الدولة العثمانية من أي اعتداء.

لعلّ أهم الأحداث التي جرت في عهد عبد الحميد هي الأزمة الأرمنية وقيام الحركة الصهيونية، ويتفق المؤرخون، المسلمون منهم خاصة، أن هذين الحدثين هما ما ساهم في تشويه صورة الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني. وتفصيل الأزمة الأرمنية أن الأرمن طالبوا بعد مؤتمر برلين باستقلالهم، خاصة أن السلطان لم يهتم بتطوير يُذكر لأوضاعهم، وعملت البعثات التنصيرية الأوروبية والأمريكية على إذكاء الشعور القومي الأرمني، وفي الوقت نفسه اعتقدت الدوائر الحاكمة في الأستانة أن بعض الأرمن يعملون كعملاء لروسيا وبريطانيا، وساورها الشكوك حول ولائهم، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد كيان الدولة ومستقبلها وأمنها. وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن، ولم تلبث أن عمّت الاضطرابات، فخرج حوالي ٤٠٠٠ أرمني عن طاعة السلطان في بدليس بعد تأخر

الإصلاحات الموعودة، فقام العثمانيون بالرد على ثورة الأرمن بأن أرسلوا جيشاً مؤلفاً بمعظمه من الأكراد إلى مناطق الثورة حيث دمّروا العديد من القرى الأرمنية وقتلوا كثيراً من الثوّار ومن ساندتهم، فيما أصبح يُعرف باسم "المجازر الحميدية"، وتطور العنف ليشمل المسيحيين بشكل عام كالسريان كما في مجازر ديار بكر. أما الحركة الصهيونية، فنشأت بقيادة ثيودور هرتزل، ودعت إلى إنشاء وطن قومي لليهود العالم في فلسطين الخاضعة للدولة العثمانية وتشجيع اليهود على الهجرة إليها، فأصدر السلطان عبد الحميد فرماناً يمنع هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة، لكنه اضطر في نهاية المطاف إلى التهاون معها تحت ضغط الدول الأوروبية، وخاصة بريطانيا^(١).

خامساً: دور الانحلال وخاتمة الدولة (١٩٠٨ - ١٩٢٢م)

كانت الأفكار القومية قد تغلغت بشكل كبير في جسم الدولة العثمانية وأواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأنشأ الداعون لهذه المفاهيم المؤسسات والجمعيات التي تحمل أفكارهم، وكان من أهم هذه الجمعيات جمعية تركيا الفتاة، التي تأسست في باريس وكان لها فروع أخرى في برلين، وفي أنحاء الدولة العثمانية في سالونيك والأستانة، واستطاعت أن تضع لها قدماً في الجيش العثماني، وكان لها جناح عسكري عرف بتنظيم الاتحاد العثماني وكان لها جناح مدني هو الانتظام والترقي، واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم "الاتحاد والترقي". وامتد نفوذ الاتحاد والترقي في الدولة، فضم إليه الكثير من ضباط الفيلق الأول المسيطر على الأستانة، وكذلك الفيالق الثاني والثالث المرابطين في الولايات العثمانية الباقية في أوروبا. وقد حاول السلطان عبد الحميد مقاومة هذه الجمعيات، فنادى وتمسك بفكرة الجامعة الإسلامية، لكنه فشل أمامهم، خصوصاً بعد أن سيطروا على أكثر الجيش. فرض الاتحاديون على السلطان إعلان دستور جديد للبلاد يخلف الدستور الأول أو "القانون الأساسي" الذي أعلنه سنة ١٨٧٦م، فذعن لمطلبهم

(١) قاوم السلطان عبد الحميد الثاني فكرة اليهود الهادفة إلى إقامة دولة لهم في فلسطين بما أوتي له من قوة، فرفض في عام ١٨٧٦م عروض "حايم غوديل" لشراء مساحات من الأراضي في فلسطين، لإسكان المهاجرين اليهود فيها، وقد لجأ اليهود إلى سفراء الدول الأوروبية وروسيا والولايات المتحدة في الأستانة لإقناع السلطان بالسماح لهم بالهجرة. ونتيجة لازدياد شعور السلطان بالتحرك اليهودي، أبلغ المبعوث اليهودي "أوليغانت" أن باستطاعة اليهود العيش بسلام في أية بقعة من أراضي الدولة العثمانية إلا فلسطين، وأن الدولة تُرحب بالمضطهدين، ولكنها لا تُرحب بإقامة دولة دينية يهودية في البلد المذكور. وقد حاول بعض اليهود تحدي قرار الباب العالي بالنزول في يافا، فتصدت لهم السلطات العثمانية ومنعت دخولهم، وبخاصة الروس منهم، إلى مدينة القدس. لكن السلطان عاد وسمح لليهود بسكن القدس لمدة شهر واحد فقط أثناء حجهم إليها، تحت ضغط الدول الأوروبية، ثم عاد وجعل هذه الفترة ٣ أشهر. وقد سافر ثيودور هرتزل إلى الأستانة وحاول الاجتماع بالسلطان، لكن الأخير رفض مقابله، وحين تمكن هرتزل من الاجتماع به أخيراً عرض عليه خمسين مليوناً من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة، وخمسة ملايين من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة، بالإضافة إلى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصادياً، مقابل تنازلها عن فلسطين، لكن السلطان رفض رفضاً قاطعاً.

وأعلن الدستور، فسيطر الاتحاديون على معظم مقاعد المجالس النيابية، ووجدوا أن السلطان سيكون عائقاً في تحقيق أهدافهم، فعزلوه وولوا أخاه محمد الخامس مكانه.

تولّى محمد "رشاد" الخامس العرش والدولة في احتضار، ولكنها كانت ما تزال متماسكة، وأصبح الاتحاديون هم الحكام الفعليين للبلاد، أما السلطان فكان مجرد ألعوبة في أيديهم، وفي ذلك الوقت كانت الدولة قد أضاعت كثيراً من بلادها في أوروبا، والأفكار القومية تنتشر يوماً بعد يوم، والبلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة، والأوروبيون قد تسلطوا على مالية الدولة لاستيفاء ما لهم عليها من ديون وفي نفس السنة لاعتلاء محمد رشاد العرش، سيطرت الإمبراطورية النمساوية المجرية على البوسنة والهرسك، وبعد ثلاث سنوات هاجمت إيطاليا ليبيا، آخر الممتلكات العثمانية الفعلية في شمال أفريقيا، فقاومها العثمانيون بكل طاقتهم، لكنهم لم يستطيعوا شيئاً، فسقطت البلاد بعد سنة من المعارك الشديدة. ثم جاءت حرب البلقان الأولى التي تولّى كبرها كل من مملكة صربيا ومملكة الجبل الأسود ومملكة اليونان ومملكة بلغاريا، وفقدت فيها الدولة العثمانية ما تبقى لها من ممتلكات في البلقان عدا تراقيا الشرقية ومدينة أدرنة، وانسحب حوالي ٤٠٠,٠٠٠ مسلم من سكاّن تلك البلاد إلى تركيا خوفاً من ما قد تُقدم عليه جنود العدو وفي تلك الفترة ظهرت النزعة التركية الطورانية بقوة وعنف، وسعى حزب الاتحاد والترقي إلى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع الأتراك في العيش تحت ظل الدولة العثمانية، مثل العرب والشركس والأكراد والأرمن وفي سنة ١٩١٣م عقد الوطنيون العرب مؤتمراً في باريس، واتخذوا مقررات أكدوا فيها على رغبة العرب في الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية بشرط أن تعترف الحكومة بحقوقهم، كون العرب أكبر الشركاء في الدولة، وطالب هؤلاء أن تُحكم الأراضي العربية حكماً ذاتياً وفق نظام اللامركزية، وقد وعد الاتحاديون الزعماء العرب الأحرار بقبول مطالبهم، لكن ذلك لم يتحقق بفعل نشوب الحرب العالمية الأولى.

سادساً: الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)

انطلقت شرارة الحرب الأولى في ٢٨ يونيو عام ١٩١٤م عندما كان الأرشيدوق فرانز فرديناند، وليّ عهد العرش النمساوي المجرى يقود سيارته في مدينة سراييفو في البوسنة الخاضعة للنمسا، فاغتاله أحد القوميين الصرب، فاعتبرت الإمبراطورية النمساوية المجرية صربيا مسؤولة عن هذا الاغتيال، فتدخلت روسيا لدعم صربيا مدعومة من فرنسا وتحركت ألمانيا ضدهما، وما لبثت أن دخلت بريطانيا الحرب بعد ذلك بفترة

قليلة، ومن ثم تشكلت الأحلاف، فدخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب معسكر دول المحور، أي ألمانيا والنمسا وبلغاريا، بعد أن فقد العثمانيون الأمل في محاولات التقارب مع بريطانيا وفرنسا، وفشلوا في الحصول على قروض عاجلة منهما لدعم الخزينة، وعُزلت الدولة سياسياً بعد حروب البلقان وإيطاليا؛ فلم يكن لهم سوى خيار التقارب مع ألمانيا التي رأت مصلحتها في "الانتشار نحو الشرق. وفي ١٠ أغسطس سنة ١٩١٤م، دخلت الدولة العثمانية الحرب بشكل فعلي، بعد أن سمحت لبارجتين ألمانيتين كانتا تطوفان البحر المتوسط، بعبور مضيق الدردنيل نحو البحر الأسود هرباً من مطاردة السفن البريطانية. وخطا الباب العالي خطوة مهمة باتجاه الاشتراك بالحرب، حيث أعلن الصدر الأعظم إلغاء الامتيازات الأجنبية، ملبياً بذلك إحدى المطالب الرئيسية للقوميين الأتراك، ثم اتخذ خطوة أخرى في طريق التحدي بإغلاقه المضائق بوجه الملاحة التجارية، كما ألغى مكاتب البريد الأجنبية وجميع السلطات القضائية غير العثمانية بعثت الانتصارات الألمانية الخاطفة على الجبهة الروسية الأمل في نفوس الاتحاديين، بشأن إمكانية استعادة الأراضي العثمانية المفقودة لصالح روسيا المهزومة، فهاجم الأسطول العثماني الموانئ الروسية في البحر الأسود، وقد شكّل ذلك أمراً واقعاً زج بالدولة العثمانية في الحرب، فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، واقتدت بها كل من بريطانيا وفرنسا، وردّ السلطان محمد الخامس بإعلان الحرب، ودعا المسلمين إلى الجهاد، إلا أن ذلك لم يتحقق، فأغلب مسلمي العالم كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار البريطاني أو الفرنسي، وكانت السلطات الاستعمارية قد جندت بعضاً منهم أيضاً في جيوشها خاضت الجيوش العثمانية الحرب على جبهات متعددة من دون استعداد كامل، فعلى الجبهة الروسية مُنيت الحملة العثمانية بهزيمة فادحة، حيث فتك القتال والصقيع والوباء بتسعين ألف جندي عثماني، وفي الجنوب نزل البريطانيون في الفاو على الخليج العربي واستولوا على العراق، أما عملية قناة السويس فجرت قبل الموعد المحدد، وفيها اتفق العثمانيون مع المصريين على قتال البريطانيين، لكنها أسفرت عن هزيمة العثمانيين وأودت بحياة الكثيرين دون طائل. وقام أسطول الحلفاء بمهاجمة مضيق الدردنيل في خطوة للاستيلاء على الأستانة وإخراج الدولة العثمانية من الحرب، وإمداد الجبهة الروسية، لكن هذا الأسطول الضخم عجز عن اجتياز المضيق وهزم العثمانيون طاقمه هزيمة كبيرة في معركة برية، كانت النجاح الوحيد لهم في مقابل سلسلة من الإخفاقات، وبرز في هذه المعركة القائد مصطفى كمال.

وأثيرت أثناء المعارك، التي اندلعت على الجبهة الشرقية وهجوم الحلفاء في الدردنيل

وغاليبولي، قضية الأرمن مرة أخرى، إذ قام الاتحاديون بنقل سكان المناطق الأرمنية في ولايات الشرق وكيليكيا والأناضول الغربية إلى بلاد الشام، بهدف تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة محتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي، وقتلوا عدداً من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرّض المرحلون لعمليات تعذيب وقتل فيما أصبح يُعرف باسم "مذابح الأرمن"، بعد فشل الحملة العثمانية على مصر، جرت اتصالات سرية بين البريطانيين في مصر والشريف حسين بن علي والي الحجاز، وبعض الزعماء العرب، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يثور العرب على الأتراك وينضموا إلى الحلفاء مقابل وعد من هؤلاء بمنح العرب الاستقلال وإعادة الخلافة إليهم. وتنفيذاً لهذا الاتفاق أعلن الشريف حسين في يونيو سنة ١٩١٦م الثورة العربية على الأتراك، فأخرجهم من الحجاز وأرسل قواته شمالاً بقيادة ولديه فيصل وعبد الله لتشارك القوات البريطانية في السيطرة على بلاد الشام. وفي غضون ذلك سُحقت المقاومة البلغارية في البلقان، مما أرغم حكومة صوفيا على طلب الهدنة، فأدرك الباب العالي خطورة الموقف، لأن الحرب أضحت قريبة من الأراضي التركية، ويمكن للعدو أن يتغلغل بحرية في تراقيا الشرقية ويحذف حتى أبواب الآستانة، فأبرم العثمانيون معاهدة مودروس مع الحلفاء، خرجوا بموجبها من الحرب.

سابعاً: حرب الاستقلال التركية (١٩١٩ - ١٩٢٢م)

توفي السلطان محمد الخامس قبل أشهر من انتهاء الحرب، وخلفه أخاه محمد "وحيد الدين" السادس. وبعد مرور شهر على توقيع هدنة مودروس، دخلت البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية ثم الأمريكية إلى القرن الذهبي، وأنزلت قواتها في الآستانة التي حولتها إلى قاعدة لنشاط الحلفاء في المنطقة كلها. سيطر الحلفاء على موانئ البحر الأسود كلها، واقتسموا الأراضي التركية، فاحتل الفرنسيون مرسين وأضنة، والإيطاليون أنطاكية وكوشاداسي وقونية، واحتل اليونانيون القسم الغربي من الأناضول، بالإضافة إلى تراقيا. كان ردّ الفعل الداخلي لاتفاق الهدنة سلبياً، فقد رفض الأتراك الخضوع للاحتلال والقبول بمشاريعه، فقامت ثورة وطنية في جميع أنحاء البلاد احتضنتها الحركة الوطنية بزعامة القائد مصطفى كمال، والتي عُرفت باسمه "الحركة الكمالية"، لتواجه خضوع الحكومة لرغبات الحلفاء وتعاون السلطان محمد السادس مع المحتلين، ومحاولات اليونان توسيع المناطق التي احتلتها، وازدياد الثورات الأرمنية. وعقدت الحركة الكمالية مؤتمرات عديدة في طول البلاد وعرضها لاستنهاض

الوعي القومي وإنقاذ البلاد من التقسيم، وتشكّلت حكومة وطنية برئاسة مصطفى كمال بهدف إقامة دولة تركية مستقلة، ألغت جميع القوانين والتعليمات التي أصدرتها الحكومة السابقة، ووضعت السلطان وحكومته خارج إطار القانون، وقد حاول السلطان القضاء على هذه الحركة فلم يفلح.

وفي تلك الفترة فرضت معاهدة سيفر على السلطان، التي مزّقت أوصال الدولة، وقد وقّع عليها مرغمًا، في حين رفضتها الحكومة الكمالية، ووضعت مخططًا لإنقاذ تركيا بمعزل عن السلطان. تمكّن مصطفى كمال بعد جهود مضنية واصطدامات شديدة مع اليونانيين، من الانتصار، فاستعاد كمال الأراضي التي احتلوها، وفرض على الحلفاء توقيع هدنة جديدة اعترفت فيها اليونان بانتصارات تركيا، فأضحى مصطفى كمال بطلاً قومياً، وبرز في الواجهة السياسية في حين ظل السلطان في الظل، فما كان منه إلا أن تنازل عن العرش واعتزل الحياة السياسية، وغادر البلاد على ظهر بارجة بريطانية نقلته إلى جزيرة مالطة، في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢م، الموافق فيه ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤١هـ.

اعتلى عرش السلطنة العثمانية، بعد تنازل السلطان محمد السادس، وليّ العهد عبد المجيد الثاني، وبعد أن أصبح مصطفى كمال سيد الموقف، وقّع معاهدة لوزان مع الحلفاء التي تنازل بمقتضاها عن باقي الأراضي العثمانية غير التركية، ثم جرّد السلطان من السلطة الزمنية وجعله مجرد خليفة، أي أشبه بشيخ الإسلام، ولكن من غير سلطة روحية أيضاً. ثم ألغى الخلافة سنة ١٩٢٤ وطرد عبد المجيد من البلاد، وبهذا سقطت الدولة العثمانية فعلياً بعد أن استمرت لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وانهارت معها الخلافة الإسلامية بعد أن استمرت ما يزيد عن ألف سنة. وقد رثا أمير الشعراء أحمد شوقي الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية بأبيات من الشعر قال فيها:

ضجت عليك مآذن ومنابر

ويكت عليك ممالك ونواح

الهند وألهة ومصر حزينة

تبكي عليك بمدمع سحّاح

والشام تسأل والعراق وفارس^(١)

أمحا من الأرض الخلافة ما ح ١٩

واتخذ "مصطفى كمال" عدة خطوات بعد أن صار رئيساً للجمهورية التركية وعدة إجراءات بكتابة اللغة التركية الأبجدية اللاتينية بدل الأبجدية العربية، وذلك عام ١٩٢٨م، ونبذ الطربوش لباساً للرأس وإحلال القبعة مكانه، وتترك الأسماء والألقاب، وصار هو

(١) أحمد شوقي بك: الشوقيات، ج ١.

نفسه يعرف من عام ١٩٢٤م باسم "كمال أتاتورك"، أي أبو الأتراك، وصار اسم رفيق كفاحه "عصمت باشا" يعرف "عصمت إينونو" نسبة إلى معركة إينونو المشهورة في هزيمة اليونان بالأناضول خلال حرب التحرير.

وبتولية "مصطفى كمال" أتاتورك رئاسة الجمهورية التركية انتهى عهد الدولة العثمانية الممتد من عام ١٣٠٠ حتى عام ١٩٢٤م، ليبدأ عهد الجمهورية التركية في تاريخها المعاصر الممتد من عام ١٩٢٤م حتى الآن^(١).

وهكذا سارت الأمور في الدولة العثمانية منذ تزعمها أرطغرل وابنه الأمير عثمان أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، حتى سقوطها على يد حركة الاتحاد والترقي ومصطفى كمال عقب سنوات الحرب العالمية الأولى والصراع ضد السلاطين، ثم ضد قوات الاحتلال الأوروبية.

كانت ميادين الصراع التي دخلتها الدولة العثمانية باسم الإسلام عديدة ومتنوعة في شبه جزيرة آسيا الصغرى والبلقان وشرق أوروبا حتى وسطها عند أسوار مدينة فينا، وفي بلاد فارس ضد الخطر الشيعي على الدولة العثمانية السنية وغيرها من بلاد الشام والعراق ومصر، وفي شمال أفريقيا العربية الإسلامية ضد الخطر الصليبي البرتغالي الأسباني وفرسان القديس يوحنا.

وقد استأثرت منطقة الخليج العربي باهتمام السلاطين العثمانيين ورجال الدولة رغم هذا الزخم من الميادين، وقد بدأ هذا الاهتمام منذ أوائل القرن السادس عشر لمواجهة الغزو البرتغالي الغاشم في المحيط الهندي والبحر الأحمر على الخليج العربي، ولكن الاهتمام زاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لمواجهة الغزو والاحتلال الأوروبي: الهولندي ثم البريطاني.

ثامناً: أحوال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م؛

شهدت الدولة العثمانية منذ عام ١٨٣٩م حركة للإصلاح الإداري بما يحقق حماية لجميع رعايا الدولة بصرف النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية أو الجغرافية ومنحهم حقوقاً متساوية في جميع نواحي الحياة، عرفت هذه الإصلاحات باسم التنظيمات، وذلك تحت ضغوط أوروبية لتحقيق حماية للأوروبيين في الولايات العثمانية في شرق أوروبا والمسيحيين في البلاد العربية المشمولين بحماية ورعاية الدول الأوروبية.

(١) د. رافت غنيمي الشبخ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص ٣٠.

كما أحدثت حركة التنظيمات بعض التغييرات الأساسية في إدارة الدولة ، حيث تأسس شكل إداري يحقق السلطة المطلقة لمركز الدولة ، كما اهتمت بتأسيس جامعة ومدارس أولية ومتوسطة ورشدية ، إلا أنه حدثت مشكلات للدولة من جانب الدول الأوروبية التي تصارعت حول أملاك الدولة العثمانية سواء في أوروبا أو في الوطن العربي: في لبنان وسوريا والعراق ومصر.

وخلال حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦م) مرت الدولة العثمانية بأزمة اقتصادية كبيرة اضطرتها لأول مرة للاستدانة الخارجية ، وقد زاد من هذه الأوضاع الاقتصادية والمالية السيئة في الدولة ، حالة الإسراف التي انتشرت بين رجال الدولة وبين الرعايا ، والابتعاد عن العادات اليومية البسيطة وانتشار أنماط المعيشة ذات التكاليف الباهظة التي اتخذت من أوروبا مثلاً يحتذى به وبصدر فرمان الإصلاحات في لندن وباريس وفرض على الدولة العثمانية وهو لمصلحة الرعايا غير المسلمين الذين يعيشون في أملاك الدولة العثمانية وبالتالي تمزيق أجزاء الدولة ، ومن ثم وقع المجتمع المسلم في الدولة العثمانية تحت النفوذ الاقتصادي الأوروبي ، وكانت الامتيازات التي انتزعتها الدول الأوروبية في المجالات القضائية والسياسية والتعليمية والدينية من الدولة العثمانية ، فاتحة ارتباط المجتمع المسلم بالمجتمعات الأوروبية^(١).

وعلى المستوى الداخلي في الدولة العثمانية ظهرت أول محاولة لتأسيس تنظيم سياسي واجتماعي يعمل ضد نظام الدولة الجديد ، وذلك عام ١٨٥٩م ، وكان هذا التنظيم بزعامة الشيخ أحمد وهو تنظيم سري انضم إليه مجموعة من الضباط العثمانيين الكبار ومن كبار الموظفين وكبار التجار والأعيان ولكن هذا التنظيم فشل في تحقيق أهدافه بالتخلص من السلطان العثماني عبد المجيد صاحب فرماني التنظيمات لعام ١٨٣٩م والإصلاحات عام ١٨٥٦م وقد توفي السلطان عبد المجيد في ٢٥ يونيو ١٨٦١م ليخلفه السلطان عبد العزيز.

وقد حدثت خلال فترة حكم السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) عدة أحداث خطيرة لها انعكاساتها على المجتمع العثماني ، كان منها مسألة استمرار الحركات الإصلاحية في الدولة أو عدم استمرارها ، وكان منها أيضاً الصراع بين السلطان وإدارة الدولة التي تزعمها الصدر الأعظم ، وكان منها كذلك مسألة كيفية تسديد الديون الخارجية التي اقترضتها الدولة سابقاً من البنوك الأوروبية.

(١) كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، المبحث الرابع، من كتاب دراسات في التاريخ العثماني، ترجمة وتقديم وتعليق دكتور سيد محمد السعيد ، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٥٢ - ٢٦٨.

وكان السلطان عبد العزيز حريصاً على الإمساك بالسلطة المطلقة وعلى منع الصدر الأعظم من الانفراد بالحكم والإدارة، وقد زادت الديون الخارجية للدولة زيادة ملحوظة، بسبب تمسك السلطان عبد العزيز بالمصروفات العسكرية والكبيرة لتقوية الدولة عسكرياً، في الوقت الذي تمكنت فيه الطوائف النصرانية - عدا اليهود - التي تعيش في الدولة العثمانية من تغيير بنائها وتشكيلاتها الداخلية بسرعة، وقد تطور فكر القومية بين رعايا الدولة من غير المسلمين تطوراً معتمداً على الدين أكثر من اعتماده على عناصر اللغة والجنس^(١).

وقد ظهرت في أواخر عهد السلطان عبد العزيز حركة مناهضة لاستبداد السلطان عبد العزيز عرفت باسم "كينج عثمانلير" أي الشبان العثمانيين، وتسعى لإعطاء المسلمين العثمانيين حقوقهم كمواطنين من الدرجة الأولى، ومقاومة التدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية للدولة، كان من زعماء هذه الحركة كل من: مدحت باشا وعلى سعاوي وإبراهيم شناس وغيرهم، والذين رأوا ضرورة وضع دستور على النسق الأوروبي، والذي عرف بالمشروطية لأنه يقوم على الحد من صلاحيات السلطان ووضع نظام مراقبة جديدة في الدولة، ومحاولة حل مشكلات المجتمع العثماني الذي بدأ في التغيير.

جاء ظهور مدحت باشا إذن مع ظهور جماعة أو تنظيم الشبان العثمانيين والذي شارك في إنزال السلطان عبد العزيز من عرش السلطنة العثمانية ورفع السلطان مراد الخامس الذي ظل في الحكم لمدة ثلاثة شهور ليرتفع السلطان عبد الحميد الثاني إلى عرش السلطنة في سبتمبر ١٨٧٦م، على يد رجال الدولة من أنصار المشروطية لمعرفة عنهم أنه مجيء للإصلاح، فنشر السلطان عبد الحميد القانون الأساسي الذي أعده مدحت باشا، وأعلن المشروطية "الدستور" أثناء انعقاد المؤتمر الأوروبي في استانبول في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م والذي كان يهدف إلى إعطاء الأقاليم الأوروبية - البوسنة والهرسك والبلغار - حقوقاً تصل بهم إلى الاستقلال، وبهذا نسف إعلان دستور مدحت باشا التآمر الأوروبي، حيث إن الدستور كان يؤكد على مبدأ وحدة أراضي الدولة العثمانية^(٢).

وإذا كان لمدحت باشا فضل إعداد المشروطية "الدستور" بتأييد من جماعة التنظيم (الشبان العثمانيين)، فإن تنفيذ الدستور بدأ بتشكيل مجلس نيابي مشترك مزدوج من الأعيان ومن المبعوثان في الدولة، وانعقاده الأول في عام ١٨٧٧م، ولكن السلطان عبد

(١) المرجع السابق: ص ٢٧٠ - ٢٨٠.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

الحميد الثاني قام في ١٤ فبراير بتعطيل البرلمان لأجل غير مسمى بسبب الانتقادات التي وجهها بعض أعضاء مجلس المبعوثان، وقام بنفي مدحت باشا الذي لم يكن على وفاق معه عقب عزله من مقام الصدارة العظمى^(١).

وفي تركية في الفترة من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٦م كانت الحالة السياسية تتابع تدهور نتيجة سفه رجال البلاط والحكام في القسطنطينية وكذلك الحكومة في أقاليم البلقان، وقد ثبت للأتراك أن إقليم الأحساء - الذي ضمه الباب العالي للدولة في العقد الأخير - تصعب السيطرة عليه وإدارته. إلى جانب أنه لا يفيدهم شيئاً يذكر، فرأت الحكومة التركية - خلاصاً من المشاكل والنفقات التي وجدت نفسها متورطة فيها - أن تعين شيخاً وطنياً من أهل الإقليم حاكماً باسم تركيا وأن تسحب معظم حاميتها، وخلال شهور قليلة بعدها قام قريب أمير الوهابيين بغزو الإقليم وأطاح مؤقتاً بالحكم التركي، كما حاصر الشيخ الذي عينه الأتراك في حصن بعاصمة الإقليم.

لكن موقف تركيا أمكن إنقاذه بوصول ناصر باشا شيخ المنتفق من البصرة ومعه قوات كبيرة. وقد عاد الشيخ إلى البصرة بعد أن سوى الأمور في الإقليم المتمرد "تسوية لا ترحم"، وفي سنة ١٨٧٥م، أنشئت ولاية جديدة باسم ولاية البصرة وذلك باقتطاع بعض الأقاليم من ولاية بغداد، وضم إقليم الأحساء إليها، وأصبح ناصر باشا، رغم أنه عربي المولد والقبيلة، أول حاكم لهذه الولاية^(٢).

ولم يحل هذا الفشل بين الحكومة التركية القائمة وقتذاك وسياستها في التوسع الإقليمي، ففي سنة ١٨٧٢ استولوا على منطقة "جوف العامل" على حدود نجد بواسطة قوة صغيرة أرسلت من فلسطين، ولكنهم لم يسيطروا على تلك الواحة سوى سنتين فقط، وبدأ تأمر الأتراك على موقع عديد على حدود قطر في عمان المتصالحة، وخلال هذه الفترة كان العلم التركي يرتفع أحياناً فوق العديد ويعتقد أيضاً أن أهلها كانوا يدفعون جزية موسمية لتركيا. وحوالي هذا الوقت فقط بدأت الغيرة تساور الحكومة التركية في نفوذ بريطاني متوهم في قلب الجزيرة العربية^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) لوزيمر: المرجع السابق، ص ٤٢٧.

(٣) موسوعة ويكيبيديا: الدولة العثمانية. <http://ar.wikipedia.org>.

الفصل الثاني

مشيخات الخليج العربي

مقدمة

مشيخات الخليج العربي

خبرة عرب الخليج في الملاحة

القواسم والجهاد البحري

عرب الخليج الآخرون والجهاد البحري

المغامرات البحرية

مقدمة

الخليج الحائر تعبير جيد ارتبط بأشهر خليج في قارات الكرة الأرضية، ألا وهو الخليج العربي الذي يمثل الحد الشرقي للوطن العربي، وهو تعبير ابتكره ابننا الراحل في معالجة الموضوعات المتميزة والتي انفرد بها وارتبطت به هو الدكتور محمود رمضان عبد العزيز خضراوي، وقد ساق هذا التعبير - الخليج الحائر - بسبب اللبس الذي ارتبط باسم الخليج من التاريخ القديم حتى التاريخ المعاصر، خاصة تعبير الخليج الفارسي والخليج العربي. وأيضا تعبير الخليج الثائر الذي أطلقه الزعيم جمال عبد الناصر في الخمسينيات من القرن العشرين في إطار حديثه عن وحدة الوطن العربي من المحيط الهادر الأطلسي إلى الخليج الثائر العربي. وتأتي حيرة تسمية الخليج في رأس المؤلف الدكتور محمود رمضان - ونحن نتفق معه - من تدخلات لقوى خارجية وقوى أجنبية لها أهدافها الاستغلالية والعنصرية، فبينما نجد إيران كقوة خليجية تطلق على الخليج تعبير الخليج الفارسي وسواحلها على الخليج ٨٦٠ كيلو مترا يسكن هذه السواحل سكان من أصول عربية، في الوقت الذي تمتد فيه سواحل الأقطار العربية المطلة على الخليج ١٣٥٧ كيلومترا، نجد بريطانيا منذ القرن التاسع عشر تسير اتجاه إيران في تسمية الخليج الفارسي، حيث أصبح لها مصالح في الهند - درة التاج البريطاني - ومصالح في جنوب إيران حينما تم اكتشاف البترول في أوائل القرن العشرين وتكوين شركة البترول الأنجلو إيرانية.

وشاعت تسمية الخليج باسم الخليج الفارسي في الأدبيات الأوروبية كما نقل عنها البعض من علماء الأمة العربية هذه التسمية، لأن أصحاب هذه الأدبيات من الأوروبيين انطلقوا منطلقا سياسيا لا علميا في التسمية، لتحقيق هدف مزدوج، الأول: تحقيق مصالح اقتصادية وإستراتيجية مع إيران. والثاني: التقليل من مكانة الأقطار العربية الخليجية التي تتطلع إلى الارتباط القوي مع أمتها العربية، وتدرك أن أمن الخليج العربي مرتبط بأمن الأمة العربية كاملة.

ومن المعروف أن قبيلة القواسم في إمارة رأس الخيمة لها تاريخها النضالي الواضح للدفاع عن عروبة الخليج ومعاداة قوة تستبيح مياهه، حتى ولو كانت هذه القوة هي بريطانيا المسيطرة على شبه القارة الهندية ابتداء من القرن السابع عشر وعمليات القواسم للجهاد البحري العربي الإسلامي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين في الخليج خير شاهد على المواقف العربية الواضحة للدفاع عن عروبة الخليج، كما أن مواقف القواسم في

النصف الثاني من القرن العشرين كانت أقوى وأوضح في الترويج لفكرة القومية العربية. وخير دليل على ما نقول قيام إمارة الشارقة وحاكمها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمي بجمع كل الوثائق والخرائط والتقارير والرسوم والإحصاءات والدراسات التي تؤكد عروبة الخليج، تلك المصادر التي اعتمد عليها الابن العزيز الدكتور محمود رمضان في عرض مبادرته القيمة عن الخليج الحائر، واستفاد منها في كتابة هذا العمل العلمي القيم.

ومن الأمور الجديرة بالتقدير أن الدكتور محمود رمضان ناقش حيرة الخليج بموضوعية ودون انحياز لعروبة الخليج أو تعصب ضد فارسية الخليج لأنه بدأ بمناقشة هذه التسميات منذ التاريخ القديم قبل مجيء الإسكندر الأكبر للمنطقة وأثناء هذا الوجود المقدوني، وبعد الإسكندر الأكبر مروراً بالعصر الإسلامي، ثم العصور الحديثة وحتى التاريخ المعاصر، انطلاقاً من أن تسمية الخليج بالخليج العربي حتى وإن كانت بعد تسمية قائد جيوش الإسكندر الأكبر بتاركوس عام ٣٢٦/٣٢٥ ق.م الذي أطلق اسم الخليج الفارسي على الخليج لأنه في طريقه إلى الهند اجتاز بلاد فارس وهزم إمبراطورها ولم يزر الساحل العربي الأكثر طولاً، بينما جاءت تسمية المؤرخ اليوناني سترابون عام ٥٨ ق.م إلى ٢٣م باسم الخليج العربي، إلا أن تسمية الخليج بالخليج الفارسي لم تنتشر إلا عام ٤٧٧م. بعد شيوع التسمية العربية بسنوات طويلة.

وهذا يدعونا إلى عرض لأحوال الخليج الجغرافية والتاريخية، إذا كان طول الخليج العربي ابتداءً من شماله في الفاو حتى رأس مستدم على مضيق هرمز نحو ١٢٥٧ كم فإن عرضه يتراوح بين ١٨٠ و ٢٨٠ كم، وتبلغ مساحته السطحية ٢٥٠ ألف كم^٢ أما أعماق قسم منه فإنه يبلغ ١٠٠ متر قرب جزيرة هرمز، والسواحل الشرقية للخليج ضحلة تنحصر عنها المياه سنوياً نظراً لترسبات الأنهار التي تصب فيه، وأهمها شط العرب ونهر قارون.

وتتميز مياه سواحله الغربية بكثرة الخلجان والأخوار والجزر العديدة. أما السواحل فتتكون أرضها من تلال رملية وسهول صحراوية تنتشر فيها بعض الواحات الخصبة ذات التربة الطينية الرملية الصالحة لزراعة النخيل والخضراوات والفاكهة، كما توجد الينابيع ذات المياه العذبة في داخل مياه الخليج وعلى سواحلها وخاصة في جزر البحرين. أما الآبار الإرتوازية والينابيع فإنها تتدفق في كثير من الإمارات على ساحل عمان وفي قطر. كما تشتهر أعماق الخليج العربي منذ القدم بأنها من أهم مصائد اللؤلؤ الطبيعي الذي ظل عماد ثروة إمارات الخليج وتجارتها حتى ظهور النفط بكميات غزيرة في البر والبحر^(١).

(١) إبراهيم الشريقي: أضواء على الخليج العربي ومسقط وعمان.

ويذكر الدكتور محمد متولى فى كتابه القيم: حوض الخليج العربى أن للخليج العربى شخصية متميزة تتمثل فى الآتى:

(١) الشخصية العربية للخليج:

وهذا يعنى أن الخليج عربى فى كل مظاهره وسماته ، حقيقة أن فارس أو إيران الحديثة تطل على سواحله الشرقية ، ولكن هذه السواحل كانت يوما ما عربية ، وما زالت آثار العرب ماثلة فيها سواء فى إقليم عربستان الذى يقع عند رأس الخليج أو فى سكانه من القبائل العربية ، من أمثال قبائل بنى كعب وبنى تميم ، أو فى الأعلام الجغرافية المختلفة فى منطقة السواحل الجنوبية لإيران من أمثال المحمرة وقارون والشيخ شعيل وقيس وخورموسى ، وهى أعلام تطلق على المدن والأنهار وعلى الجزر وأشباه الجزر ، وعلى الرؤوس التى تبرز فى مياه الخليج ، وعلى الخلجان التى تتوغل فى الأرض اليابسة.

(٢) الخليج العربى قديم قدم التاريخ:

شهدت شواطئ الخليج العربى أحداثا بارزة فى تاريخ البشرية ، حيث شهدت شواطئه مولد كثير من الحضارات والإمبراطوريات ، وظهرت على جوانبه الفلسفات والمذاهب الدينية وبعد أن قامت دول سومر وأكاد وبابل وعيلام عند رأس الخليج ثم زالت ، وبعد قيام إمبراطورية الفرس على شواطئه الشرقية كان الخليج منطلق الإسلام فى الشرق ، وكان بحيرة داخلية للخلفاء العباسيين ، حتى مجئ الأوروبيين إلى الشرق واحتلالهم لبلاد الهند ظل الخليج - كما كان - طريقا طبيعيا للثروات الأسطورية وممرًا بحريا لتجارة البخور والتوابل والحريز عندما كانت هذه السلع أندر وأغلى من الذهب.

(٣) تاريخ الخليج تاريخ متصل ذو حلقات متتابعة من الازدهار والانحلال:

يحدثنا التاريخ عن الدول القديمة التى قامت عند رأس الخليج مثل بابل وآشور وأكاد وعيلام. التى دامت وقتا طويلا ازدهرت فيه الحياة ، فنشطت التجارة والزراعة وعم الرخاء ، وما أن أفلت ، ركدت بأفولها الحياة فى أنحاء الخليج عموما. والإمبراطورية الفارسية التى قامت بعد ذلك على الشواطئ الشرقية الشمالية للخليج ، والازدهار الذى صحب قيامها والنشاط الاقتصادى الذى عاصر هذا الازدهار ، والمدن التى شيدت والموانئ التى أنشئت. ثم زالت الإمبراطورية الفارسية فحلت النكسة أرجاء الخليج من أقصاه إلى أقصاه.

ويحدثنا التاريخ كذلك عن ازدهار الحياة فى عهد الدولة العباسية التى قامت فى بغداد وعن النشاط التجارى الذى صحب اتساع نفوذ كل من البصرة والبحرين وعمان فى منطقة

الخليج، ثم انكماشه بعد أن تقلص هذا النفوذ. ويحدثنا التاريخ أيضا عن الخليج كطريق للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وعن نشاط هذه التجارة حيناً وركودها أحياناً، أو عما كان يصحب هذا وذلك من يسر أو عسر في حياة السكان.

والازدهار البترولي الحالي في منطقة الخليج، وهو الازدهار الذي لايجاريه أى ازدهار في الماضي، يرتبط ارتباطاً طبيعياً بتلك الفترات الزاهرة التي كان الخليج العربي فيها ملتقى التجارة الدولية، وفي ذلك الوقت - كما هو الشأن في الوقت الحاضر - قامت مراكز حضارية مهمة، وشيدت مدن كان يؤمها التجار والبحارة من كل أطراف العالم حيث يجد كل منهم بغيته.

يمثل الخليج العربي أقصى امتداد للعالم العربي نحو الشرق، فهو بموقعه إلى الشرق من الجزيرة العربية يمثل الأطراف الشرقية للعالم العربي، ويعتبر بحق نهاية هذا العالم الواسع من ناحية الشرق. ويجمع الجغرافيون وعلماء السلالات البشرية على أن الجزيرة العربية كانت الوطن الأول الذي نشأ فيه العرب واكتسبوا صفاتهم البشرية المميزة، وأنهم انتشروا منه تحت تأثير ظروف جغرافية قاهرة نحو الشمال ونحو الشرق ونحو الغرب في الشام والعراق وفارس. ومن هنا فإن الجغرافيين يعتبرون منطقة الخليج العربي أقصى امتداد برى للقبائل العربية نحو الشرق، ومن ثم كانت بحق الحد الشرقي للوطن العربي. كما كانت مركزاً وسطاً بين بلاد العالم الإسلامي، ويعتبر بحق قلبه النابض، وهو على هذا الأساس يعتبر بحيرة عربية إسلامية معاً.

٤) الخليج العربي فاصل مذهبي ولغوي:

لا يعتبر الخليج العربي مجرد حد فاصل بين العالم العربي والعالم الإيراني، وإنما ينظر إليه الجغرافيون والمؤرخون كحد فاصل كذلك بين مفهومين إسلاميين متميزين، يتركز أحدهما على ضفافه الشرقية وهو المذهب الشيعي - الذي ظهر بعد قيام الدولة الصفوية، ويتركز الآخر وهو المذهب السني على ضفافه الغربية. أما عند رأس الخليج في العراق وفي وسطه في البحرين فيوجد خليط من الشيعة والسنة. وحتى الماضي القريب كانت الاصطدامات تتعدد بين أنصار هذين المذهبين، خصوصاً عندما جعلت إيران قضية المذهب الشيعي قضيتها لأسباب سياسية أكثر منها لأسباب دينية، وعمدت بذلك إلى انفصالها واستقلالها عن العالم العربي.

٥) الخليج العربي بلاد الفقر المدقع والثراء العريض:

يعتبر الخليج العربي من أشد جهات العالم جدياً، فسواحله غير مضيافة وهي أرض جيرية

ورملية ، وتقسو البيئة الطبيعية قسوة من غير حدود ، ومن ثم اتجه الناس إلى البحر للبقاء أحياء ، حيث غاصوا للبحث عن اللؤلؤ وتاجروا وصاروا ملاحين وصيادين ، ثم جاء القرن العشرين بخيره العارم وفيضه الواسع الذى يتمثل فى أضخم ثروة بترولية عرفها الإنسان تكمن تحت ثرى أرض الخليج المقفرة.

٦) الخليج العربى طريق مهم للتجارة العالمية بين الشرق والغرب:

لموقع الخليج العربى أهمية خاصة ، فهو ذراع بحرى للمحيط الهندى يتوغل فى داخل الأرض اليابسة بحيث يقرب المسافة البرية عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط الهندى وبين البحر المتوسط أو بين الشرق والغرب ، ويتألف هذا الذراع البحرى من خليجين كبيرين هما:

أ - خليج عمان وهو خليج خارجى.

ب - خليج داخلى وهو الخليج العربى.

إلى جانب مضيق هرمز الذى يصل الخليجين أحدهما بالآخر.

والخليجان يفصلان بين السواحل الإيرانية من جهة والسواحل العربية من جهة أخرى ، وهما فى الواقع امتداد لبحر العرب الذى يعد جزءا من المحيط الهندى.

وترجع أهمية الخليج العربى إلى موقعه المتوسط فى قلب العالم القديم بين العالم الآسيوى والأفريقى فى الشرق ، وبين العالم الأوروبى فى الغرب. تمر به التجارة وتزخر به الثروة البترولية فى منتصف القرن العشرين ، مما جعل الدول الغربية البحرية تعمل جاهدة على الاحتفاظ بنفوذها فى منطقة الخليج العربى.

٧) الخليج العربى مطمح الدول الغربية:

جذب الخليج العربى أنظار الدول الغربية خاصة بعد استعمار شبه القارة الهندية ، حيث كان الخليج طريقا للتجارة والمواصلات بين بريطانيا ومستعمراتها فى الهند طوال العصور الحديثة ، حتى إذا تفجرت الثروة البترولية زادت الدول الغربية بريطانيا - فى الأساس - ثم الولايات المتحدة الأمريكية من اهتمامها بأقطار الخليج العربية المنتجة للنفط ، ومن ثم زادت مطامع تلك الدول فى ثروات أقطار الخليج وتمركزت مصالحها بحماية جيوشها لضمان استمرار تدفق النفط الخليجى لتيسير آلتها الاقتصادية والحربية ، ولإبعاد أى تهديد لهذه المصالح سواء من جانب الاتحاد السوفيتى - قبل تفككه - أو من جانب إيران.

تتميز أقطار الوطن العربى الخليجية بأنها متشابهة تشابها قل أن يوجد مثيله فى العالم ،

سواء في السطح أو المناخ أو السكان وغيرها من الظواهر الطبيعية، ومع ذلك فإنه يعيش تجزئة سياسية ناتجة من ميراث تاريخي وسياسي استعمارية للدول الغربية التي سعت لفرض سيطرتها على هذه الأقطار.

وأخيرا نعود إلى اسم الخليج الحائر فقد أطلقت على الخليج أسماء متعددة مثل:
"أرض الله"، "وأرض البحر"، "وخليج البصرة"، كما أطلق عليه اليونانيون والرومان اسم "البحر الأسفل" شأنهم في ذلك شأن الآشوريين والبابليين الذين أطلقوا عليه ذات التسمية على اعتبار أن البحر المتوسط هو "البحر الأعلى"، أما المؤرخ "استرابون" فقد أطلق عليه - كما ذكرنا - اسم "الخليج العربي" في بعض الأحيان.

ولم يرد اسم الخليج في الكتابات الفارسية القديمة، إلا أن تسميته باسم "الخليج الفارسي" انتقلت من اليونان والرومان إلى غيرهم من الناس، ومنهم بعض العرب الذين أطلقوا عليه - جهلا - اسم "بحر فارس"، "وخليج فارس" و"الخليج الفارسي" وذلك نقلا عن قدماء الجغرافيين الذين نقلوا هذه التسمية عن اليونانية واللاتينية عندما غزا الإسكندر الأكبر بلاد فارس عام ٣٣٣ ق.م وهزم عاھلها "داریوس" في معركة "إبسوس" الشهيرة. وقد عزز الاستعمار في العصور الحديثة إطلاق تسمية "الخليج الفارسي" على الخليج العربي لتحقيق أغراض استعمارية ضد المصلحة العربية.

وقد كشفت البعثات الأثرية الأجنبية في الخليج عن آثار مهمة تربط الخليج بعروبتة، ومن أشهر هذه الآثار القصر التاريخي في جزيرة "أم نار" قرب أبوظبي، كما كشفت بعد ذلك عن آثار قصر آخر في قرية "الهيلي" في ذات المنطقة بالإضافة إلى الآثار والحفريات الكثيرة في البحرين وقطر وغيرها من إمارات الخليج العربي.

وقد ثبت علميا أن الكنعانيين كانوا أول من سكن سواحل الخليج العربي، وهم قبائل سامية يرجع نسبها إلى كنعان بن سنحاريب بن غزود الأول بن كوس بن سام بن نوح، ثم رحل الكنعانيون إلى سورية حيث استقر المقام بهم. إلى جانب قبائل عربية عدنانية هي قبائل قضاة وربيعة وإياد، كما استقرت في عمان قبائل الأزدي من "كهلان" التي نزحت من اليمن بعد انهيار سد مأرب عام ١٢٠ ق.م، والنشاط الذي شهده ينتسب للعرب الذين امتهنوا الملاحة وركوب البحر، أطلق عليهم البعض - أي على قبائل أقطار الخليج العربي - القبائل البرمائية^(١).

(١) د. محمود رمضان: القصة التاريخية للخليج الحائر (٢٢٦ - ٢٢٥ ق.م) ١٩٢١م، أسماء ومسميات الخليج، في ضوء مجموعة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي لخرائط الخليج التاريخية ١٤٩٢ - ١٩٧١م، تقديم أ.د. رأفت غنيمي الشيخ، ص ٩ - ١٦.

مشيخات الخليج العربي:

تتكون أقطار الخليج العربي من مسقط وعمان، والبحرين، وقطر، ومشيخات الساحل العماني المتصالح، والكويت، وكانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة والرعى واستخراج اللؤلؤ. وكانت عمان أكثر مناطق الخليج العربي تنظيماً سياسياً بسبب وجود الإمامة الأباضية بجبال عمان الداخلية كما كانت أقرب إلى المجتمعات الحضرية. وهذا يشير إلى أن التنظيمات القبلية كانت سمة المجتمعات الخليجية حتى مجيء البرتغاليين والعثمانيين لتظهر قيادات وطنية تواجه الغزو الاستعماري الأوربي.

في الصفحات التالية استعراض للدور البحري لعرب الخليج في نقل المتاجرين بين الهند وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وأقطار الخليج حتى العراق، انطلاقاً من خبرتهم في ركوب البحر ومن ثم سيطرتهم على مياهه والقيام بعمليات جهاد بحري إسلامي ضد السفن البرتغالية المعادية لهم، ثم ضد جميع السفن الأوربية المارة في مياه الخليج العربي في مواجهة مشيخاته وموانيه.

خبرة عرب الخليج في الملاحة:

قد يعتقد البعض أن قبائل شبه الجزيرة العربية على الإطلاق قبائل ذات صفة بدوية تمارس حياتها اليومية في الصحراء بما تفرضه طبيعة الصحراء من أسلوب لحياة الناس، وهم في اعتقادهم هذا لا يكادون يذكرون تأثير الخليج على القبائل العربية التي تعيش على سواحلها ومن ثم فنحن مع القائلين بأن حياة القبائل العربية التي تسكن شواطئ الخليج العربي تختلف إلى حد ما عن حياة القبائل العربية الضاربة في صحراء شبه الجزيرة العربية، كما أننا مع التسمية التي أطلقت على النوع الأول من القبائل وهي "القبائل البرمائية" تمييزاً عن النوع الثاني المعروف بالقبائل البدوية أو الصحراوية.

وانطلاقاً من التأكيد على دور القبائل البرمائية التي عاشت وتعيش على شواطئ الخليج العربي في بناء حياتها كان لا بد أن نشير إلى خبرة هذه القبائل في الملاحة، تلك الخبرة التي فاقت في شهرتها حياة القبائل البدوية، بل وساعدت على الاتصال بالعالم الخارجي بينما بقيت القبائل البدوية محصورة في حياة البداوة بكل إيجابياتها وسلبياتها المعروفة بل إن القبائل البرمائية الخليجية تحملت الكثير للدفاع عن مياه الخليج ضد الغزاة ومن هنا نراها كما حملت رسالة الخير خارج نطاق الخليج بالعمل في نقل المتاجر وقيادة السفن على امتداد الخليج من ميناء البصرة بشمال الخليج حتى شرق أفريقيا والهند والصين، رأيناها

تقف بصلافة ضد هجمات الاستعمار على مياه الخليج وأراضيه^(١).

امتاز عرب الخليج إذن بالقدرة على ركوب البحر والطواف بسفنهم خارج نطاق الخليج وذلك قبل مجيء الاستعمار البرتغالي كأول قوة أوروبية معتدية على المياه العربية الجنوبية واشتهر من عرب الخليج ملاحون شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالمهارة فى الملاحة وركوب البحر ولعل أشهر هؤلاء الملاحين الملاح العربى الخليجى "شهاب الدين أحمد بن ماجد" الذى ولد "بجلفار" على ساحل عمان والذى قاد سفن "فاسكو دى جاما" الملاح البرتغالى من "مالندى" بشرق أفريقيا إلى الهند ببراعة سجلها له "دى جاما"^(٢).

وبخبرة أهل الخليج الملاحية شاركوا فى نقل متاجر الهند فى المحيط الهندى والبحر العربى متجنبين القراصنة الهنود الذين اتخذوا من جزر هذا المحيط وذلك البحر مأوى لهم، حتى تصل المتاجر إلى البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا أو تصل إلى الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوروبا أى أن عرب الخليج المهرة فى الملاحة والتجارة ساهموا بدور لا يمكن إنكاره فى رخاء أوروبا وفى تزويدها بمتاجر الشرق بل وفى بناء الحضارة الأوربية الحديثة.

حتى إذا جاء البرتغاليون بقوتهم الصليبية ضد كل ما هو إسلامى سواء فى شمال أفريقيا ثم فى شرق أفريقيا حيث شارك عرب الخليج مع عرب الجنوب فى بناء حضارة عربية أفريقية ذات مدن مزدهرة مثل "مالندى" و"سفالة" و"كيلوة" و"ممبسة" و"دار السلام" وغيرها، وقف عرب الخليج العربى ضد التدمير والعدوان البرتغالى وشاركوا فى معركة "ديو" البحرية عام ١٥٠٩م التى لم يكتب النصر فيها للتحالف الإسلامى بسبب قوة الأسلحة النارية للبرتغاليين^(٣).

وتحمل الخليجيون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين دورهم التاريخى فى مواجهة الغزاة المعتدين على الخليج وأهله سواء كان هؤلاء الغزاة برتغاليين أو هولنديين أو بريطانيين، ورغم عدم التكافؤ بين قوة أهل الخليج الحربية وقوة الغزاة الحربية فإن الخليجين استخدموا ما يمكن أن نسميه حرب العصابات أو عمليات الجهاد البحرى ضد هؤلاء الغزاة أو العمليات التى امتلأت كتب المؤرخين الأوربيين وصفها لها بالقرصنة، وكأنما من يدافع عن دينه وأرضه وعرضه ضد عدوان غاشم صليبي يتهم بالقرصنة ويطلب من المجتمع الدولى العمل على محاربتة.

(١) د. رأفت غنيمي الشيش: تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٢٨٦.

(٢) أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار فى معرفة البحار، القاهرة، ١٩٦٩م.

(٣) د. رأفت غنيمي الشيش: أفريقيا فى التاريخ المعاصر، القاهرة، ١٩٨٩م.

وكان البرتغاليون بقوتهم الفاشمة قد نجحوا فى الاستيلاء على جزيرة "هرمز" ١٥٠٨م ثم توالى استيلاؤهم على كل من مسقط والبحرين وبقية ساحل عمان ماعدا الأحساء، واستخدموا الوحشية أسلوبا للتعامل مع عرب الخليج ولا عجب فى ذلك فإن البرتغاليين صليبيون متعصبون ضد المسلمين أينما كانوا.

لم يسلم الخليجيون بالغزو والاستعمار من جانب البرتغال بل وقاوموا ما وسعتهم المقاومة وشهدت الفترة من عام ١٦٤٠م حتى عام ١٦٥٠م انحسارا للوجود البرتغالى فى الخليج ساهم فيه الخليجيون بدور أساسى ومارسوا فيه عمليات الجهاد البحرى وشاركهم أيضا مغامرون أتراك مثل "بيرى بك" و"على بك" الذين وقفوا ضد البرتغال فى الخليج والبحر العربى فى المدة من عام ١٥٥١م حتى عام ١٥٨١م. ومن الإنصاف القول بأن القضاء النهائى على الوجود البرتغالى فى الخليج العربى أسهم فيه بدور كبير الإنجليز والهولنديون عام ١٦٨٩م وإن كان ذلك من أجل مصالح إنجلترا وهولندا لا من أجل مصالح عرب الخليج.

تمرس عرب الخليج إذن على عمليات الجهاد البحرى بمقدم الغزاة البرتغاليين، ومن ثم فلم يصعب عليهم بعد جلاء البرتغاليين عن أراضى ومياه الخليج أن يواجهوا القوى الأوروبية التى حاولت أن تترث تركة البرتغال فى الخليج، ومن المؤسف حقا أن يتسبب الاستعمار فى تحويل عرب الخليج من بناء رخاء وحضارة لأوروبا وللعالم بنقلهم المتاجر بين الشرق والغرب ونقلهم الثقافات المختلفة إلى مجاهدين فى البر والبحر دفاعا عن دينهم وأرضهم وعرضهم وحياتهم، ومن ثم يتضاءل دورهم الحضارى العالمى وهو أمر لاشك فى أنه مخطط من جانب الاستعماريين^(١).

استمرت علاقة عرب الخليج بالبرتغاليين متوترة حتى بعد إجماع الآخرين من الخليج، فقد استطاع عرب الخليج بحملة بحرية انتزاع مدينة "ممبسة" الأفريقية العربية من أيدي البرتغاليين عام ١٦٦٠م كما استمرت عمليات الجهاد البحرى للخليجيين ضد سفن البرتغاليين فى الخليج العربى والبحر العربى والمحيط الهندى من عام ١٦٩٣ حتى عام ١٧٢٢م وشهدت مياه الخليج سواء قرب الشواطئ الشرقية الإيرانية أو فى المياه الإقليمية العربية من الخليج معارك، وكانت سفن العمانيين فى مقدمة السفن الخليجية العربية فى تلك المعارك سواء أمام ميناء "كنج" الفارسى أو مقابل "مسقط" العربية أو عند ميناء ممبسة الأفريقي أو باتجاه مدينة "سورات" الهندية وإذا لم يكن النصر حليف العرب فى كل تلك المعارك إلا أنهم قاموا بعمليات الجهاد الإسلامى ثارا من اعتداءات البرتغاليين السابقة على أراضى عرب الخليج.

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، المرجع السابق، ص ٢٨٨.

وعندما جاء الهولنديون إلى مياه الخليج اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالغزو والاستعمار وإن كان هذا لاينفى أنهم اشتركوا مع الإنجليز في طرد البرتغاليين من الخليج العربى، ولعل هذا من أسباب عدم تطبيق عرب الخليج سياسة الجهاد البحرى ضد سفن الهولنديين، ومن ثم مارست تلك السفن نشاطها فضلا عن سفن الإنجليز وبعض المغامرين العرب الكارهين لكل ما هو أوروبى مسيحي.

وأما بالنسبة للإنجليز فقد حرصوا على توفير الأمان لسفنهم العاملة فى الخليج العربى وفى البحر العربى والمحيط الهندى لضمان انتقال المتاجر دون عقبات بين إنجلترا والهند عبر مياه الخليج العربى والمحيط الهندى، ثم ضمان المواصلات بين إنجلترا ومستعمراتها فى الهند التى تكونت منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى عام ١٦٠٠م واتسعت سيطرتها فى القرن الثامن عشر، ومن ثم دخلت إنجلترا فى منافسة مع الهولنديين للاستئثار بالنفوذ والعلاقات مع عرب الخليج ولحماية التجارة والمواصلات الإنجليزية^(١).

وما دما قد وصلنا إلى القرن الثامن عشر وإلى بداية السيطرة البريطانية على مياه الخليج العربى فيجدر بنا أن نشير إلى أن عرب الخليج كانت لهم السيطرة على مختلف ألوان النشاط البحرى فى مياههم خلال القرن الثامن عشر، حيث مارسوا صناعة بناء السفن والغوص على اللؤلؤ، كما أداروا حركة الملاحة التجارية بين موانئ الخليج بعضها وبعض، وبينها وبين موانئ شرق أفريقيا والهند، ومن ثم صارت لهم السيطرة على جزر الخليج وعلى أجزاء مختلفة من الشاطئ الشرقى للخليج أيضا.

كما يجدر بنا أن نفرق بين نوعين من العمليات البحرية العسكرية التى قامت بها سفن عرب الخليج، النوع الأول موجه ضد سفن الدول الغربية انطلاقا من كراهية العرب لكل ما هو أوروبى بسبب ما لقوه على أيدي البرتغاليين من وحشية وهذا النوع هو ما نسميه بعمليات الجهاد البحرى الإسلامى. والنوع الثانى من تلك العمليات التى تقوم بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى فى الخليج لأسباب عدائية كالتى تحدث فى الصحراء بين القبائل بعضها وبعض أو لمطامع رئيس قبيلة أو تنفيذ سياسة قوة أخرى أكبر ومن عجب أن يطلق الكتاب الأوروبيون على النوعين من العمليات البحرية اسم القرصنة.

وعلى هذا فإننا عند الحديث عن عمليات الجهاد البحرى نجد أن السفن الإنجليزية العاملة بالخليج العربى لم تسلم من تلك العمليات على يد السفن العربية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فنقرأ قرارا أصدره مجلس مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٨٩.

المنعقد في لندن إلى وكيل الشركة في الخليج ما نصه: إذا فشلت جميع الجهود المبذولة لقمع اتجاهات القرصنة - يقصد الجهاد البحري - لدى الإيرانيين والسلطات الأخرى في الخليج في تحصيل تعويضات عن الأضرار الناتجة عن القرصنة، فإن عليكم إبلاغ ذلك إلى الرياسة لتعرض الأمر على قائد الأسطول الملكي في جزر الهند الشرقية لمحاولة الحصول على المعونة في الظروف و الأحوال التي تقتضيها كل حالة بمفردها^(١).

وكان ذلك نتيجة تأثر حركة التجارة الإنجليزية منذ أوائل القرن الثامن عشر بعمليات الجهاد البحري التي قام بها عرب الخليج والإيرانيين المسلمين، وكان خط الملاحة الرئيسي في الخليج يسير بمحاذاة الساحل الشرقي ولم تغامر سفينة أوروبية بالتوجه إلى القسم الغربي من الخليج منذ خروج البرتغاليين، وكانت تتجنب دائما هذا الجانب من الساحل لأن القليل هو ما كان يعرف عنه وكان يعتبر منطقة غير مأمونة.

القواسم والجهاد البحري:

وفي هذا المقام سوف نناقش دور قبيلة القواسم في العمليات البحرية ضد السفن الإنجليزية، ذلك الدور الذي بدأ عام ١٧٧٨م بهجوم قامت به ست سفن تابعة للقواسم على سفينة انجليزية تحمل رسائل رسمية وأسرها واقتيادها إلى رأس الخيمة، وقيام ثمانى سفن تابعة للقواسم أيضا بمهاجمة السفينة البريطانية "سكسس" وهي في طريقها من البصرة إلى مسقط شهر يناير ١٧٧٩م ولكن هذه السفينة البريطانية نجحت في الفرار، كما هاجم أسطول القواسم السفينة "أسستانس" في فبراير ١٧٧٩م التي لاذت بالفرار والتجأت إلى "بوشهر"

استمرت عمليات أسطول القواسم ضد السفن البريطانية فنجح في أسر السفينة "بكلريك" المبحرة تحت العلم البريطاني قرب "رأس مسندم" عام ١٧٩٠م وفي عام ١٧٩٧م هاجمت سفن القواسم السفينة البريطانية "باسين" بالقرب من جزيرة "قيس" وأسروها وقادوها إلى رأس الخيمة، وفي نفس العام هاجم الأسطول القاسمى الطراد البريطاني "فايبر" بينما كان راسيا بالقرب من "بوشهر" وإن كان الطراد قد نجح في الفرار إلا أنه خسر أكثر من ثلاثين من بحارته.

وخلال تلك العمليات زادت احتجاجات البريطانيين على عمليات القواسم وزادت تهديداتهم ومع ذلك كانوا يلجئون إلى دفع التعويض والفدية المطلوبة أو قبول التبريرات التي يذكرها زعيم القواسم بأنهم مثلا كانوا في حالة دفاع عن النفس أو أنهم أخطئوا الهدف وأنهم

(١) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ط ١.

يقصدون سفن العمانيين وغير ذلك من التبريرات، وفى كل الأحوال لجأت السلطات البريطانية إلى حماية السفن التجارية التى ترفع العلم البريطانى بسفن حربية مسلحة.

وعندما صار القواسم حلفاء للدولة السعودية الأولى واعتنقوا عقيدة التوحيد التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجدوا فى تلك العقيدة ما يوافق عملياتهم البحرية بمهاجمة السفن الأوروبية المسيحية، حيث استندوا إلى مبدأ الجهاد فى الدعوة الوهابية فباشروا عمليات الجهاد البحرى فى الخليج باسم الدولة السعودية وصارت هذه العمليات جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب. كما أن هذه العمليات من الجهاد صارت أمرا لازما ضد منكرى تعاليم الوهابية.

ونتيجة لتأييد أمراء الدولة السعودية للقواسم، مد هؤلاء نشاطهم البحرى إلى المحيط الهندى حيث ظهرت سفنهم أمام ساحل "المليار" شمال "بومباى" عام ١٨٠٨م وتعرضوا للسفن الأوروبية وغيرها فى إطار الجهاد الدينى حتى وصفهم الأوروبيون بأنهم يعطون مبررات دينية لكل عمل حربى يقومون به ضد السفن المعادية، وكان القواسم يرسلون خمس الغنائم التى يحصلون عليها من عملياتهم البحرية إلى السعوديين تأكيدا لإيمانهم بدعوة التوحيد ودليلا على تبعيتهم لآل سعود.

ورغم عقد معاهدة بين بريطانيا والقواسم عام ١٨٠٦م إلا أن الخليج شهد منذ عام ١٨٠٨م نشاطا بحريا للقواسم بتولية زعيمهم الجديد "حسين بن على" امتد حتى هدد سواحل الهند نفسها، بل وأخذ القواسم بقيادة زعيمهم يطوفون فى المياه العربية بأعداد من سفنهم تراوحت بين خمسة وعشرين سفينة يقود كل منها قائد مسئول أمام زعيمهم، وقد أفلقت هذه العمليات انجلترا المرة بعد المرة حتى بدأت تفكر فى اتخاذ إجراءات لوقف القواسم عن مهاجمة السفن البريطانية.

فقد عززت بريطانيا حراسة مصالحتها فى الخليج العربى بعدة سفن حربية وطرادات تحمل مدافع متعددة، ومع ذلك تمكنت سفن القواسم من أسر عشرين سفينة تجارية هندية ترفع العلم البريطانى أواخر عام ١٨٠٨م وأوائل عام ١٨٠٩م فى البحر العربى والمحيط الهندى، وقد أدى هذا النجاح إلى مزيد من الجهاد البحرى قامت به سفن القواسم فى الخليج العربى والمحيط الهندى فهاجمت ٥٥ سفينة للقواسم بالقرب من رأس مسندم سفينة تجارية ضخمة انجليزية تدعى "منيرفا" فى مارس ١٨٠٨م حيث تم أسرها ومن عليها وضمها إلى أسطول القواسم، ثم أطلق القواسم أسر البحارة لقاء جزية.

وقد بلغت جرأة القواسم حدا جعلهم يهاجمون سفينة البحرية الملكية البريطانية الضخمة ذات الخمسين مدفعا خلال عام ١٨٠٩م وكانت عملياتهم تقوم على محاولة الأسر بواسطة الاقتراب، فتحاول سفنهم المناورة من أجل الاقتراب من الهدف لتلتصق به وعندها يندفع مقاتلوهم إلى سطح السفينة المعادية مرددين عبارة الله أكبر، وكانت قوة القواسم قد وصلت إلى ٦٣٠ سفينة كبيرة و ٨١٠ سفينة أصغر حجما، وعدد الرجال العاملين على هذه السفن ٨,٧٠٠ رجل، استند عليهم زعيم القواسم في مطالبة حكومة بومباي بدفع إتاوة من أجل السماح للسفن البريطانية بالمرور في الخليج بحرية.

قررت بريطانيا التدخل ضد نشاط القواسم البحري فجهزت ١٣ سفينة حربية محملة بالمدافع والمعدات العسكرية وعددا من الجنود والضباط يقدر بحوالي ألف وخمسمائة رجل حملتهم ٤ سفن حاملة جنود وأعطى قائد الحملة التعليمات اللازمة من أجل تدمير القوة البحرية للقواسم وبعدها عليه عقد معاهدة مع القواسم لفرض الشروط البريطانية على أن يتجنب الصدام مع الدولة السعودية حليفة القواسم.

وفي ١٢ نوفمبر ١٨٠٩م بدأت عمليات الإنجليز ضد مدينة رأس الخيمة حيث مكث ضرب المدينة ثم الاستيلاء عليها والجلاء عنها بعد يومين أمام مقاومة القواسم، وبعد ذلك توجه الإنجليز فاستولوا على "لنجة" و"لافت" التابعين للقواسم ثم عادت الحملة البريطانية إلى مسقط وسجل قاداتها ما يعتبر أحسن شهادة على بطولة القواسم وما يؤكد أن القواسم وإن خسروا معارك حربية فإنهم لم يخسروا روحهم المعنوية ولن يتوقفوا عن سياسة الجهاد البحري، حيث سلمت من التدمير معظم سفنهم التي اختبأت في الأخوار والخلجان العميقة في الجانب الغربي من شبه جزيرة مسندم.

ومع ذلك ما كاد عام ١٨١٢م يبدأ حتى عادت السفن القاسمية إلى مهاجمة السفن الإنجليزية أو تلك التي ترفع العلم البريطاني حيث أصبح القواسم من جديد أقوى قوة على طول خطوط الملاحة في الخليج العربي. كما ظهرت سفن القواسم مرة أخرى أمام شواطئ الهند أواخر عام ١٨١٣ وأوائل عام ١٨١٤م حيث تم أسر عدة سفن ترفع العلم البريطاني، وعندما احتج المقيم العام البريطاني في "بوشهر" رد زعيم القواسم "حسن بن رحمة" في مايو ١٨١٤م بأنهم لم يأسروا أية سفينة تحمل ترخيصا بريطانيا، وأنه في حالة وقوع مثل ذلك فإنهم على استعداد لإعادة البضائع وأنه قد أصدر تعليماته إلى رجال قبيلته بعدم التحرش أو الإقتراب من أية سفينة تبخر تحت العلم البريطاني^(١).

(١) لوريمر: المرجع السابق.

وفى أكتوبر ١٨١٤م عقد القواسم مع المقيم العام البريطانى فى الخليج معاهدة نصت على تناسى أحداث الماضى بين الطرفين و أن يحترم القواسم العلم البريطانى فلا يهاجموا السفن التى تحمله، وأن يسمح القواسم للرعايا البريطانيين بالنزول والتجارة فى موانئهم وأيضا للسفن البريطانية، وأن ترفع سفن القواسم أعلاما مكتوب على كل منها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأن يعيد القواسم ما يفتتموه من السفن الأخرى ويخص الرعايا البريطانيين إلى أصحابها.

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية لمدة عام حيث لم يقيم القواسم بمهاجمه السفن التى تحمل العلم البريطانى، ولكن ما كاد عام ١٨١٥م ينتصف حتى عادت سفن القواسم إلى سابق نشاطها ضد السفن الأجنبية حتى ولورفعت العلم البريطانى، كما شهد العام التالى ١٨١٦م نشاطا متزايدا ضد السفن الأجنبية وامتد نشاطهم حتى المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب الخليج العربى، وشملت السفن التى هاجمتها سفن القواسم سفن أمريكية وفرنسية فى المحيط الهندى، وثلاث سفن هندية ترفع العلم البريطانى عند مدخل البحر الأحمر فى مارس ١٨١٦م.

حاول الإنجليز الرد على عمليات القواسم البحرية بمظاهرة بحرية لكنهم فشلوا، حيث أكد زعيم القواسم أنهم لم يهاجموا أية سفينة إنجليزية، ولم يستولوا إلا على ممتلكات تعود للهندوس ووثنيين آخرين من الهند وأنهم يحترمون اتفاقهم مع الإنجليز. وقد زاد فشل المظاهرة البحرية البريطانية أمام جرأة القواسم وازدياد نشاطهم مما دفع الإنجليز إلى مهاجمة مدينة رأس الخيمة فى عام ١٨١٩م وعندما نجحوا فى النزول إلى البر بعد تدمير المدينة فرضوا على زعماء القواسم معاهدة صارت أساسا لمعاهدات أخرى وقعها مشايخ الخليج. ثم وفد على معسكر الحملة زعماء الشارقة سلطان بن صقر، ووالد شيخ أبو ظبى المعروف طحنون شخبوط الفلاحى، وشيخ دى القاصر محمد بن هزاع، وشيوخ عجمان وأم القيوين وجزيرة الحمراء وبحث معهم قائد الحملة عقد معاهدة لإنهاء نشاط الجهاد البحرى، ومن عجب أن هذه المعاهدات التى وقعها هؤلاء الزعماء جميعا فى شهر يناير ١٨٢٠م صارت الأساس الذى ارتكزت عليه الهيمنة السياسية والاقتصادية البريطانية على أقطار الخليج العربى، وتحددت علاقات بريطانيا بهذه المعاهدات باعتبارها جزءا لا يمكن الاستغناء عنه من إمبراطوريتها فى الهند^(١).

عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى:

فإذا كان شهر فبراير ١٨٢٠م قد شهد انتهاء العمليات العسكرية البريطانية ضد

(١) د. رافت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، ص ٢٩٢.

القواسم وبقية موانى الساحل العماني التي تنطلق منها سفن الجهاد البحري، فقد اتجهت الحملة البريطانية إلى بقية موانى الخليج التي شاركت سفنها في مهاجمة السفن الإنجليزية ولم يكن عسيرا عليها إتمام هذه المهمة لكن رغم المعاهدات التي كبلت زعماء القبائل العربية فإن النشاط البحري لم يتوقف تماما.

ومما تجدر ملاحظته أن البريطانيين حين اصطدموا بالقواسم ادعوا أن ذلك من أجل القضاء على عملياتهم البحرية (القرصنة) ضد الملاحة في الخليج العربي ولكن الدافع الحقيقي للموقف البريطاني يظهر من خلال شكاوى ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج التي أنصبت على استيائهم من منافسة التجار العرب لهم، ومن ثم استندت السلطة البريطانية على الادعاءات المتمثلة في محاربة القرصنة ومحاربة تجارة الرقيق وهي تهدف في الأصل إلى القضاء على التجارة والملاحة العربية لأن معاهدات سنة ١٨٢٠م بين بريطانيا ومشايخ ساحل عمان كانت تمنع اشتباك سفن العرب بالسفن البريطانية أو تلك التي تحمل أعلاما بريطانية وأن المعاهدات لم تقتصد منع الاشتباكات بين سفن المشيخات العربية المختلفة فيما بينها.

ورغم معاهدات ١٨٢٠م بين بريطانيا من ناحية ومشيخات الساحل العماني من جهة أخرى فقد حدثت عمليات جهاد بحري قامت بها سفن عربية ضد السفن الإنجليزية كتلك التي حدثت للسفينة البريطانية المسماة "سنبرى" في ميناء الشارقة عام ١٨٢٩م استولى العرب على حمولة هذه السفينة وإن كان شيخ الإمارة قد اقتص من المشاركين في هذه العملية بحرق أحد قواربهم المشترك في الحادث وجلد صاحبه.

كما حدثت عملية جهاد بحري أخرى في إبريل ١٨٣٥م بين ست سفن تابعة لعرب بني ياس "وسفينة حربية بريطانية تدعى "الفينسون" لم يكن النصر النهائي فيها للسفن العربية مما أجبرهم على قبول الشروط البريطانية المجحفة والتي تمثلت في التعهد بتسليم ١٥ سفينة كانوا قد استولوا عليها وما بقى من حمولتها، وأن يدفعوا مبلغ ١٠ آلاف دولار كتعويض نقدي والتعهد بدفع مبلغ إضافي قدره ١٦٠٠ دولار وإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد أسروهم وتسليم رجلين من رجال القبيلة تزعموا العملية البحرية^(١).

أخذت السلطات البريطانية تستعرض قوتها البحرية في الخليج بظهور السفن الحربية في دوريات مستمرة وزيارة موانى الخليج. وفرض ما عرف بنظام الهدنة البحرية والتي تحظر على سائر مشايخ الساحل العماني ورعاياهم القيام بعمليات جهاد بحري أو مغامرات بحرية

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق.

وتعاقب من يقوم بها وقد اقتصرت تلك المعاهدات فى أول الأمر على موسم الفوص على اللؤلؤ ثم زادت لتظل سارية لمدة سنة تتجدد ، وأخيرا وفى عام ١٨٤٢ تجددت لمدة عشر سنوات مرة واحدة.

ورغم أن نظام التهدة أصبح سارى المفعول منذ عام ١٨٣٥م إلا أنه لم يشمل كل سواحل الخليج ، ومن ثم وجدنا عمليات الجهاد البحرى تستمر فى المشيخات التى لم تدخل فى ذلك النظام مما دفع أسطول البحرية البريطانى إلى ضرب مدن الدوحة والوكرة والعديد عام ١٨٣٦م بسبب قيام سفن عربية من تلك الموانى بعمليات جهاد بحرى ضد السفن البريطانية والهندية التى ترفع العلم البريطانى وتجددت اعتداءات البحرية الإنجليزية ضد الدوحة عام ١٨٤١م.

وعندما صار نظام الهدنة البحرية دائما بمعاهدة جديدة وقعها مشايخ الساحل العمانى وضمنتها السلطات البريطانية قلت إلى حد كبير عمليات الجهاد البحرى ولم نسمع عن عمليات كبيرة كالتى كانت تحدث قبلا. بل وجدنا فى الوثائق البريطانية تعبير الاضطرابات البحرية بدل تعبير "القرصنة" ومع ذلك حدثت عمليات فردية معظمها ضد السفن الهندية كتلك التى حدثت أمام ساحل الأحساء أواخر عام ١٨٥٤م كانت نتيجتها تدمير السفن العربية المشتركة فى هذه العملية ، وتلك التى حدثت عام ١٨٥٥م فى الشارقة ضد سفينة من بومباى وأيضاً فى عام ١٨٥٦م وعام ١٨٦٠م فى أبوظبى. وفى كل تلك الحالات حصلت السلطات البريطانية على تعويض لمستحقي السفن التى هوجمت كما تم توقيع العقاب على العرب المشاركين فى تلك العمليات.

ومنذ معاهدات عام ١٨٢٠م بين السلطات البريطانية ومشايخ الساحل العمانى ، جعلت تلك السلطات من نفسها رجل بوليس فى الخليج يستخدم القوة لحماية مصالحه هو ويدعى أنه فى خدمة أهل الخليج والملاحة بل والمثل الإنسانية عامة. فنجد هذا الوصف للسلطات البريطانية يتجلى بوضوح فى مشروع "الكولونيل بيلى" المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الذى قدمه لحكومة بومباى البريطانية عام ١٨٦٣م بهدف تثبيت النفوذ البريطانى وانفراجه فى الخليج العربى^(١).

وجاء فى هذا المشروع أن هدف التواجد البريطانى - من خلال مقيمة سياسية - فى الخليج هو مكافحة "القرصنة" ومحاربة تجارة الرقيق وتنمية التجارة البريطانية وأن عملية "القرصنة" قد تم كبح جماحها إلى حد كبير وإن كان الأمر يتطلب استمرار المراقبة

(١) لوريمر: المرجع السابق.

من جانب الأسطول البريطاني أما تجارة الرقيق فما زالت قائمة ومن ثم فهو يطلب جعل مقر المقيمة البريطانية في "رأس مسندم" بدل "بوشهر" حتى يمكن السيطرة على مدخل الخليج فيمكن منع السفن المحملة بالرقيق من دخول الخليج، وكذلك السيطرة على عمليات الجهاد البحري للعرب الخليجيين، وبالتالي مد النفوذ البريطاني في شبه جزيرة العرب من ناحية وفي إيران من ناحية أخرى.

وثمة عمليات جهاد بحري قامت رغم مظاهر القوة البريطانية في الخليج من أمثال تلك العمليات هجوم سفن عربية على سفينة البريد التجارية البريطانية المسماة "كشمير" أثناء إلقاء مراسيها في البصرة عام ١٨٧٢م وسلب ما عليها وقتل بعض رجالها وإن كانت السلطات البريطانية قد تمكنت من استعادة أغلب ما سلب على يد المهاجمين وكانوا من عربستان وإعدام سبعة من هؤلاء المهاجمين.

كما شهدت مياه إقليم الأحساء عمليات جهاد بحري خلال أعوام ١٨٧٨م إلى ١٨٧٩م ولم تستطع السفن البريطانية العمل في تلك المياه لأن هذا الإقليم كان بصفة رسمية خاضعا للسيادة العثمانية وإن كانت سفينة بريطانية قد استطاعت أسر سفينة عربية خارج ميناء القطيف عام ١٨٧٩م. كما شهدت مياه شط العرب عام ١٨٨٠م عملية ضد البريطانيين كان من ضحاياها المشرف على محطة البرق البريطانية في "الفاو" وقد تمكنت السلطات البريطانية من تحصيل التعويضات اللازمة وحملت شيخ المحمرة - على الساحل الإيراني على توقيع عقوبات شديدة ضد بعض أهله المسؤولين عن مثل تلك العمليات.

وحيثما استمرت عمليات الجهاد البحري في مياه الأحساء أصدرت السلطات البريطانية أمرا عام ١٨٨١م لقائد بحريتها في الخليج بدخول تلك المياه وتعقب السفن العربية وعدم الالتفات بمسألة السيادة العثمانية ومن ثم ظلت هذه المنطقة هادئة حتى عام ١٨٩٩م حينما قامت عملية بحرية عربية كبيرة قادها أحد أعضاء الأسرة الحاكمة في البحرين والذي أفلت من المطاردة البريطانية واستمرت تلك العمليات بدرجات متفاوتة حتى عام ١٩٠٥م سواء أمام ساحل الأحساء أو على سواحل قطر.

وفي عام ١٩٠٠م شهد شط العرب نشاطا بحريا كبيرا كان موجهها بالدرجة الأولى ضد السفن الإنجليزية والهندية إلى جانب إغارات متفرقة ضد سفن إيران والبحرين ولما كان شط العرب تحت سيطرة كل من إيران وتركيا - كل على جانب - فقد حاولت السلطات البريطانية مع هاتين الدولتين لكي تضمن تعاونهما ضد من يقوم بتلك العمليات البحرية كما قامت السفن البريطانية نفسها بعمليات حربية ضد السفن العربية في تلك المياه

وحصلت السلطات البريطانية من شيخ المحمرة على وعد بإيقاف القائمين بتلك العمليات من بين عشيرته.

وشهدت سواحل قطر عمليات جهاد بحرى استاءت لها السلطات البريطانية وحاولت أكثر من مرة ضرب مدن قطر، كما هددت بالضرب وقامت بمظاهرات بحرية لإرغام الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني ومنذ عام ١٩٠٠م على التعاون معها للقضاء على القائمين بتلك العمليات البحرية من السواحل القطرية، ومع ذلك لم تستطع السلطات البريطانية السيطرة على الساحل إلا بعد فرض الحماية على قطر عام ١٩١٦م وذلك بسبب عدم تعاون شيوخ قطر تعاوننا كاملا مع السلطات البريطانية فى فرض السيطرة على القبائل التى تعيش على الأرض القطرية.

المغامرات البحرية:

إن موضوعنا يستلزم الإشارة إلى تلك العمليات التى قامت بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى، تلك العمليات التى أطلقنا عليها اسم الحروب البحرية بين القبائل العربية أو المغامرات البحرية للعرب.

ذلك أنه حدثت بين القبائل العربية الخليجية حروب شهدتها مياه الخليج كما شهدتها صحاريه، أى أن هذه الحروب امتدت من الداخل إلى الساحل ومن الأرض إلى البحر فهى إذن حروب لها أسبابها التى أهمها الصراع حول الامتلاك سواء للأرض أو للمياه خاصة لأماكن الفوص على اللؤلؤ. ومن هنا لا يمكن أن نطلق على تلك العمليات اسم "قرصنة" لأن "للقراصنة" مفهوم آخر وليس لها من أسباب سوى الرغبة فى السلب والنهب وتتجه فى الغالب نحو السفن الأجنبية كما رأينا.

ولعل قائل يقول بان السفن العربية التى كانت تغير على بعضها البعض كانت تخرج من هذه الإغارات بمغانم وأسلاب فهى لا تفترق عن عملية القرصنة إذن. ولكننا نرد عليه بالقول أن الحروب المعلنة تعطى للمنتصر حق الحصول على مغانم من العدو بل وأسرى، وهى حروب رسمية بين طرفين يختار أحدهما أو كليهما مكانها ويحدد زمانها. بينما عمليات القرصنة غير ذلك فإنها عدوان لا مبرر له وهى سرقة فى الظلام^(١).

وفى هذا المجال سوف نسوق عدة أمثلة على صحة ما ذهبنا إليه وهو أن العمليات البحرية التى قامت بها سفن عربية فى الخليج ضد أخرى عربية أيضا كانت حربا أو مغامرات فى

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٩٧.

أقل القليل منها ولم تكن أبدا قرصنة لندرك ما رمى إليه المغرضون حين ساووا في الوصف بين تلك العمليات، وبين العمليات الموجهة ضد السفن الأجنبية المعادية.

يمكن التأريخ لتلك الحروب البحرية بين السفن العربية بعضها وبعض بدخول القواسم في دائرة النفوذ السعودي واعتناقهم لمبدأ التوحيد الذي دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ذلك أن القواسم اعترفوا بسيادة الدولة السعودية على ساحل عمان أواخر القرن الثامن عشر وصاروا أتباعا لتلك الدولة يطبقون مبادئها، ومن ثم اعتبر القواسم عملياتهم البحرية ضد السفن العربية الخارجة على الوهابية جزءا من حركة الجهاد وبالتالي فإن الأسلاب تعد غنائم حرب وعليها تأدية خمسها إلى الحاكم الشرعي أي رئيس الدولة السعودية. وقد كانت معظم تلك العمليات موجهة ضد سفن سلطنة مسقط وعمان منذ أوائل القرن التاسع عشر.

كما حدثت تلك العمليات بين القواسم وبنى ياس منذ عام ١٨١٢م وعندما استطاع الإنجليز القضاء على قوة القواسم البحرية وفرضوا عليهم معاهدة عام ١٨٢٠م انضم مشايخ الساحل العماني للمعاهدة التي فرضت عليهم عدم القيام بعمليات بحرية ضد أي سفينة بالخليج، وأن تسوى القبائل المتعاهدة الخلافات الداخلية فيما بينها، وأن تخضع السفن العربية لتفتيش السفن البريطانية، وأن تتعاون القبائل في محاربة القبيلة التي تخرج على هذه الشروط.

كما نصت اتفاقات الهدنة التي صارت دائمة منذ عام ١٨٥٣م على أن يتعهد مشايخ القبائل العربية الخليجية باحترام أمن الملاحة في الخليج ويقدم هذا التعهد للمقيم العام البريطاني في الخليج وأن يقبل الرؤساء العرب بمقتضى هذا النظام الأحكام التي تصدرها بريطانيا في حالة نقض الهدنة. ثم صارت بريطانيا حكما مستديما تفرض الغرامات على القبائل العربية التي تهاجم سفنها سفنا أخرى ومع أن هذا لا يعطى لبريطانيا حق التدخل إلا في الاشتباكات البحرية فإنها كانت تتجاوز اختصاصها في كثير من الأحيان وتفرض وساطتها في مشكلات تتعلق بالمناطق الداخلية^(١).

ولقد نشطت عمليات الحرب البحرية بين سفن البحر العربية بعضها وبعض خاصة في منطقة الأحساء والبحرين وبتجاه سواحل قطر، لأن تلك المياه لم تشملها اتفاقات الهدنة وقادت قبائل بنى هاجر والعجمان وبنى مرة والمناصير وغيرهم تلك العمليات، ونجد في كتاب دليل الخليج شكاوى من بعض الملاحين المسلمين مقدمة للمقيم السياسى البريطاني بالخليج ضد سفن قبائل عربية خليجية؛ لأنها هاجمت سفنهم واستولت على ما

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: نفس المرجع السابق، ص ٢٩٨.

فيها، وقد كثرت هذه الشكاوى خلال أعوام ١٨٦٥ - ١٨٧٠م بصفة خاصة^(١).

كما انتقلت الحرب البرية بين قطر والبحرين وبين قطر وأبو ظبي إلى الميدان البحري وصارت عملية مهاجمة سفن أى من الطرفين لسفن الطرف الآخر أمرا عاديا بحكم الحرب والعداء بين هذه الأطراف، وشهدت السنوات الباقية من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى عمليات حربية فى البحر بين سفن عربية تابعة لمشيخة أو قبيلة وسفن عربية أخرى تابعة لمشيخة أو قبيلة أخرى.

ومما شجع على استمرار هذه العمليات وانتقالها من البر إلى البحر ضعف الحكم التركى فى الأحساء وقطر، وقيام النزاعات القبلية ودخول القبائل فى عمليات تآرية، كالنزاع بين "بنى على" وقبيلة "العمامرة" وكانت نتائج تلك العمليات الأخلال بالأمن وإشاعة الفزع فى مفاصى اللؤلؤ؛ مما كان له أكبر الأثر على حركة التجارة العربية فى الخليج وقد فرضت انجلترا نفوذها بالقوة فى الخليج لم تعد فى وسع السفن الشراعية العربية منافسة السفن الأوروبية، ثم صارت مشيخات الخليج فى حاجة دائمة للمساعدة الخارجية وقد ضمنّت انجلترا هذه الحاجة لكى تحكم قبضتها على مشيخات الخليج.

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل الخليجية لم تتركس نشاطها للعمليات الحربية البرية والبحرية، بل أنها ساهمت بدور فعّال سواء كانت قبائل الساحل العمانى أو قبائل قطر والبحرين والكويت، وعرب سلطنة مسقط وعمان، فى أعمال الفوص على اللؤلؤ وفى نقل التجارة بين الهند والخليج وشرق أفريقيا.

ولا يمكن استكمال الموضوع دون ذكر بعض الحقائق عن نشاط غير العرب أوروبيين وهنود فى عملية القرصنة فى المياه الهندية والعربية والأفريقية؛ لتتضح لنا الصورة كاملة بين ما يدعيه المؤرخون المغرضون عن "القرصنة" العربية وبين حقيقة القرصنة الأوروبية التى اتخذت لها نشاطا فى مياه المحيط الأطلنطى، نسوق الآن فصلا عن عملياتها فى المياه الهندية والعربية.

يروى لوريمر فى كتابه دليل الخليج عن حدوث نزاع بين الإنجليز والمغول فى الهند نتيجة أعمال القراصنة الأوروبيين وغيرهم خلال الأعوام من ١٦٩١ - ١٧٠٥م فيذكر أنه فى عام ١٦٩١م قامت سفينة انجليزية بعملية قرصنة ضد السفن الهندية مما دفع بسلطات المغول إلى فرض حظر على كل السفن الأوروبية فى "سورات" وأنه وجد قرصانا دانيمركيا

(١) لوريمر: المرجع السابق.

يعمل فى المياه الهندية.

وتعددت عمليات القرصنة الأوروبية سواء فى المياه الهندية أو فى مياه الخليج العربى، ومن عجب أن نجد معظم القائمين بها انجليز يستخدمون سفنا تحمل العلم الإنجليزى حتى اتفقت الدول الأوروبية فيما بينها عام ١٦٩٨م على أن تضمن انجلترا تطهير المياه الهندية من القرصنة وتتحمل مسئولية حماية الملاحة فى الخليج العربى من القرصنة، كما تقوم هولندا بمتابعة القرصنة فى البحر الأحمر.

ولم تذكر المصادر أن الأوروبيين أبرياء من هذه العمليات، بل أن المصادر الأوروبية تذكر أن المغامرين الأوروبيين هم الذين شجعوا بعض المغامرين العرب من مسقط وبعض الهنود على القيام بتلك العمليات، بل إن المصادر نفسها تذكر أن سفنا تحمل العلم البريطانى تهاجم سفنا تحمل هى الأخرى العلم البريطانى حتى صار الإنجليز مكروهين فى تلك المياه كراهية البرتغاليين فى الهند.

ورغم محاولات الحكومة الإنجليزية المساهمة فى القضاء على القرصنة فى المياه الهندية والعربية، كما حدث عام ١٧٠٠م حين أعدمت تسعة من القرصنة الإنجليز ورئيسهم فإن التجارة قد تأثرت بتلك العمليات حتى أن تقارير المسئولين الإنجليز فى الخليج ذكرت أن ظهور قرصان انجليزى واحد فى مياه الخليج قد أضر بالتجارة الإنجليزية إضرارا بالغا.

الفصل الثالث

الغزو البرتغالي الهولندي الفرنسي البريطاني لمنطقة الخليج

الغزو البرتغالي للخليج العربي

ازدياد نفوذ الهولنديين في الخليج

أعمال الفرنسيين في الخليج

مملكة هرمز والصراع الصفوي العثماني في الخليج

الإستراتيجية العثمانية في مواجهة التواجد الأوربي في منطقة الخليج

أولاً: الغزو البرتغالي للخليج العربي:

بدأ الوجود البرتغالي في المحيط الهندي منذ عام ١٤٩٨م عندما جاء الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما برحلته البحرية إلى مدن شرق أفريقيا واصطحب الملاح العماني شهاب الدين أحمد بن ماجد ليوصله إلى الهند حيث منبع التجارة الشرقية التي كان العرب والمسلمون يحتكرون نقلها إلى أوروبا عبر الخليج العربي فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوروبا، أو عبر البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا، وقد أرخ أحمد بن ماجد مجيء البرتغاليين إلى "قاليقوط" بساحل الهند الغربي في "أراجيزه".

وجاء لكاليكوت خذ ذى الفائدة	لعام تسعمائة وست زائدة
وباع فيها واشترى وحكما	والسامري برطله وظلما
وسار فيها مبغض الإسلام	والناس في خوف واهتمام
وانقطع المكي عن أرض السامري	وشد جردفون للمسافري
وخبرني ما حمله الفرنجي	من جانب السودان شط اللجي
وهو الذي قد قهر المغاربة	وأندلس في حكمه مناسبة

هنا تصوير لشاهد عيان هو أحمد بن ماجد الذي رافق الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما من شرق أفريقيا إلى شاطئ الهند الغربي عند مدينة كاليكوت أو "قاليقوط"، وأرخ ابن ماجد لهذا الحادث بعام ٩٠٦ هجرية وقد وصف ابن ماجد مظالم البرتغاليين وبغضهم للمسلمين الذين انقطع سفرهم إلى الهند، واتجهوا بتجارتهم ورحلاتهم إلى رأس جردافون بالقرن الأفريقي.

ووصف ابن ماجد البرتغاليين بأنهم حاربوا المغاربة والأندلسيين المسلمين وجاءوا إلى أفريقيا والبحر العربي والمحيط الهندي كأعداء للمسلمين.

ولكن الملاح ألفونسو البوكيرك هو الذي اتبع سياسة السيطرة على الخليج العربي والبحر الأحمر، ومن ثم سارت القوة البحرية البرتغالية تحرق الموانئ العربية وتفرق أساطيل العرب

التجارية تمهيدا لإقامة امبراطورية برتغالية في الشرق، ولذلك أكثر من إقامة الحصون في المراكز التجارية لا لحماية التجارة البرتغالية فقط، بل لفرض سلطانه على تلك البلاد.

وقد هاجم الأسطول البرتغالي في عام ١٥٠٦م بقيادة "الفونسو البوكيرك" جزيرة هرمز الواقعة في مضيق هرمز، والتي كانت دويلة ذات مكانة تاريخية، واستولى عليها، وبعد أن ضمن السيطرة على مدخل الخليج العربي اتجه إلى مدينة مسقط وأنزل قواته العسكرية بها بعد قصفها بالمدافع وتدمير تحصيناتها، وقد استطاعت القوات البرتغالية الأكثر قوة واستعدادا من إسكات المقاومة العمانية العنيدة، حيث تحمل أهل مسقط الاضطهاد والقتل وإحراق بيوتهم، ومن ثم أقام البرتغاليون قلاعاً وحصوناً في المواقع الإستراتيجية في مسقط وفي مدن وموانئ سواحل عمان مثل ميناء "خورفكان" ورأس الخيمة وغيرها.

وواصل البرتغاليون تقدمهم في الخليج بأسلوبهم التدميري، فهاجموا جزر البحرين عام ١٥١٥م واستولوا عليها وبنوا قلعة ضخمة لا تزال أثرها باقية حتى الآن في مدينة المنامة، وبذلك سيطروا على ساحل الخليج العربي حتى البحرين ولم يتمكنوا من الاستيلاء على الأحساء وفي كل موقع دخله البرتغاليون اتبعوا أساليب البطش والتنكيل والقتل مع الأهالي، وبهذا الأسلوب الوحشي قضى البرتغاليون على تجارة العرب والمسلمين في هذه المنطقة التي ازدهرت منذ عصور مضت، وإن كان ذلك وُلد لدى العرب المرارة والرغبة في الانتقام من البرتغاليين وهنا ظهرت حركة الجهاد البحري الإسلامي ضد السفن والوجود البرتغالي في الخليج العربي^(١).

وعندما تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند عام ١٦٠٠م وعملت على نقل متاجرها عبر مياه الخليج العربي اصطدمت بالوجود البرتغالي، ومن ثم تحالفت قوتها الحامية لتجارتها مع المناضلين العرب بقيادة ناصر بن مرشد اليعربي حاكم مسقط، ونجح هذا التحالف في النهاية من طرد البرتغاليين من كل أقطار الخليج العربي، وكان للفرس دور في هذا العمل نتيجة تشجيع رجال شركة الهند الشرقية البريطانية، حيث ظهر الأسطول البريطاني في الخليج العربي واستولى على حصن "قشم" البرتغالي، وفي النهاية نجح العمانيون في تطهير بلادهم من الاحتلال البرتغالي عام ١٦٨٩م^(٢).

وكان من نتائج زوال الوجود البرتغالي من أقطار ومياه الخليج العربي اشتداد حدة الصراع على النفوذ في المنطقة بين هولندا وبريطانيا، حيث أصبح حلفاء الأمس - في طرد

(١) خالد العزي: الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢، ص ٢٨.

(٢) د. محمود علي الداود: أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، ص ٨.

البرتغاليين من الخليج العربي - أعداء اليوم في التنافس على التجارة الهندية وطرق عبورها في مياه الخليج العربي وقد حدث أول اشتباك بين البريطانيين والهولنديين في "شتورا" بالهند ، مما أدى إلى استسلام الهولنديين دون قيد أو شرط ، وأخذت مراكزهم تتساقط في أيدي البريطانيين الواحد بعد الآخر في الهند وفي الخليج العربي ، حيث استعملت بريطانيا نفوذها السياسي لدى كل من الدولة العثمانية والدولة الفارسية للحد من نشاط التجارة الهولندية في الخليج العربي ، حتى اضطر الهولنديون إلى الانسحاب من "بتدر عباس" عام ١٧٢٠م ومن البصرة عام ١٧٥٢م ومن جزيرة "خرج" وبقية أرجاء الخليج العربي وفارس عام ١٧٦٥م ، وبذلك خلا الجو للنفوذ البريطاني^(١).

وقد حاولت فرنسا مد نفوذها إلى منطقة الخليج العربي عن طريق إقامة علاقات تجارية مع العمانيين ، وتمكنت من عقد معاهدة صداقة وتجارة مع "سلطان بن أحمد" سلطان مسقط ، حيث كانت الاتصالات الرسمية بين سلطان مسقط وعمان والحكومة الفرنسية تجرى بواسطة "روسو" القنصل الفرنسي في بغداد في ذلك الوقت. وقد اعتبر البريطانيون الاتصالات بين فرنسا وسلطنة مسقط وعمان خطرا يهدد مصالحهم بصورة مباشرة ، ومن ثم اشتد الصراع البريطاني الفرنسي بشأن الهند والطريق إليها ، ومن ثم عقدت بريطانيا معاهدة مع "سلطان بن أحمد" في ١٢ أكتوبر ١٧٩٨م أنهت العلاقات مع فرنسا وانفردت بريطانيا بهذه العلاقات بتواجد سياسي وعسكري^(٢).

وهكذا لم يبدأ القرن التاسع عشر الميلادي إلا وكان النفوذ البريطاني بل والوجود البريطاني في أقطار الخليج ، وإن شئنا الدقة في بعض موانئ أقطار الخليج مثل هرمز ومسقط ، وفي مياه الخليج حتى البصرة شمالا قد انفرد ولم يعد له منافس ، وهنا جاءت عمليات الجهاد البحري الإسلامي من أقطار الخليج العربي ضد جميع السفن الأجنبية المارة في مياه الخليج العربي تلك العمليات التي جاءت ردا على ما فعله البرتغاليون ضد سكان أقطار الخليج العربي ، ثم انسحبت ضد الهولنديين فالبريطانيين طوال القرن التاسع عشر. كان البرتغاليون أول قوة أوروبية تدخل إلى منطقة الخليج العربي أوائل القرن السادس عشر بعد نجاحهم في الدوران حول أفريقيا والوصول إلى شبه القارة الهندية عام ١٤١٨م - كما سبق أن ذكرنا - وجاء ظهور البرتغاليين في الخليج في عام ١٥٠٧م على يد "الفونسو ألبوكيرك" الذي نجح في الاستيلاء على كل من "قلهات" و"قريات" و"مسقط" و"صحار" و"خورفكان" و"هرمز"

(١) خالد العزي: مرجع السابق، ص ٣١.

(٢) محمود علي الداود: مرجع السابق، ص ٢٠.

وقد استخدم البرتغاليون أفضع وسائل التعامل مع سكان هذه المدن الذين لم يستسلموا بسهولة للعدوان البرتغالي، واستمرت ثورات الأهالي في هرمز ومسقط وقلهات والبحرين.

بدأ الصراع السافر بين البرتغاليين والأتراك في الخليج العربي حوالى عام ١٥٥٠م حين أعلن أهالي "القطيف" أنهم يضعون أنفسهم تحت حماية الأتراك الذين كانوا قد احتلوا البصرة منذ عهد قريب، ومن ثم بدأ الصراع بين الأتراك والبرتغاليين في منطقة الخليج العربي، واشتد الصراع حول البصرة والبحرين ومسقط، بين كروفر بين الطرفين، وقد نجح البرتغاليون في بناء قلعة كبرى في مسقط عام ١٥٨٦م وقد اضمحلت قوى البرتغاليين في الخليج في الفترة من عام ١٦٢٨م إلى عام ١٦٥٢م رغم محاولتهم الاستيلاء على ميناء البصرة أو على الأقل تأكيد نشاطهم التجارى هناك في الفترة من ١٦٢٥م إلى عام ١٦٤٠م، وقد نجح العمانيون من طرد البرتغاليين من عمان في الفترة من عام ١٦٤٠م إلى عام ١٦٥٠م.

لعل أهم أسباب انهيار نفوذ البرتغاليين في منطقة الخليج العربي العنف وسوء النية في التعامل مع جيرانهم من أهل الشرق، إلى جانب مشاعر الحسد والشقاق التي كانت فاشية بينهم - خاصة قياداتهم - على الدوام. فقد ذكر الرحالة الإيطالي "بيترو ديلافالى" في عام ١٦٢٤م إلى عام ١٦٢٥م أن دمار أحوالنا نابع من احتكار كبرائنا لصغارنا، ومن طمع صغارنا طمعاً أعماهم عن دعوة الوطن والشرق، إن البرتغاليين قادرون على استرداد ما يخسرون، ولكنهم عاجزون عن استبقائه^(١).

وكان البرتغاليون ما يزالون في الفترة من عام ١٦٥٣م إلى عام ١٧٢٢م يتشبثون ببقايا مصالحتهم في الخليج باستغلال وكالتهم في "كنج" حيث كانوا منذ سنة ١٦٢٥م ينالون نصف العوائد، كما هي الحال مع الإنجليز في "بندر عباس" وكانوا كثيراً ما يشتبكون مع الإيرانيين وفي قتال دائم مع عرب الخليج كما كانت علاقتهم مع الإنجليز علاقة غير ودية^(٢).

مشاكل البرتغاليين مع الإيرانيين ١٦٥٣ - ١٧٢٢:

ويبدو أن حصول البرتغاليين على نصيبهم من عوائد كنج كانت صعوباته كنفس مصاعب الإنجليز في تحصيل نصيبهم من عوائد بندر عباس، وفي إحدى المرات قام البرتغاليون بمناورة لإظهار القوة بحراً لتحصيل متأخراتهم من العوائد، ولقد كان في

(١) آسيا البرتغالية: مجلد ٣، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - ترجمة ستيفن لكتاب فرياي سوما.

(٢) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ط ١، ص ١١٥.

حديث أحد وكلاء الإنجليز في تقرير له سنة ١٧٦٠ - في معرض حثه على تطبيق نفس الفكرة لتحصيل العوائد الإنجليزية المتأخرة في بندر عباس - ما أعان على معرفة تاريخ وقوع تلك المظاهرة. وفي سنة ١٦٨١ أو سنة ١٦٨٢ كرر البرتغاليون المناورة البحرية نفسها، على مستوى أضيق هذه المرة - فاستطاعوا تخويف الشاهبندر وإرغامه على أن يدفع - وهو صاغر - مبلغ تسعة آلاف تومان كانت مستحقة لهم، وقيل أنه بعد سنة ١٧١١م لم يدفع للبرتغاليين شيئاً من نصيبهم في عوائد كنج، وحوالي سنة ١٧٢١م كان حجم التجارة في كنج ضئيلاً، وكان يقوم بها عدد من الهنود - الهندوك والمسلمين - غير أن انتعاش هذا الميناء قل إلى حد بعيد نتيجة أعمال أعراب مسقط، وكان في كنج عندئذ كنيسة واحدة فيها راهبان يعيشان على الإحسان والمنح^(١).

علاقة البرتغاليين بالإنجليز ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

وكان في جملة الاعتبارات التي تحول دون لجوء شركة الهند الشرقية للقوة البحرية على الساحل الإيراني هو الخوف من أن يخدم الصدام بين الإنجليز والإيرانيين مصلحة الهولنديين أو البرتغاليين. لهذا لم تلجأ الشركة إلى مثل ما قام به البرتغاليون والهولنديون من قبل. وفي سنة ١٦٧٦م حدث استياء شامل بين الإنجليز نتيجة رفض البرتغاليين منح أذونات مرور لسفن الأهالي التابعة لهم والمتوجهة إلى بندر عباس، وفي السنة التالية قرر الإنجليز أنه في حالة إصرار البرتغاليين على مسلكهم المعادي أن يرفضوا منح السفن الهندية المتجهة إلى كنج أذونات مرور انجليزية. ولا يعرف ما أسفر عنه هذا الخلاف. وفي سنة ١٦٨٩م قامت، كما ذكرنا سابقاً، إحدى سفن القراصنة الإنجليزية بنهب الوكالة البرتغالية في كنج وقد ظهرت هذه السفينة في الخليج ظهوراً سريعاً وفشلت سفن الشركة الإنجليزية في مطاردتها. ومنذ سنة ١٦٩٥م توقفت زيارات سفن الشركة الإنجليزية لميناء كنج بسبب قلة الأرباح كما يبدو.

وسرى في الفترة التالية أن البرتغاليين كانوا يميلون للشك بأن غارات القراصنة العرب على سفنهم إنما هي شيء يتعمد الإنجليز تشجيعه والتحريض عليه^(٢).

علاقة البرتغاليين بعرب عمان ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

لقد كانت العلاقات بين البرتغاليين وعرب عمان عدائية منذ سقوط هرمز، وكانت بينهما حالة حرب قائمة بشكل دائم، وحوالي سنة ١٦٦٠م استطاع عرب مسقط انتزاع

(١) لوريمر: المرجع السابق.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص ١١٦.

ممبسة مؤقتا من أيدي البرتغاليين، لكن الصراع بين هذين الجانبين لم يبلغ قمة خطورته إلا في العقد الأخير من القرن السابع عشر.

وفي سنة ١٦٩٣م استطاع عرب مسقط إلحاق خسائر جسيمة ببعض سفن البرتغاليين، وقاموا في سنة ١٦٩٤ أو ١٦٩٥م بغارة بحرية على ميناء كنج موقعين به خسائر قدرت بحوالي ٦٠ ألف تومان. وفي حوالي سنة ١٦٩٦ وافق البرتغاليون الذين تنقصهم حكمة جيرانهم الإنجليز والهولنديين وقوتهم على مساعدة الإيرانيين ضد قراصنة مسقط. وكانت النتيجة المباشرة لذلك القرار أن قسم عرب مسقط أسطولهم قسمين:

سار أحدهما على طول الساحل الأفريقي حتى دمر المستوطنة البرتغالية في ممبسة، وانطلق الثاني إلى حيث دمر الوكالة البرتغالية في مانجالور على الساحل الهندي^(١) وقد عزا البرتغاليون سنة ١٦٩٧ عدوان عرب مسقط عليهم إلى إمدادات وأسلحة تلقوها من الإنجليز في بومباي، زاعمين أيضا أن السفن العمانية كان يقود معظمها ضباط إنجليز وكانت ترفع العلم الإنجليزي. وفي نفس السنة تعرضت سفن البرتغاليين أن شركة الهند الشرقية قد سمحت لهم ولسفنهم بالمرور، لكن الشركة أنكرت أية علاقة لها بهم، وتصلت من أية مسؤولية عن أعمالهم.

وفي ١٣ مايو ١٦٩٨م هاجم أسطول عماني مكون من ثمانى سفن فرقاطتين برتغاليتين، وكان والى مطرح يقود الأسطول العماني. ونشبت معركة استمرت ثلاث ساعات، وانتهت بهزيمة العرب وقتل عدد كبير من رجالهم وبينهم القائد نفسه، في حين لم يقتل من البرتغاليين سوى خمسة رجال وجرح ١١. وحوالي سنة ١٦٩٩م استولى العمانيون على ممباسة، وظلوا فيها حتى استعادها البرتغاليون مؤقتا منهم في سنة ١٧٢٨م، كما حدثت مجزرة رهيبة للبرتغاليين على طول الساحل الأفريقي.

١٧١٤ - ١٧١٩م:

ساد القتال بين الفريقين فترة سكون دامت حتى ١٩ فبراير سنة ١٧١٤م حين هاجم العرب أسطولا برتغاليا خارج سورات، لكن البرتغاليين استطاعوا صد أعدائهم إلى البحر، بعد أن قتل لهم ٢٨ قتيلا وجرح ٣٤، ويقال أن سفينة القيادة العربية قد غرقت في طريق عودتها متأثرة بالإصابات التي أصيبت بها في المعركة. وسرعان ما حاول العرب الانتقام فجاءوا بأسطول إلى كنج وطلبوا إلى الشاهبندر تسليمهم الوكيل البرتغالي

(١) هاملتون: التاريخ الجديد مجلد أول ص ٧٥.

هناك، غير أنهم هزموا هذه المرة أيضا ورجعوا بخسائر كبيرة^(١). وفي فبراير سنة ١٧١٩ - وكانت الظروف الآن قد أصبحت أكثر ملائمة - أرسل أسطول برتغالي إلى الخليج، وفي ٤ أغسطس استدرج الأسطول البرتغالي أسطولا عربيا إلى معركة خارج كنج، وكان اليوم الأول في المعركة الذي استمر فيه القتال من التاسعة صباحا حتى السابعة مساء - في صالح البرتغاليين. وفي اليوم التالي استمروا في مطاردة أعدائهم ولم يرجع أسطولهم إلى كنج حتى ٨ أغسطس. وفي هذه الاشتباكات قتل من البرتغاليين ١٠ رجال وجرح خمسة وثلاثون، وفي نفس الوقت تراجع أسطول العرب عبر الخليج إلى رأس الخيمة. وكان البرتغاليون - الذين يظنون العرب يتلقون إمدادات من الإنجليز والهولنديين - ما يزالون يوالون البحث عنهم.

والتقوا بهم مرة أخرى في ٢٩ أغسطس، وبعد مزيد من القتال استطاعوا أن يردوا آخر سفن العرب على أعقابها، وكان ثمة أسرى من الجانبين أصبحوا أرقاء..... لكن أسرى العمانيين لقوا معاملة أفضل من أسرى البرتغاليين على ما يقال.

ازدياد نفوذ الهولنديين في الخليج ١٦٢٨ - ١٦٥٣م:

يجب أن نلاحظ أن اختفاء البرتغاليين وبعدهم عن الميدان لم يؤد إلى خلاص الإنجليز من المنافسة السياسية والتجارية، لأنه مع تدهور قوة البرتغاليين - كانت قوة الهولنديين تتزايد تزايدا سريعا أصبح يتهددهم بالخطر. فقد لجأ الهولنديون في إيران إلى إتباع مختلف أساليب الرشوة ودفع أثمان مرتفعة في السلع الإيرانية، وثابروا على بذل المجهود من أجل إزاحة الإنجليز عن المكان الذي احتلوه بالجهد والألم، وفي سنة ١٦٣٨ - السنة التي قام بها مندلسو بزيارة بندر عباس وكان للهولنديين كما للإنجليز وكالة فيها - كان الهولنديون يحتكرون كل تجارة التوابل، كما كانوا قد أظفروا بإعفائهم من ضرائب الاستيراد، وفي سنة ١٦٣٩ - ١٦٤٠ كانت حركة سفن الهولنديين وتجارتهم مسيطرة في بندر عباس، لكن القائمين على الوكالات الإنجليزية في إيران رفضوا أوامر شركتهم بإغلاق وكالة أصفهان وأرجأوا تنفيذ ذلك حتى لا يتيحوا الفرصة كاملة لمنافسيهم، وفي سنة ١٦٤١ عمد الهولنديون لرغبتهم "في زيادة حجم" تجارتهم من الصادرات الإيرانية أو احتكارها إلى بيع البضائع الأوروبية في إيران بثمن أقل من ثمن التكلفة.

وفي سنة ١٦٤٥ أرسل الهولنديون - وقد أصبح هدفهم الآن هو بسط نفوذهم في إيران مستخدمين لذلك كل الوسائل مهما كانت بما فيها القوة العسكرية - أرسلوا أسطولا

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص ١١٨.

ضحما إلى الخليج يقوده القائد بلوك^(١) وفي بندر عباس طلبوا إلى الإيرانيين رد مبلغ ٤٩٠٠ تومان كعوائد جمركية سبق أن دفعها الوكيل الهولندي، ومن هذا يتضح لنا أن الهولنديين لم ينجحوا نجاحا تاما في تلافى دفع العوائد الجمركية، وأصبح التواطؤ بين الهولنديين والمستولين الإيرانيين خطيرا لدرجة حتمت نقل ممتلكات شركة الهند الشرقية الإنجليزية في بندر عباس إلى البصرة ضمانا لسلامتها، وكان ذلك في يونيو سنة ١٦٤٥.

وبعدها وسع الهولنديون رقعة حربهم التجارية ضد الإنجليز ومدوها إلى العراق فأرسلوا أسطولا من ثمانى سفن إلى البصرة. وأدت هذه الخطوة من جانبهم إلى تدمير مؤقت لأعمال الوكالة التجارية الإنجليزية التي كانت أنشئت هناك مؤخرا. وفي سنة ١٦٤٩، وصل نفوذ الهولنديين في الخليج إلى قمته، وبدأت طواع لحصولهم على امتيازات أخرى من الحكومة الإيرانية التي أصبحت ترهبهم لكنها لا تحترمهم، وفي سنة ١٦٥٠، زادت كفة الهولنديين في الخليج رجوحا، وزادها طرد البرتغاليين من مسقط، وفيها وصل أسطول هولندي ضخيم مكون من عشر سفن إلى بندر عباس وأنزل حمولة ضخمة. وحوالي هذا الوقت استطاع الهولنديون كما يقول تافرينير تصريف ١,٥٠٠,٠٠٠ رطل من الفلفل في إيران^(٢) دفعوا منها ثمن كل الحرير الإيراني. وفي العام التالي وصل إلى بندر عباس أسطول هولندي مكون من ١١ سفينة يحمل شاحنة من البضائع قيمتها أكثر من ١٠٠ ألف جنيه انجليزي، وتأثرت التجارة الإنجليزية بهذا تأثرا بالغا، وفي سنة ١٦٥٢ - ١٦٥٣ أرسل الهولنديون ١٥ سفينة إلى بندر عباس تقدر حمولتها بحوالي ١٢٠ ألف جنيه انجليزي، واستطاعوا بهذا أن يكتسحوا التجارة الإنجليزية اكتساحا تاما، لكن الشاه ظل على رفضه لطلبهم التساوى في المعاملة مع الإنجليز من حيث الامتيازات التجارية، وذلك على أساس أنهم لم يقدموا لإيران من الخدمات مثل ما قدم الإنجليز، على أنه استقبل بعثة هولندية في أصفهان استقبالا حسنا، غير أنه برغم كل ما كان يفيد من الهولنديين وبرغم التضحيات النقدية الكبيرة من جانبهم، رفض أن يمنع الإنجليز من الحصول على قدر كبير من الحرير بشروط مناسبة^(٣).

الحرب الإنجليزية الهولندية في الشرق ١٦٥٣ - ١٦٥٤م:

عقب وصول أنباء إعلان الحرب بين إنجلترا وهولندا إلى الهند اقترح الهولنديون في

(١) جولييات يروس: المجلد الأول، ص ٤١٤.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص ٧١.

(٣) لوريمر: المرجع السابق.

الشرق تحالفا بينهم وبين البرتغاليين لتحطيم التجارة الإنجليزية. وقد رفض البرتغاليون قبول هذا العرض، كما رفضوا أيضا قبول عروض مضادة عرضها عليهم الإنجليز. واستطاع الهولنديون دون معونة أحد الاستيلاء على سفن الشركة "روبك" و "لانيربت" تجاه ساحل جاشك، وبعدها بقليل استطاعوا أيضا الاستيلاء على السفينة "بليسنج" كما اضطروا السفينة "سيلاي" للهروب جهة الساحل حيث أصبحت شبه غارقة. وفي نهاية يناير ١٦٥٤ استطاعت خمس سفن هولندية في معركة خارج بندر عباس إغراق السفينة الإنجليزية "اندوفر" والاستيلاء على السفينة "فالكون" وأسرى حوالي ثلاثين أسيرا في ظروف ليست مشرفة للإنجليز على الإطلاق^(١)، والحقيقة أن البحارة من الجانبين جميعا كانوا في حالة سكر شديد. كذلك بلغت سيطرة الهولنديين على الخليج من القوة بحيث صدرت التعليمات حتى لوكيل الشركة في البصرة بالانتقال إلى مكان أكثر أمنا، وظن البعض أنه بات ضروريا نقل الحرير الإيراني إلى أوروبا عن طريق أصفهان، لكن أخبار حلول السلام جاءت في نهاية المطاف فرجا من ذلك الموقف الحرج.

تفوق التجارة الهولندية على الإنجليزية ١٦٥٤ - ١٦٨٤م:

وخلال ما تبقى من هذه الفترة، فإن ما ذكرناه سابقا يظهر أن سيطرة الهولنديين على الخليج ونشاطهم الدائب فيه ظلا مصدر قلق لشركة الهند الشرقية البريطانية. وما كان اقتراح إقامة محطة انجليزية في مسقط سنة ١٦٥٩ ليهدف إلى القيام بعمل مضاد لهذه السيطرة. وفي سنة ١٦٦٤ وضع أن للهولنديين السيطرة الأولى على التجارة في بندر عباس، وقد أخذوا يرسلون ثلاث أو أربع سفن ضخمة موسوقة جيدا بالبضائع في كل سنة، حتى "أضحوا مهمين تماما لكنهم محتقرون أيضا" وحين زار دكتور جون فراير بندر عباس في سنة ١٦٧٧ وجد الهولنديين يسيطرون سيطرة مطلقة على تجارة التوابل، وكان احتكارهم هذه التجارة قويا ومحكما حتى أنهم ذات مرة أحرقوا حمولة أربع سفن لهم كي يرغمون التجار الإيرانيين على قبول الأسعار التي يحددونها لحمولة السفينتين الباقيتين - وكانوا قبل ذلك يتجرون تجارة واسعة في السكر والنحاس، وقد قدر دكتور فراير "صادراتهم من المخمل والحرير الخام والمطبوع والسجاد الفارسي الفاخر، إلى جانب أطنان من الذهب والفضة في كل سنة مما يزيد على خمسين ألف تومان".

وفي سنة ١٦٨٢م كان الهولنديون ما يزالون يرسلون سفينتين كبيرتين كل سنة إلى بندر عباس، وكانت المقارنة بين سفنهم وسفن شركة الهند الشرقية البريطانية ليست

(١) نفس المرجع، ص ١١٠.

من صالح هذه الأخيرة بأية حال^(١).

استمرار المنافسة بين الإنجليز والهولنديين بمزيد من الخسائر للهولنديين ١٦٩٥ -

١٧٠٥م:

وفى ١٦٩٥، ولما زادت حدة المشاكل بين الإيرانيين والعرب فى الخليج بتكرر هجوم العرب على سفن الإيرانيين، خشى الإنجليز أن يسارع الهولنديون إلى نجدة الشاه فيكسبون بذلك حقوق الدولة المفضلة فى المتاجرة مع إيران. لكن هذه المخاوف لم تتحقق، وكان الهولنديون فى ذلك الوقت يتمتعون بحق تصدير ما قيمته ٢٠ ألف تومان من البضائع إلى أصفهان معفاة من الضرائب كل سنة، فى مقابل حق الإنجليز فى تصدير ما قيمته خمسة آلاف تومان فقط. وفى سنة ١٦٩٧ قدمت شركة الهند الشرقية البريطانية سفينتها "شارل الثانى" إلى الشاه كى يقوم بنقل سفيره الخاص إلى بلاط المغول فى الهند، وذلك بهدف كسب نقطة فى صفها ضد الهولنديين. وقد أشرنا من قبل إلى أن الهولنديين قد احتجوا احتجاجا شديدا فى سنة ١٦٩٩ على دفع الإيرانيين جانبا من نصيب الإنجليز من عوائد بندر عباس حريرا؛ لأنهم كانوا يحتكرون تصدير الحرير الإيرانى كله عن طريق البحر. ويبدو أن احتجاجهم هذا لم يثمر شيئا، لكنهم استطاعوا أن يجدوا طريقة يستميلون بها الشاهبندر لصفهم^(٢)، ويبدو أنهم قد أغروه بأن يؤكد أنه قام بدفع مبلغ ١٢٠٠ تومان زيادة فى حساب الوكيل الإنجليزى عما قرره الوكيل نفسه، غير أن زيارة الشاه للوكالة الإنجليزية بأصفهان فى يونيو سنة ١٦٩٩ كانت ضربة حاسمة للهولنديين لأنها أدت إلى تغيير فورى فى اتجاه الشاهبندر نحوهم، فسرعان ما أمر بإيقاف العمل فى قلعة كان الهولنديون يقيمونها لأنفسهم فى بندر عباس، ورغم أنهم التمسوا شرف زيارة الشاه لوكالتهم أيضا، إلا أنه لم يجيبهم إلى ذلك. ويزعم الهولنديون أن الوكيل الإنجليزى قد استطاع إقناع الشاه بأن الهولنديين أمة بلا ملك، وهى لهذا غير جديرة باهتمامه.

وفى سنة ١٧٠٥ كانت مشكلات القراصنة ما تزال قائمة، وخشى الإنجليز أن يبادر الهولنديون إلى العمل على الخلاص منها فيقتربون بذلك إلى الشاه، غير أن مخاوفهم هذه، مرة أخرى، لم تتحقق^(٣).

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص ١١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٣.

(٣) لوريمر: المرجع السابق، ص ١١٤.

تأمر الهولنديين ضد الإنجليز ١٦٨٦م:

وفي سنة ١٦٨٦ حاول الهولنديون جهدهم للإيقاع بين البلاط الإيراني والإنجليزي، غير أن مترجم الشركة الإنجليزية، وهو رجل أرمني كان يقيم في أصفهان، استطاع إحباط هذا التآمر.

إقامة دكتوراً . كايمفر في بندر عباس ١٦٨٦ - ١٦٨٨:

وفي نوفمبر ١٦٨٥ قبل الرحالة دكتور كايمفر وظيفة كبير الجراحين في شركة الهند الشرقية الهولندية في الخليج، وهو من مقاطعة وستفاليا، وكان قد جاء لإيران لأول مرة في سنة ١٦٧٤ كسكرتير لسفير السويد في البلاط الإيراني، فترك أصفهان إلى بندر عباس، ورغم أنه كان يعاني من اعتلال صحته، استطاع القيام بدراسة وافية في التاريخ الطبيعي لإقليم بندر عباس ضمنها رسماً تفصيلاً لأشجار النخيل.

زيادة التنافس بين الإنجليز والهولنديين ١٦٨٨ - ١٦٨٩م:

وحوالي سنة ١٦٨٨ أي من الوقت الذي أصبحت فيه مصالح الهولنديين في أوروبا خاضعة لمصالح الإنجليز، والدولتان معا في حلف للحرب ضد فرنسا" بدأ الهولنديون يفقدون أسهمهم في إيران، وكانوا حتى ذلك الوقت يناهسون الإنجليز في استرداد المصنوعات الهندية" لكن الإنجليز استطاعوا الحيلولة دون حصولهم على حق احتكار الصوف في كرمان^(١).

أعمال الفرنسيين في الخليج ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

أسس الفرنسيون الشركة الفرنسية لجزر الهند الشرقية في سنة ١٦٦٤ وفي سنة ١٦٦٧ - ربما قبل ذلك - كانت لهم وكالة تجارية في بندر عباس. وفي هذه السنة زار الدكتور فراير بندر عباس وكتب هذه الملاحظات عن التجارة الفرنسية هناك "الفرنسيون في هذا الميناء، كشأنهم في كل مكان آخر، ليس لهم كبير عمل يعملونه، ولولا ما يحصل عليه مترجمهم هناك من ربح من تجارة الهند (كان له امتياز التجارة في النبيذ في سيراس كما كانت لباقي الدول الأوروبية) لما استطاعوا تديير قوتهم. ويعيش السيد الفرنسي هناك ناعم البال. بلا عمل سوى أن يزور وزيراً (ويعامل الجميع بود وبشاشة وآداب فرنسية أصيلة سواء كان هؤلاء مسيحيين أو وطنيين) وبهذه الكيفية ينفق أوقاته، وفي سنة ١٦٨٢ كانت للفرنسيين تجارة محدودة في المنسوجات بالبصرة..... وفي سنة ١٦٩٨ - كما رأينا - ثم بين دول أوروبا الرئيسية توقيع اتفاقية اسمية، لم ينتج عنها شيء بالمرّة، وبموجبها

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص ١١٢.

تعهد الفرنسيون بحماية منطقة الخليج من القراصنة^(١).

مملكة هرمز ضحية الصراع الصفوي العثماني على الخليج:

مملكة هرمز أسسها أتراك إيران في زمن السلاجقة في إحدى الجزر القريبة من الساحل الإيراني أي الساحل الشرقي من الخليج، ولكن كما نعلم جميعاً أن كل شيء يخرج من إيران يصبغ بصبغة الفارسية عند إخواننا العرب، هكذا حال التورك في إيران، نعم كثيرون في العالم يظنون أن السلاجقة والصفويين والخوارزميين والغزنويين والغوريين والأتابكة والجلاتريين والإيلخانيين والقرة قوينلوا والآق قوينلوا على أساس أنهم فرس، لكن في الواقع أنهم تورك وهكذا حال مملكة الهرمز اعتبرت مملكة فارسية مع العلم الهرامزة هم إحدى فخذ من أفخاذ التورك الياقوت الذين وصلوا إلى بلاد الرافدين ٤٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام وإلى سواحل الخليج وخاصة الساحل الشرقي ما يسمى إيران حالياً من آسيا الوسطى مع العلم أن إيران يتكون خمسين بالمئة من التورك الأذريين والتوركمانستانيين، هؤلاء هم من أسسوا نواة الحضارة السومرية.... بعد هذه المقدمة أود أن انقل لكم جزء بسيط عن تاريخ مملكة هرمز.

حتى القرن السادس عشر الميلادي، لم يكن الخليج يحظى باهتمام القوى الدولية والإقليمية على السواء، فكانت الحياة في الخليج ساكنة، وكان الخليج بقومياته وبنشاطه التجاري ساد في الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكان التداخل بين العرب والفرس أمراً شائعاً على سواحل الخليج وجزره، فثمة قبائل عربية، استقرت على الساحل الشرقي، وفي المقابل ثمة مجاميع بشرية فارسية استقرت على الساحل الجنوبي الغربي.

وحيث قدم البرتغاليون إلى سواحل الخليج عام ١٥٠٧م كانت هناك دولة تجارية عظيمة الثراء، وإن كانت تفتقر إلى القوة العسكرية والخبرة القتالية، وهي مملكة هرمز التي تبعد نحو ١٢ ميلاً عن الساحل الفارسي في مدخل الخليج، وقد بسطت نفوذها على الساحل الغربي من القطيف شمالاً حتى رأس الحاد جنوباً، ودخلت في حوزتها البحرين وقشم، وممن ممتلكات هرمز أيضاً قلعات، قريات، صحار، خورفكان، مسقط، رأس الحاد.... كما شملت الأحساء والقطيف.

وكانت مملكة هرمز تمثل نموذجاً للمجتمع الفسيفسائي، فإلى جانب العنصرين العربي والفارسي، هناك عناصر من قوميات أخرى هندية وأفريقية متنوعة، وهذا التنوع

(١) المرجع نفسه، ص ١١٩.

نابع من أهمية الموقع الجغرافي الذي تحظى به هذه المملكة، فقد كانت تعد حتى القرن السادس عشر الميلادي مركزا تجاريا بالغ الأهمية وقد ازدهرت فيها تجارة اللؤلؤ.

وقد أصبحت هرمز تابعة اسميا للدولة الصفوية، وبدأت هذه التبعية في عهد الشاه إسماعيل الصفوي، ولكن خضعت هذه التبعية للظروف السياسية المحيطة، وميزان القوى الإقليمية والدولية، ففي فترة اشتداد الضغوطات السياسية والتهديدات العسكرية البرتغالية على هرمز كان يلجأ حكامها إلى إعلان الولاء للدولة الصفوية، وفي أحيان أخرى يطلبون النجدة من العثمانيين، وهذا ما دفع البرتغاليون للتفكير في فرض إدارة مباشرة على الجزيرة عام ١٥١٥م. وقد انصرفت الدولة الصفوية خلال هذه الفترة إلى فتوحات في الشمال وإلى حروب ضد العثمانيين، ولم تول أمور الخليج اهتماما كبيرا فكان الشاه إسماعيل يترك غالبا المناطق الساحلية الجنوبية لحكام شبه مستقلين.

وقد استغل البرتغاليون انشغال قوات الشاه إسماعيل في شمال فارس في الحرب ضد العثمانيين، فوطدوا نفوذهم في جزيرة هرمز والساحل العماني، واستولوا على القطيف والبحرين، ونكثوا بذلك عهدهم للشاه إسماعيل بمساعدته في بسط حكمه عليها، وقد زار ألبوكيرك البحرين عام ١٥١٥م من أجل تعزيز العمل بمقتضى المعاهدات القائمة بين حاكمها المحلي وملك هرمز الخاضع من الآن للسيطرة البرتغالية. وكان الشاه إسماعيل قد حاول في بدايات التهديدات البرتغالية لمملكة هرمز أن يحث حكامها على الثورة ضد البرتغاليين ووعدهم بالمساعدة، غير أن حاكم هرمز أظهر خطاب الشاه للبرتغاليين، فانقلب الشاه إسماعيل على موقفه سنة ١٥١٠ طالباً التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، ووقع اتفاقية معهم جاء فيها:

١ - أن تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية في الاستيلاء على البحرين والقطيف.

٢ - يتعهد البرتغاليون بمساندة الشاه في القضاء على الحركات الانفصالية التي قامت في إقليم مكران.

٣ - قيام حلف عسكري بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

٤ - إعادة توران شاه إلى هرمز نائباً عن الملك البرتغالي عمانوئيل وهذا يعنى اعتراف الشاه بتبعية هرمز للبرتغاليين.

وفي غضون ذلك، استولى حاكم الأحساء "مقرن بن زامل" على البحرين والقطيف، وطرده النفوذ البرتغالي والهرمزي منها، ولكن البرتغاليين عادوا فسيطروا على البحرين بعد

القضاء على حركة مقرن بن زامل، وإثر سقوط البحرين بفترة وجيزة، قاد ملك هرمز عام ١٥٢٢م حركة تغيير شاملة في كافة ممتلكاته، استهدفت بدرجة أساسية تصفية الوجود البرتغالي، واستجابت لهذه الحركة المناطق الخاضعة لمملكة هرمز، وفي مقدمتها البحرين، فعلى أثر اتجاه البرتغاليين عام ١٥٢٩م على التخلص من الوزير شرف الدين الذى كان يسير أمور هرمز بأسلوب متعارض والمصالح البرتغالية، أعلن سكان البحرين احتجاجهم ضد البرتغاليين وامتنعوا على دفع الجزية المقررة عليهم حيث قاد حسين ابن سعيد شيخ بنى جابر حركة التمرد الشعبى فى البحرين وقتل الحاكم البرتغالي، وكان سبب السيرة والصيت عند السكان البحارنة، ثم طردوا الحامية البرتغالية منها، التى فشلت فى قمع حركة التمرد الشعبى وإرغام السكان على دفع الجزية، بعد انتشار الأمراض فى أفراد الحامية ونقص عتادها، فاضطرت للانسحاب إلى هرمز، وهذا يمثل أول اختبار لقوة البحرين فى ميزان القوى الإقليمية، حيث بات ثابتا فى ظل المعادلة الجيوسياسية الإقليمية أن البحرين شأنها شأن الدول الصغيرة، تظل فى مسيس الحاجة إلى تحالفات إستراتيجية مع دول كبيرة لمواجهة تحديات خارجية كبيرة وخطيرة، وهذا ما أسفرت عنه نتائج الاختبار، وأهمها كما عبر عنها د. عبد العزيز عوض على هذا النحو: "كان حكام البحرين قد اعتادوا على نقل ولائهم من جارقوى لجارقوى آخر وفقا لمصالحهم السياسية والاقتصادية فأيدوا الصفويين ثم نقلوا تأييدهم إلى العثمانيين فى فترات الخصام بينهما، كما أيدوا البرتغاليين وأية قوة إقليمية كبرى تضمن لهم الحماية وتدرء عنهم الأخطار الخارجية"^(١).

وعلى أية حال، وجد حسين بن سعيد بعد أن استقل بالحكم فى البحرين، صعوبة بالغة فى مواجهة القوى الكبرى فى المنطقة، فعاد إلى التحالف مع البرتغاليين الذى ثار عليهم، ومكنهم من توطيد أقدامهم فى البحرين، فقاموا بتنفيذ مخطط سياسى يتسم بالخبث، ويستند على دراسة أحوال المجتمع البحرانى المذهبية، إذا لجأت السلطات البرتغالية إلى خلع حاكم البحرين وولوا بدلا منه حاكما فارسيا سنيا، حتى لا يحظى بتأييد العرب السنة أو العرب الشيعة، وقد أثار هذا المخطط الفرقة والخلاف بين طوائف السكان، ويفسر د. جمال ذكريا قاسم هذا المخطط البرتغالي بما نصه "ولعل البرتغاليين قد اختاروا حاكم البحرين على هذا النحو لانهم كانوا يهدفون بذلك أن يختلف فى جنسه عن سكان البحرين ومعظمهم من العرب، كما يختلف بحكم مذهبه مع عدد كبير من

(١) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسى لقطر.

سكانها الشيعة ، وبذلك يضمن البرتغاليون عدم انضمام حاكم البحرين إلى أية حركة تقوم ضدهم فضلا عن ضمان عدم ولائه للأسرة الصفوية الحاكمة في فارس بحكم كونها للأسرة للشيعة"^(١).

على أن الحكم البرتغالي في البحرين لم يدم طويلا ، بفعل رعونة سياسة الحاكم المحلي المعين من قبل البرتغاليين ، حيث قام بقتل أحد كبار تجار اللؤلؤ في البحرين طمعا في ثروته ،

فنهض شقيقه طلبا للانتقام والثأر لأخيه ، فاستولى على قلعة البحرين ونصب نفسه حاكما على الجزيرة باسم الأمير ركن الدين مسعود ، وقد أثارت هذه الحركة الانقلابية حفيظة حاكم هرمز الذي ظل متمسكا بسيادته على البحرين ، باعتبارها جزءا لا ينفصل عن مملكة هرمز ، ولذلك شعر الأمير ركن الدين حاكم البحرين المحلي وكان يعمل لحساب البرتغاليين وكان على علاقة خاصة مع حاكم إقليم فارس "وردى خان" ، شعر بخطر مملكة هرمز فطلب النجدة من حاكم شيراز ، الذي سارع إلى إرسال قوة عسكرية أفلحت في الاستيلاء على البحرين باسم الشاه عباس الصفوي ، وأحببت مساعي كل من حاكم هرمز والبرتغاليين معا في استعادة البحرين وقتل ركن الدين مسعود.

ولا ننسى في هذا السياق ، اغتنام الصفويين فرصة موت ملك هرمز "فرخ شاه" عام ١٦٠١م ، حيث تولى ولده "فيروز شاه" الحكم واستوزر شرف الدين لطف الله ، الذي عين أخاه ركن الدين مسعود حاكما على البحرين ، وعندما أظهر مسعود رغبته في الاستقلال عن هرمز ، أغراه حاكم شيراز وعرض مساعدته ثم انقلب عليه وقتله واستولى على البحرين باسم الدولة الصفوية.

الإستراتيجية العثمانية في مواجهة التواجد الأوربي في منطقة الخليج

لقد بنيت الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي - كما سبق أن ذكرنا ، على مبدأين أساسيين هما :

(١) مواجهة القوة الاستعمارية الأوروبية الغازية والتي تهدد النفوذ العثماني والوجود الثابت في بلاد الرافدين.

(٢) مد الوجود العثماني في مشيخات الخليج العربية لمساندة الوجود العثماني في العراق وتطبيق النظام الشيعي الصفوي الإيراني المعادي للدولة العثمانية السنية المذهب.

(١) د. جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي.

وبالنسبة للغزو الاستعماري الأوروبي، البرتغالي، الهولندي، الفرنسي، وأخيرا البريطاني - فقد شعرت الدولة العثمانية من منطلق إسلامي واستراتيجي أن عليها مسئولية مواجهة هذا الغزو والدفاع عن عروبة وإسلام مشيخات الخليج العربية، وقد تمثل هذا الدفاع في مواجهات عسكرية وتواجد فعلي في بعض موانئ المنطقة مثل الأحساء بمدنها القطيف والعقير وغيرها إلى جانب الكويت وقطر، وقد ربطت الدولة العثمانية مسئوليتها عن الدفاع عن مشيخات الخليج، وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م - ربطت المسئولية العثمانية للدفاع عن منطقة الخليج العربي بإعلان مشروع الجامعة الإسلامية التي تتزعمها الدولة العثمانية وتحتوي جميع المسلمين في تركيا والشعوب العربية والهند وغيرهم.

وقد راقبت الدولة العثمانية من خلال رجالها في العراق وفي الأحساء والكويت وقطر الصراع الاستعماري الأوروبي فيما بين دول الاستعمار من ناحية وصراع الأوروبيين مع عرب الخليج في مشيخاتهم الذين هبوا لمواجهة هذا الغزو الأوروبي، سواء اتخذت هذه المواجهة شكلا قتاليا أو اتخذت شكل عمليات الجهاد البحري الإسلامي ضد سفن الدول الأوروبية المبحرة في مياه الخليج العربي.

راقبت الدولة العثمانية هذه التحركات في منطقة الخليج العربي من خلال باشوية بغداد، ثم باشوية البصرة، وسعت من خلال إستراتيجيتها الأساسية في مواجهة القوى المعادية سواء تمثلت هذه القوى في الدول الأوروبية بأطماعها أو تمثلت في نظام الحكم الشيعي في إيران المعادي للدولة العثمانية سواء في منطقة الحدود العراقية الإيرانية، أو في منطقة الخليج والتي تسعى إيران لتحقيق ادعاءات لها في مشيخات الخليج سواء في البحرين أو هرمز أو غيرها.

ومما يؤكد اهتمام الدولة العثمانية بمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين، من أن البرتغال والأسبان في القرن الخامس عشر الميلادي عندما صارت دولا وطنية حديثة، رفعوا شعار الاستعادة أي طرد المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا وملاحقتهم في أقطار الوطن العربي والإسلامي، بل ومحاربتهم اقتصاديا عن طريق تحويل التجارة الهندية من البحار الإسلامية (البحر الأحمر والخليج العربي) إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفه الملاح البرتغالي "فاسكو دي جاما" عام ١٤٩٨م، وملاحقة المسلمين في الهند وفي شرق أفريقيا وفي أقطار الخليج العربي.

وقد تحالف البرتغاليون مع الأحباش ضد المسلمين في شرق أفريقيا والبحر الأحمر،

وحاولوا دخول مياه البحر الأحمر والاستيلاء على مملكة هرمز ومسقط والبحرين وغيرها من أقطار الخليج العربي. وقد تصدى لهم أسطول سلطنة المماليك حكام مصر والشام، ولكنهم فشلوا في إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين أمام جزيرة "ديو" في ساحل الهند الغربي عام ١٥٠٩م^(١).

وعندما ضمت الدولة العثمانية كلا من الشام ومصر والحجاز كان عليها مواجهة الوجود البرتغالي في المياه العربية والإسلامية، وظهر قادة بحريون أتراك واجهوا البرتغاليين في المحيط الهندي كان منهم "الريس بيري" وظهر الأسطول العثماني في موانئ البحر الأحمر ونجح هذا الأسطول في منع البرتغاليين من احتلال ميناء جدة والسويس وأطلقت الدولة العثمانية إعلانا دوليا، بأن مياه البحر الأحمر مقدسة لأنها تطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز، وكان البرتغاليون هم المعنيون بهذا الإعلان، حيث لم تكن هناك قوة أوروبية أخرى حاولت دخول مياه البحر الأحمر.

(١) د. رأفت غنيمي الشيش: أفريقيا في العلاقات الدولية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٣٤.

الفصل الرابع

بداية التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي

مقدمة

لماذا التوجه العثماني من خلال محمد علي باشا وأسرته نحو مشيخات الخليج العربي؟

خطوات التوجه العثماني نحو الخليج:

الأحساء.

البحرين.

الكويت والعراق.

قطر.

سلطنة عمان والساحل العماني.

مقدمة:

ترجع علاقة العثمانيين بالخليج العربي إلى عهد السلطان سليمان القانوني "المشرع" وخاصة بعد فتحهم للعراق عام ١٥٣٤م؛ وقد ظهر هذا التنافس واضحاً عندما أنكر العثمانيون على البرتغاليين تدخلهم في شؤون الخليج، ونهضوا لرد عاداتهم، إلا أن الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلا بعد أن أستولى العثمانيون على مصر ونزلت سفنهم في البحر الأحمر وأتجهت إلى الخليج العربي لحماية المصالح الإسلامية من عبث الغزاة. حيث قصدت الباب العالي في أسطنبول وفود إسلامية تلتمس الحماية من الاستعمار البرتغالي، وكان حاكم "كوجرات"، وإمبراطور "دهلي" المسلم، وحاكم "القطيف العربي ممن استجاروا بخليفة المسلمين السلطان "سليمان القانوني"، الذي أمر واليه في مصر "سليمان باشا" بالتوجه إلى الخليج العربي لطرد البرتغاليين^(١).

وصلت حملة بحرية عثمانية بقيادة "محمد فروخ باشا" على ظهر ٧٠ سفينة بحرية تحمل على ظهرها ٢٠ ألف جندي، استطاعت أن تحرر سواحل عدن واليمن ومسقط، واستولى على البحرين وقطر والأحساء والقطيف عام ٨٥٨هـ - ١٥٥٠م من أيدي البرتغاليين، وعين ذلك القائد حاكماً للأحساء، فبنى في عاصمتها مسجداً عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م عرف فيما بعد بمسجد "الدبس" وتلاه في حكم الأحساء، عدد من حكام الأتراك العثمانيين كان آخرهم "عمر باشا" الذي أطاحت به ثورة محلية قادها "براك بن غرير" زعيم بني خالد عام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م، الذي قام بطرد العثمانيين من الأحساء، وأسس أسرة حكمت البلاد حتى عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م، حين تمكن السعوديون من القضاء عليهم، وإدخال الأحساء ضمن أقاليم دولتهم الأولى^(٢).

وقد اتخذ آل سعود من الأحساء، قاعدة للتوسع في أقطار الخليج العربي وفي جنوبي العراق، مما أثار حفيظة الدولة العثمانية، فحاولت استرجاع الأحساء من أيدي السعوديين أكثر من مرة ولكنها فشلت في ذلك، وأخيراً لجأت إلى والي مصر العثماني في ذلك الوقت محمد علي باشا الذي دخل في صراع مع السعوديين حتى سقطت الدرعية عاصمة آل سعود في يد ابنه إبراهيم باشا، ومن ثم اتجهت أنظار محمد علي إلى أقطار الخليج العربية.

(١) د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة.

(٢) د. أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية، بيروت ١٩٦٥م ص ٦١.

التوجه العثماني: من خلال محمد علي باشا وأسرته نحو الخليج العربي

يرتبط التوجه العثماني من خلال محمد علي باشا وأسرته نحو الخليج العربي بالتوجه العثماني بواسطة حملات محمد علي وأبنائه على الحجاز ونجد والتي استغرقت الفترة ١٢٢٦، ١٢٣٤هـ الموافقة من ١٨١١، ١٨١٨م. وذلك أن الدولة العثمانية ضمت الحجاز إلى ممتلكاتها بعد أن غزت مصر عام ٩٣٢هـ، الموافق لعام ١٥١٧م وإن ظل يخضع لنظام الشراقة القائم هناك منذ القرن الرابع الهجري، حتى نجح الأمير سعود الكبير في استخلافه من سيطرة العثمانيين في عام ١٢١٨هـ، ١٨٠٣م. بالنسبة لمكة المكرمة وفي عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م، بالنسبة للمدينة المنورة.

وأما نجد فلم تدخلها قوات عثمانية حيث لم تكن بها من الاغراءات ما يشجع العثمانيون على اقتحامها، إذ صحراوية نجد وسيطرة النظام القبلي بها بالإضافة إلى كونها منطقة داخلية لا توجد بها تجمعات سكانية إلا حيث توجد المياه والمراعى، وقد ظلت نجد تعيش في ظل نزاعات قبلية وعدم استقرار حتى نجح التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي في توحيدها تحت حكم آل سعود وفي ظل دعوة التوحيد السلفية.

وبالنسبة للأحساء فقد دخلها جيش عثمانى قادم من البصرة عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م في عهد السلطان سليمان المشرع ثم استخلصها من العثمانيين براك بن غرير بن عثمان سعود آل حميد من بني خالد عام ١٠٨١هـ الموافق لعام ١٦٧٠م وطرد الحامية العثمانية منها وظلت السلطة في أيدي بني خالد حتى دخلت الأحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م.

وهكذا نجد أن التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته نحو الجزيرة العربية والخليج العربي جاء بعد أن انتشرت دعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية في الأحساء والحجاز، ومن ثم كان على العثمانيين التعامل مع هذه الدعوة ورعاتها آل سعود. وعندما فشل باشوات بغداد ودمشق في القضاء على دولة آل سعود الأولى نظرًا لقوتها الروحية لجأ العثمانيون إلى مصر وإلى محمد علي باشا، لكي يقوم بهذه المهمة وذلك منذ عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م، وكان هدف العثمانيين ضرب عصفورين بحجر واحد بالتخلص من محمد علي الذي اختاره زعماء الشعب المصري التقليديين وأعنى رجال الأزهر والأعيان، والتخلص من الدولة السعودية العربية راعية دعوة التوحيد السلفية.

وقد استمرت حملات محمد علي باشا وأبنائه طوسون وإبراهيم على الحجاز ونجد في

الفترة من عام ١٢٢٦ / عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١١، ١٨١٨م كما ذكرنا، وانتهت بسيطرة محمد علي باشا - باسم السلطان العثماني، على كل من الحجاز ونجد وسقوط الدرعية عاصمة ملك آل سعود في يد إبراهيم باشا وانتهاء الدولة السعودية الأولى التي استمرت قرابة ٧٥ عاماً من ١١٥٧هـ الموافق لعام ١٧٤٣م - وهو عام التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود - حتى عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م.

كان لنجاح حملات محمد علي باشا في الحجاز ونجد في تحقيق مطالب السلطان العثماني بإسقاط دولة آل سعود في الجزيرة العربية عدة نتائج منها ما هو خاص بمحمد علي نفسه حيث زادت مكانته واتسعت آماله في ضم الشام إلى ملكه، ومنها ما هو خاص بمشروعات الخليج العربي حيث تطلع الباشا العثماني حاكم مصر بأنظاره تجاه هذه المشروعات، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو مشروعات الخليج العربي كان نتيجة منطقية وثمره من ثمار الوجود العثماني في الحجاز ونجد.

لماذا التوجه العثماني نحو الخليج العربي؟^(١)

إن تساؤلنا وهو لماذا حدث التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو الخليج العربي؟ يتطلب منا مناقشة الأهداف التي سعت إليها الدولة العثمانية في هذا الوقت المبكر من القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك أن الدولة السعودية الأولى نجحت قبل هذه السنوات في نشر مبادئ دعوة التوحيد السلفية في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية.

ولم تكن الدولة العثمانية تهتم بما حدث داخل الجزيرة العربية حيث لم تكن لها ممتلكات هناك، ولكن عندما امتد النفوذ السعودي إلى شواطئ الخليج العربي وجنوب العراق، بدأ القلق يحرك الدولة العثمانية نحو طموح الدولة السعودية فكلفت سليمان باشا الكبير (بيوق) والي العراق بمحاربة السعوديين فأرسل حملتين لمحاربة آل سعود في الأحساء عام ١٢١٧هـ الموافق ١٨٠٢م، وحملة ثالثة ضدهم في القصيم.

وعندما امتد نفوذ آل سعود إلى الحجاز أوائل القرن التاسع عشر - كما سبق وأن ذكرنا - في عهد الأمير سعود الكبير ازداد قلق الدولة العثمانية خاصة وأن السلطان العثماني يتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين وحامي حمى الحرمين الشريفين (بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة).

وإزاء القلق العثماني من الوجود السعودي بمنطقة الحجاز فقد كلف السلطان العثماني

(١) د. رأفت الشيخ: بحث تمت مناقشته في مؤتمر رأس الخيمة عام ١٩٨٨م بعنوان العثمانيون والخليج العربي.

والي مصر محمد علي باشا بالتعامل مع السعوديين لكسر شوكتهم ولاستخلاص منطقة الحجاز منهم وإعادتها مرة أخرى تحت السيطرة العثمانية. كما أنه إزاء التوسع السعودي في منطقة الخليج العربي ما دفع العثمانيون إلى القلق من ناحية السعوديين. ذلك أن الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود غزا الأحساء في عام ١١٧٦هـ الموافق لعام ١٧٦٢م حيث حقق من ورائها عدة مكاسب عسكرية ومالية، ولكن الصراع استمر بين آل سعود وبين بعض زعماء الأحساء وجيشاً من باشوية بغداد، كان النصر في النهاية لصالح آل سعود الذين أكدوا سيطرتهم على الأحساء حتى مجئ قوات محمد علي باشا.

وأما قطر فإن أهلها وخاصة من قبائل آل مسلم وآل حسن والمعاضيد وغيرهم رحبوا بدعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية. عندما قام القائد السعودي إبراهيم بن عفيصان في عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م بغزو قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والضرع^(١).

كما رحب سكان واحة البريمي في عمان بدعوة التوحيد السلفية، وقد لقيت قوات آل سعود المتجهة إلى عمان التأييد من جماعتين: الجماعة الأولى بعض القبائل التي تقبلت تعاليم المذهب الوهابي (دعوة التوحيد السلفية) والجماعة الثانية الزعماء المعارضون لحكم دولة البوسعيد في عمان. وقد اعتنق مبادئ الدعوة الوهابية قبائل القواسم وبنى النعيم وبنى كعب وبنى قتب وأن ظلت قبيلة بني ياس متمسكة بمذهبها المالكي.

وعندما وصل إبراهيم بن سليمان بن عفيصان لعام ١٢١٠هـ الموافق عام ١٧٩٥م رسول آل سعود إلى البريمي رحبت به قبائل بني النعيم حيث اعتبرت البريمي قاعدة ينطلق منها نشاط رسول آل سعود لنشر نفوذ الدولة السعودية في بقية مشيخات الخليج حتى جزر البحرين، وإن كان آل سعود قد فشلوا في إخضاع الكويت لسيادتهم بعد معارك بين الطرفين امتدت من عام ١٢٠٨هـ الموافق لعام ١٧٩٣م إلى عام ١٢١٩هـ الموافق لعام ١٨٠٤م^(٢).

وبالنسبة لعلاقة آل سعود بآل سعيد في مسقط، فقد اتسمت بالعداء حيث دارت معارك دامية بين سلطان مسقط (سعيد بن سلطان) وبين قائد آل سعود وممثلهم في البريمي مطلق المطيري استغرقت السنوات من ١٢٢٦ - ١٢٢٨هـ الموافق من ١٨١١ - ١٨١٣م. وإذا كان مطلق المطيري قد نجح في غزو سلطنة عمان واكتسح أقاليم مسقط وشرقي صحار وجعلان وضم إلى جانب الدولة السعودية قبيلتين من القبائل الكبرى في شرق عمان هما القواسم وبنى علي بعد أن اعتنقت هاتان القبيلتان دعوة التوحيد السلفية، فإن هذه الانتصارات انتهت

(١) حسين بن غنام: تاريخ نجد ص ٨٠.

(٢) أرنولد ويلسون: ترجمة عبد القادر يوسف: الخليج العربي ص ٢٢١.

دون عائد كبير، إذ لقي مطلق المطيرى مصرعه نهاية عام ١٢٢٩ هـ الموافق لعام ١٨١٣م. كما توفي أمير الدرعية سعود الكبير عام ١٢٣٠ هـ الموافق ١٨١٤م الذي كان زعيماً ذا كفاءات سياسية وإدارية كبيرة^(١).

أما البحرين فقد أرسل الأمير سعود الكبير جيشاً بقيادة إبراهيم بن عفيصان لمساعدة آل خليفة في تخليص البحرين من صاحب مسقط، وقد نجحت قوات إبراهيم بن عفيصان في استردادها من سعيد بن سلطان صاحب مسقط عام ١٢٢٤ هـ الموافق لعام ١٨٠٨م، ولكن هذا القائد السعودي لم يسلم زمام أمورها إلى آل خليفة بل أعلن ضمها لسلطان آل سعود حتى عام ١٢٢٦ هـ الموافق لعام ١٨١٠م عندما ساعدت الحكومة الفارسية آل خليفة على استرداد الجزر من سيطرة آل سعود وعندئذ اضطر الأمير سعود إلى إطلاق سراح المعتقلين من آل خليفة في الدرعية وسمح لهم بالعودة إلى البحرين، وبهذا نجد أن الدولة السعودية لم تتمكن من ضم البحرين إلى ممتلكاتها.

وهكذا كان التوسع السعودي في منطقة الأحساء ومشيخات الخليج العربي وجنوب العراق ومنطقة الحجاز هو السبب في التوجه العثماني نحو الجزيرة العربية بدءاً من سواحلها على البحر الأحمر حتى سواحلها على الخليج العربي. وكان الهدف العثماني هو التخلص من هذه القوة العربية التي كان المأمول أن تسيطر على المنطقة العربية وتستخلصها من الحكم العثماني المتهاوي.

ومن ثم جاء تكليف محمد علي باشا بالتعامل مع هذه القوة العربية الفتية، ومن هنا وبهذا التكليف، قام محمد علي وأبناؤه طوسون وإبراهيم بما طلب منهم واستخلصوا الحجاز من آل سعود ثم غزوا نجد، ومن هناك جاء التوجه إلى منطقة الخليج العربي.

ومما يلاحظ أن التوجه الذي قاده محمد علي في الجزيرة العربية كان عثمانياً في التخطيط والتنفيذ والأهداف، ولم يكن لمصر البلد أو الشعب صلة بهذا التوجه سوى خروج الحملات العسكرية - العثمانية الصرفة - من أرض مصر وموانئها باتجاه الحجاز ونجد.

وكانت قيادة تلك الحملات تركية بل كان الضباط بل والجنود الذين شاركوا في هذه الحملات أتراكاً من الأرناؤوط والإنكشارية ممن تمردوا على محمد علي وأراد التخلص منهم.

ويؤيد ذلك تسمية هؤلاء الجند في كتب مؤرخي نجد باسم الترك والروم ولم يذكر

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى ص ٨٧ - ٨٨.

اسم المصريين^(١). ويذكر ابن عمر الفاخري في كتاب الأخبار النجدية في تاريخه لسنوات ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨١٥م وما بعدها ما نصه:

وفيها سار عسكر الترك الذي في الحناكية فقدموا (الرس) و(الخبر) واستوطنوهما بموافقة أهلها وملكو أطرافها وثبتت بقية القصيم... وفي عام ١٢٢٣هـ الموافق لعام ١٨١٧م فملكها - أي الدرعية - العسكر صبيحة اليوم السابع - من ذى القعدة - وبقي الطريف (مساكن آل سعود في الدرعية) فيه عبد الله بن سعود فحاربوا يومين ثم صالحوا وسلم عبد الله إلى الباشا إبراهيم بن محمد علي " وبقي عبد الله بعد ذلك يومين ثم سيره الباشا إلى مصر ثم إلى الروم وقتل هناك رحمه الله تعالى.

كما ذكر صاحب تحفة المستفيد أن الدولة التركية جمعت من آلات الحرب ومن المدافع والقنابل والذخائر والأموال عددًا كبيرًا من الجنود إلى الديار المصرية وأمرت محمد علي باشا والي مصر بحرب الإمام سعود.

ويذكر ابن بشر أنه في سنة ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١١م أجمع أمراء الروم على المسير للحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع والقنابل والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون إليه من الأموال والذخائر من الطعام وغيرها. فأجمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها إلى الشام ومصر والرئيس المقوم بهذا الأمر من جهة الروم صاحب محمد علي باشا، فسير هؤلاء العسكر برًا وبحرًا.

خطوات التوجه العثماني في الخليج:

على الرغم من سقوط الدرعية وانتهاء الدولة السعودية الأولى عام ١٢٢٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م، فإن التواجد السعودي ما لبث أن استعاد شيئًا من مكانته في نجد ومنطقة الخليج العربي، فقد قام الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الدخول إلى الدرعية عام ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨٢٠م، ثم الاستيلاء على الرياض واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة، واعترف بسيادة اسمية للدولة العثمانية، وقد ساعد ذلك على السيطرة على نجد وامتداد نفوذه إلى الخليج وفي عام ١٢٤٤هـ الموافق لعام ١٨٢٨م وصل إلى الرياض وفد من أهل عمان يطلب مساعدة عسكرية سعودية مقيمة في عمان وتعيين وال وقاض، وقد استجاب الأمير تركي لهذه المطالب فأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة كافية لينصب عبد الله بن سعود من (القوية) واليًا على

(١) عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ج١، ص ١١٧.

الاقليم، على أن يتخذ مركزه في البريمي وعين ذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجي قاضيًا، ولدى وصولهم الظاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر أخرى من (البطينة) الواقعة في المنطقة الساحلية من عمان بمظاهر الترحيب والتكريم.

وعندما قتل الأمير تركي عام ١٢٥٠هـ الموافق لعام ١٨٣٤م تولى زعامة آل سعود ابنه الأمير فيصل الذي ما لبث أن أثار شكوك محمد علي فبدأت الاشتباكات من جديد بين محمد علي و فيصل، وقرر محمد علي إرسال حملة عسكرية عام ١٢٥٢هـ الموافق لعام ١٨٣٦م، بقيادة إسماعيل أغا وأرسل معها الأمير خالد بن سعود الكبير شقيق الإمام عبد الله بن سعود.

كان الأمير خالد بن سعود ضمن آل سعود الذين رحلوا إلى مصر عقب تدمير الدرعية وأمه جارية حبشية فنشأ في كنف محمد علي وجاء يحكم نجد حكمًا عصريًا فنفر منه النجديون، ولكنه حاز رضا الأتراك ووالي مصر فاندفع يحاول استعادة نفوذ الدولة السعودية في الخليج، وأنها لحركة بارعة من محمد علي أن يشرك معه في مشروع الإغارة على نجد والامتداد إلى الخليج شخصًا يعتبره معظم النجديين الوارث الشرعي لأمجاد البيت الحاكم^(١).

ونتيجة لفشل حملة إسماعيل أغا ضد الأمير فيصل بن تركي أمر محمد علي واليه على الحجاز خورشيد باشا بأن يتوجه إلى نجد على رأس حملة عسكرية انتهت بقبول خورشيد باشا ما عرضه عليه فيصل بن تركي بأن يستلم نفسه بشرط أن يعفو القائد العثماني - خورشيد باشا - عن الأهالي ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم. وفي ٢٣ رمضان ١٢٥٤هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٣٨م سلم فيصل ما كان معه من عتاد الحرب إلى أهل الخرج، ثم سلم نفسه إلى خورشيد باشا الذي بر بوعده إذ عفا عن الأهالي كما أحسن معاملة الأمير فيصل فاستصحبه إلى مصر وولى مكانه خالد بن سعود الذي انفرد بزعامة آل سعود.

وقد أقام خورشيد باشا احتفالاً كبيراً بتصيب الأمير خالد بن سعود رئيساً للدولة السعودية، وخلع عليه ثوب الشرف، وأكد محمد علي للدول الأجنبية أن وجود قواته في الجزيرة العربية إنما هو بقصد ضمان حقوق الأمير خالد الشرعية في الحكم، وهذا لا ينفي أن خورشيد باشا تولى بنفسه إدارة شئون نجد وما وصل إليه نفوذ محمد علي في ساحل الخليج.

وعندما عادت الأحساء إلى سلطة الأمير خالد بن سعود ونفوذ محمد علي برحيل فيصل

(١) فيلبس (سنت جون) تعريب عمر الديراوى: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، ص ١٩٩.

بن تركي إلى مصر، أرسل خورشيد باشا إليها - إلى الأحساء - محمد أفندي لسن الضرائب وترتيب طرق الجباية التي لم تكن معروفة ولا مألوفة في تلك البلاد، واستمرت الحال على ذلك إلى شهر شعبان عام ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م^(١).

ورغم انتشار قوات خورشيد باشا في مواني القطيف وسيهات والعقير بساحل الخليج، فقد ظل الأمير خالد رئيساً للدولة السعودية حتى قام عبد الله بن الثيان وهو من أبناء عمومة الأمير خالد بن سعود بثورة ضد الأخير انتهت بالخلاص منه وقد وجد مساعدة من معظم أهالي نجد خاصة أنه أعلن بأن حكمه للبلاد سيكون نيابة عن الإمام فيصل بن تركي. ومن ثم انتهى الأمر بفرار خالد بن سعود من الرياض إلى الأحساء عام ١٢٥٧هـ الموافق لعام ١٨٤١م.

وقد ساعد على نجاح عبد الله بن الثيان انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية بناء على اتفاقية لندن لعام ١٢٥٦هـ الموافق لعام ١٨٤٠م وفي ذلك يذكر صاحب الأخبار النجدية، وفي سنة ١٢٥٦هـ سارت العساكر المصرية من نجد من (ثرمدا) والقصيم وارتحلوا شيئاً فشيئاً حتى ارتحل كبيرهم خورشيد باشا في ربيع الأول وبقي الأمر لخالد بن سعود. ثم نجاح الأمير فيصل بن تركي من العودة من مصر عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م إلى الرياض واعترافه بالسيادة الاسمية للأتراك.

ويستدعي حديثنا عن التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو الخليج العربي أن نتناول هذا التوجه في أجزاء الخليج الطبيعية المعروفة لنقف على المدى الذي وصل إليه هذا التوجه، وموقف عرب الخليج منه.

أولاً: الأحساء:

تطلع إبراهيم باشا بن محمد علي إلى إقليم الأحساء كمنفذ على الخليج العربي لإقليم نجد بعد أن سقطت الدرعية في يد قواته عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م، ومن ثم اعتمد على عدو سابق لآل سعود هو (رحمة بن جابر) وهو من الجلاهمة العتوب الذي يمارس مغامراته البحرية من خور حسان في قطر، في الاستيلاء على القطيف ميناء آل سعود في الأحساء في نظير مساعدة إبراهيم باشا له لكي يعود إلى الاستقرار في الدمام وفي إعادة بناء حصنه القديم الذي كان آل سعود قد دمروه ولكن تطلعات إبراهيم باشا تقلصت في عنيزة بوسط شبه الجزيرة العربية، مع الاعتماد على شيوخ بني خالد أعداء آل سعود

(١) محمد عبد الله الأنصاري: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد القسم الأول ص ١٥٤.

للحصول على أموال الزكاة من قبائل الأحساء.

وفي عام ١٢٥١هـ - لعام ١٨٣٥م عاد التوجه العثماني من خلال محمد علي وأبنائه إلى الأحساء، وتمثلت هذه العودة في وصول (عبد الله بن مشاري) التاجر البحريني إلى المنطقة حاملاً رسائل من أحمد باشا حاكم الحجاز من قبل محمد علي إلى كل من سلطان عمان وشيخ البحرين وأمير الوهابيين (السعوديين). من أجل مساعدته باسم محمد علي على جمع الزكاة، ورغم أن هذا المبعوث لقي الترحيب والمساعدة من سلطان عمان فإنه ما لبث أن اختفى من القطيف أمام تقدم قوات فيصل بن تركي أمير آل سعود الجديد التي وصلت الإقليم^(١). ولكن خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد قرر، بعد أن استقر له الوضع في الخرج واتخذ من (ثرمداء) قاعدة له، أن يبدأ في تحقيق سياسة محمد علي بالسيطرة على مناطق شرقي شبه الجزيرة العربية بدءاً بالأحساء بما في ذلك الكويت والعراق؛ كي تلتحم هذه المناطق ببلاد الشام لتصبح وحدة تحت سيطرة محمد علي. وقد تمكن خورشيد باشا من تنظيم أمور الأحساء الإدارية تحت حماية جانب من قواته عسكرياً في كل من الهفوف والقطيف وسيهات والعقير، وهي أهم مدن وموانئ الأحساء وعن محمد رفعت أفندي حاكماً على الأحساء واتخذ من مدينة الهفوف مقراً ومركزاً يباشر منه حكمه. ومن ذلك أن خورشيد أعطى الأمان لعمر بن عفيصان ورؤساء الأحساء وأمرهم بالقدوم إليه ويحفظون بيت المال وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم وذلك في شهر شوال ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨م وبعد رحيل أهل الأحساء عين خورشيد باشا أحمد بن محمد السديري أميراً على الأحساء ومعه من العسكر مائة وثلاثون خيلاً رئيسهم رجل من المغاربة يقال له (أبو خزام) ثم أرسل خورشيد بعد ذلك بحوالي شهر إلى الأحساء خمسين رجلاً من العسكر والعرب رئيسهم رجل من المغاربة اسمه (محمد الفاخري).

وأما محمد أفندي رفعت فقد كان مبعوث خورشيد باشا إلى البحرين وفارس، حيث حمل رسائل إلى آل خليفة بالبحرين، ثم انتقل إلى فارس لشراء مواد غذائية (بروشعير وغير ذلك) إلى القوات المتمركزة بالأحساء، وعند عودته من البحرين - بعد اتفاهه مع آل خليفة عينه خورشيد باشا أميراً على الأحساء بدلاً من أحمد بن محمد السديري الذي أوكل إليه بيت المال ويعلق عثمان بن بشر على ذلك بقوله (هذه عادة ولاية الترك: أولها مطر وآخرها برد وصواعق)^(٢).

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٤٣٥.

(٢) عثمان بن بشر: المرجع السابق.

ولكن محمد أفندي رفعت أساء استخدام سلطاته في الأحساء؛ حتى دبروا له مقتلة في غزة شعبان ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م، ولما بلغ الخبر إلى خورشيد باشا جزع عليه جزعاً شديداً وأمر أفندي عنده اسمه محمد شرمي وجهازه معه عسكر وأرسل بدله، ثم جهز بعدهم عسكراً آخر فجلسوا بعسكرهم في الأحساء.

وقد ظلت الأحساء تحت سيطرة قوات محمد علي بفضل التنظيم الذي وضعه محمد أفندي رفعت للإقليم وخاصة القطيف لقربها من جزر البحرين ولصلاحيه ميناها للملاحة، ومن ثم بدأ محمد رفعت وبأوامر من خورشيد باشا يخطط لتنفيذ المرحلة الثانية من سياسته الرامية للتوجه إلى البحرين. ولم يوقف هذا التخطيط سوى انسحاب قوات محمد علي لا من الأحساء فقط بل ومن شبه الجزيرة العربية نتيجة لاتفاقية لندن لعام ١٨٤١م.

وعند انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية من الأحساء ونجد خاصة دعمت الأمير السعودي خالد بن سعود - الموالي لمحمد علي - ببعض الضباط الذين أسهموا في تدريب قوة عسكرية منظمة بلغت ٨٠٠ جندي تحت إمرة خالد، ولكن هذا الأمير لم يستطع الصمود طويلاً بعد انسحاب قوات محمد علي حيث فر من الرياض أمام تقدم عبد الله بن ثيان^(١).

ثانياً: البحرين:

ترتبط البحرين بإقليم الأحساء ارتباطاً وثيقاً، ومن ثم لا نعجب أن يكون من مخططات خورشيد باشا مد نفوذ محمد علي باشا إلى البحرين عبر الأحساء وكان آل خليفة زعماء جزر البحرين، وكان على رأسهم في سنوات تخطيط خورشيد وخاصة بين سنتي ١٢٥٤ - ١٢٥٦هـ / ١٨٣٨ - ١٨٤٠م الشيخ عبد الله آل خليفة.

جاءت علاقات خورشيد باشا مع الشيخ عبد الله آل خليفة عن طريق حاكم الأحساء ووكيل الباشا هناك محمد أفندي رفعت، والذي زار جزر البحرين مبعوثاً من خورشيد باشا في غزة ذي الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م، وقدم تقريراً حمل تاريخ ٨ ذي الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م أوضح فيه أن البحرين ذات أهمية قصوى لاستقرار الأحوال في الأحساء والقطيف، فميناؤها هو الميناء الوحيد ذو الأهمية في المنطقة ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء للأحساء والقطيف وسبباً في رواج المنطقة اقتصادياً.

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٤٢٨.

وعندما رأى الشيخ عبد الله نجاح قوات محمد علي في شبه الجزيرة العربية وتوجه خورشيد باشا إلى جعل البحرين منطقة نفوذ لدولة محمد علي، ومحاولة سلطان عمان ضم البحرين إلى سلطنته بطريقة مباشرة أو لحساب محمد علي كأسلوب غير مباشر، لجأ الشيخ عبد الله إلى الإنجليز في الهند ومقيمهم العام في منطقة الخليج لحمايته من هذه الأطماع.

ولما لم يجد الشيخ عبد الله من حكومة الهند البريطانية وممثلها المقيم العام في الخليج كابتن هينيل أية استجابة عملية حتى شهر المحرم ١٢٥٥هـ الموافق مارس ١٨٣٩م فيما عدا ما يصرح به الإنجليز عن عدم رضاهم عن تطلعات محمد علي في الخليج، اتجه الشيخ عبد الله إلى طلب الحماية من حكومة فارس.

ولما كان للفرس مطامعهم الخاصة في البحرين ومطالبهم المالية نظير وجود مبعوث فارسي هناك، ولما كان الشيخ عبد الله آل خليفة يعاني مصاعب داخلية فإنه استقبل محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا في عام ١٢٥٥هـ الموافق مايو ١٨٣٩م مزوداً بتعليمات من خورشيد وواضعاً في الاعتبار أهمية البحرين لاستقرار منطقة الأحساء بل ونجد أيضاً إلى جانب رواج الناحية الاقتصادية في هذه المناطق وواضعاً في الاعتبار أيضاً مطامع الإنجليز ومواقعهم المعادية لمشروعات محمد علي وكذلك مطامع حكام فارس وسلطنة عمان.

وبعد مفاوضات بين محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا والشيخ عبد الله حول وضع البحرين وعلاقتها في المستقبل مع دولة محمد علي، تم الاتفاق بين الطرفين ينص على تعهد حكومة محمد علي بتأييد ومساندة الشيخ عبد الله آل خليفة في حكم جزر البحرين مقابل أن يقدم زكاة تقدر بألفي (روبية) سنوياً وبعض السفن لمساعدة قوات محمد علي العسكرية علي الانتقال إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر إلى ذلك، واشترط الشيخ عبد الله أن تبقى السلطة الداخلية في الجزر كلها بين يديه، وألا يرسل خورشيد باشا ممثلاً له يقيم في البحرين.

وقد كتب الشيخ عبد الله آل خليفة رسالة إلى خورشيد باشا عقب توقيعه للاتفاقية مع محمد أفندي رفعت بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٢٥٥هـ الموافق ٨ مايو عام ١٨٣٩م يؤكد فيها التزامه بما جاء في نصها بأن (نعادي من عاداكم ونوالي من والاكم وأنتم كذلك، ونؤدي لجنابكم الزكاة. صار حالنا معكم حال واحد).

ومما يلاحظ أن الاتفاقية بنصها على عدم إرسال مبعوث يمثل محمد علي مقيم في البحرين وترك أمورها الداخلية بيد شيخها، تنفي الاتهامات البريطانية باتجاه تطلعات

محمد علي استعمار البحرين وإرسال قوات عسكرية؛ لاحتلال تلك الجزر لحساب محمد علي، وهو أمر كان بعيد الاحتمال، لأن أي هجوم على الجزر في رأي لوريمر يعتبر خطيراً في جرأته، وكان احتمال أن تقوم به قوات محمد علي احتمالاً ضئيلاً^(١).

وقد تعرض اتفاق الشيخ عبد الله آل خليفة مع خورشيد باشا لاتتقادات عنيفة من جانب حكومة الهند البريطانية التي لم تسمح بنجاح أية محاولة عثمانية أو فارسية تهدف إلى فرض السيادة على البحرين محتجة في ذلك بمعاهدة عام ٢٣٥ هـ / ١٨٢٠م التي جعلت البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات.

والتي ما إن أعلن عن الاتفاقية حتى وجهت الإنذارات ومارست الضغوط ضد الشيخ عبد الله الذي حاول تبرير موقفه بأنه لم يتلقى تأكيدات بريطانية عندما طلبها، وبأن هذا الاتفاق مقرر قبل التوقيع بزمن طويل، وبأن هذا الاتفاق ليس موجهاً ضد الحكومة أو المصالح البريطانية^(٢).

وقد وصل الكابتن (هينيل) المقيم العام البريطاني في الخليج إلى البحرين في ١٥ جمادى آخر ١٢٥٥ هـ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٣٩م وسلم للشيخ عبد الله آل خليفة احتجاجاً علي هذه الاتفاقية، ولم يقبل أبداً تبريرات الشيخ عبد الله، وكان قد سبق للكابتن هينيل تقديم إنذار إلى خورشيد باشا في أول أبريل يحذره من الامتداد عسكرياً إلى جزر البحرين. ولما لم ينجح هينيل في إقناع الشيخ عبد الله بنقضه اتفاقه مع خورشيد باشا، كما لم ينجح كذلك احتجاجه الذي قدمه لخورشيد باشا في فض عرى هذا الاتفاق، وعندما ظل الشيخ عبد الله صامداً أمام تهديدات الإنجليز إلى أن انسحبت قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية نتيجة لمعاهدة لندن لعام ١٨٤٠م ففقد بذلك سنداً في مقاومة تهديدات ومؤامرات الإنجليز.

وعندما حدث كل ذلك اجتمعت اللجنة السرية لمديرى شركة الهند الشرقية البريطانية وبحثت إمكانية استبدال الشيخ عبد الله آل خليفة بشيخ آخر أكثر استعداداً للتفاهم مع الإنجليز. ومن ثم لا نعجب أن نسمع اضطرابات وفتن في البحرين منذ عام ١٨٤٠م لا تهدأ إلا بعزل الشيخ عبد الله من حكم البحرين عام ١٢٥٩ هـ الموافق لعام ١٨٤٣م، أي بعد أن حققت المؤامرات البريطانية أهدافها.

وفي ذلك يقول عثمان بن بشر: وفي جمادى الأولى ١٢٥٨ هـ الموافق ١٨٤٢م وقع بين عبد

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٣٠٨.

(٢) د. رافت الشيخ: العرب، دراسات في التاريخ الحديث المعاصر ص ٨٧.

الله بن أحمد بن خليفة صاحب البحرين وابن أخيه اختلاف، ثم وقع بينهم الحرب العظيم من قتل الرجال ونهب الأموال وسبي النساء والأطفال، واستلحق عبد الله عريان آل مرة ونهبوا البحرين، ثم هرب محمد بن خليفة من البحرين لما أجهضته الحرب وقتل كثير من رجاله.

ثالثاً الكويت والعراق:

جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي إلى الكويت في إطار نفس التوجه إلى بقية مشيخات الخليج العربي وخاصة البحرين، حيث سعى خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد أن يرتبط مع الشيخ جابر آل صباح حاكم الكويت باتفاق يؤمن لقوات خورشيد الحصول على المؤن والعتاد باستخدام سفن الكويت، وفي الوقت نفسه التطلع من هناك إلى جنوب العراق.

وعلى هذا فقد سجلت المصادر المعاصرة أن خورشيد بعث وكيلاً له يدعي محمد أفندي إلى الشيخ جابر آل صباح توصل إلى اتفاقية شبيهة بالاتفاق الذي عقد بين محمد رفعت والشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين، يقضي هذا الاتفاق بدفع زكاة لخورشيد باشا وتقديم التسهيلات في مياه وموانئ الكويت لقوات خورشيد وخاصة استخدام السفن الكويتية لنقل الأسلحة إلى ميناء القطيف بالأحساء حيث تتواجد قوات خورشيد، وهذا في نظير عدم تدخل خورشيد باشا في الأمور الداخلية بالكويت وعدم وجود مبعوث لخورشيد مقيم بالكويت.

ونتيجة لهذه الاتفاقية استطاع محمد أفندي أثناء وجوده بالكويت أن يرسل من هناك عدة سفن محملة بالأغذية وخاصة الشعير، كما استطاع أن يجمع معلومات عن الكويت والجنوب العراقي المطل على الخليج، كما استطاع هذا المبعوث أن يحصل على تقدير حاكم الكويت حتى أنه كان يأخذ مكان الصدارة في مجالس الشيخ جابر آل صباح. كما استخدمت قوات خورشيد المتواجدة بالأحساء سفن الأسطول الكويتي الكبير والمجهز تجهيزاً جيداً في نقل شحنة من الأسلحة والأعتدة العسكرية من ميناء الحديد باليمن إلى ميناء القطيف بالأحساء في نوفمبر ١٨٣٩م^(١).

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التقارب بين الشيخ جابر آل صباح ورجال محمد علي باشا على العلاقة بين الكويت وحكومة الهند البريطانية، فيروي لنا لوريمر أن حاكم الكويت الشيخ جابر استقبل مبعوثاً بريطانياً في نوفمبر ١٨٣٩م بطريقة غير لائقة وغير متوقعة، ويبرر لوريمر تصرف حاكم الكويت بأنه حدث بسبب فزع الشيخ جابر من نجاح

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق ص ٩٠.

قوات محمد علي في الجزيرة العربية، وقد تناسى لوريمر أن محمد علي كان آنذاك يعيش أزمة دولية ولم يكن في مخططاته القيام بعمليات عسكرية ضد حاكم الكويت أو أية مشيخة في ساحل الخليج^(١). ورغم استياء حكومة الهند البريطانية من استقبال الشيخ جابر آل صباح لمبعوث خورشيد باشا المدعو محمد أفندي منذ عام ١٨٣٨م، وأنه لم يستقبل الملازم (إدموندز) مساعد المقيم العام البريطاني في الخليج الاستقبال الودي المعهود عندما وصل إلى الكويت في نوفمبر عام ١٨٣٩م كما ذكرنا، فإن البريطانيين لم يوجهوا إنذاراً لشيخ الكويت على غرار الإنذارات البريطانية لحاكم الشارقة وشيخ البحرين، بل التمسوا له العذر بأن مسلكه مع (إدموندز) لم يكن صادراً عن نوايا سيئة نحو البريطانيين لكنه كان يهدف إلى خداع مبعوث خورشيد عن حقيقة العلاقة القائمة بينه وبين السلطات البريطانية.

وقد ظل التعاون بين الشيخ جابر آل صباح ومبعوث خورشيد باشا رغم معارضة السلطات البريطانية في الخليج، بل تروي الوثائق أن الشيخ جابر قدم التسهيلات اللازمة للقوات العثمانية التي هربت من البصرة تحت قيادة (محمود أغا المورة) وأرادت الالتحاق بقوات خورشيد باشا في نجد، حيث أركب هذه القوات سفينة وصلت بها الأحساء ورفض طلب سلطات البصرة في إلقاء القبض على هؤلاء الهاربين وإعادتهم إليها.

وبالنسبة للعراق فقد جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي مختلفاً حيث جاء اتجاه أنظار محمد علي إلى العراق عندما حدث الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية، ومن ثم أراد محمد علي أن يستكمل سيطرته على منطقة الهلال الخصيب بضم العراق بعد أن نجح في ضم كل بلاد الشام، وبعد أن سيطرت قواته على معظم شبه الجزيرة العربية وامتد نفوذه إلى بعض مشيخات الخليج العربي.

ولذلك عندما كانت قوات محمد علي قد استقرت في بلاد الشام سادت العراق بعض القلاقل والاضطرابات، وانتهز محمد علي فرصة هذه الاضطرابات ومارس ضغوطاً من سوريا للوصول إلى العراق بأن أخذ يساند القبائل العربية الثائرة في جنوب العراق ضد الباشوات العثمانيين من أجل ضم العراق إلى الكتلة العربية التي حرص علي إقامتها في المنطقة^(٢).

ورغم اهتمام خورشيد باشا بضرورة غزو جنوب العراق والاستيلاء على البصرة لتأمين قواته في الأحساء ونفوذ محمد علي في البحرين والكويت، والحصول على المؤن والإمدادات

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٥١٤.

(٢) د. رافت غنيمي الشبخ: في تاريخ العرب الحديث، ص ٧٠.

اللازمة لقواته ، فإن مناداته ليأذن له محمد علي في التقدم بقواته لغزو البصرة جاءت في وقت كان الموقف البريطاني بصفة خاصة والدولى بصفة عامة معادياً لمشروعات محمد علي التوسعية ، وهذا يفسر اهتمام وزارة الخارجية البريطانية التي كان على رأسها اللورد (بلمرستون) الذي ظهرت معارضته لمشروعات محمد علي في الخليج العربي وخاصة في الفترة من عام ١٨٣٨م إلى عام ١٨٤٠م.

رابعاً: قطر:

تقع شبه جزيرة قطر في وسط الخليج العربي ، وتسكنها عدة قبائل منها ، بني النعيم وقبائل البوكواره ، وكانت قبائل بني نعيم تعارض امتداد نفوذ محمد علي وجاءت هذه المعارضة لأن رجال محمد علي اعتمدوا على سعد بن مطلق المطيري في امتداد نفوذ محمد علي ، وسعد بن مطلق عدو لقبائل بني النعيم ومقرهم الرئيسي واحة البريمي . وعندما رفضت بعض عشائر بني النعيم دفع الزكاة التي طلبها منهم الشيخ عبد الله آل خليفة لحساب قوات محمد في الخليج في أوائل عام ١٨٤٠ أرسل محمد أفندي رفعت حاكم الأحساء بعض القوات النظامية يعاونها بدو (المخضبة) من بني هاجر لإحضار قبائل بني النعيم ، ولكن مصرع محمد أفندي رفعت في الأحساء بالقرب من الهفوف قد أوقف هذه الإجراءات^(١).

وبالنسبة لقبائل (البوكواره) فقد كانوا يقيمون بمدينة (الفويرط) كغيرهم من القبائل التي تسكن شبه الجزيرة القطرية كانوا يدفعون الزكاة للشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين لحساب قوات محمد علي في المنطقة ، ولكن عندما اشتد جباة شيخ البحرين عليهم في جمع الزكاة تحولت قبائل (البوكواره) للبحث عن حماية لهم من هذا العسف المحسوب على محمد علي ، وكان طبيعياً أن يتقدم الإنجليز بهذه الحماية .

وهكذا لم تدخل قوات خورشيد باشا الأرض القطرية ، كما لم يكن هناك مبعوث خاص من خورشيد باشا إلى قطر نظراً ؛ لأنه لم تكن قد تكونت بها وحدة وطنية تحت زعامة واحدة ، حيث كانت قطر تعيش في ظل انقسامات قبلية ، تخضع بعض القبائل القطرية للبحرين ، والبعض الآخر يخضع لآل سعود . وغير هؤلاء وهؤلاء قبائل لا تدين بالولاء لأحد .

خامساً: سلطنة عمان والساحل العماني:

حكم محمد علي مصر اعتباراً من شهر مايو عام ١٨٠٥م عندما صدر له أول فرمان

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٢٠٧ .

سلطاني، ثم صدر له في عام ١٨٠٦م ما عرف بفرمان التثبيت من سلطان الدولة العثمانية، وفي نفس هذا العام الأخير تولى سعيد بن سلطان البوسعيدي حكم سلطنة عمان مسقط، وفي الوقت الذي أتجه فيه محمد علي بأنظاره إلى مشيخات الخليج العربي أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كان سعيد بن سلطان يتجه لبناء ملك له ولأسرته في ساحل الزنج (زنجبار) بشرق إفريقيا.....

ورغم أن المراسلات بين الرجلين محمد علي وسعيد بن سلطان كانت قليلة، ولم يحدث لقاء بينهما، فإنه كان هناك تعاون محدود في عدة مجالات كاستعانة سعيد بن سلطان ببعض الخبرات العسكرية من مصر للخدمة في مسقط وعدم اصطدام مطامع الطرفين بالنسبة للبحرين موضع اهتمام كل منهما، ومهادنة سعيد بن سلطان لآل سعود واستخدام محمد علي لبعض أمراء آل سعود وبعض رجالهم لتحقيق مطامحه.

وقد اعتمد خورشيد باشا في تحقيق مطامع محمد علي على رجل السعوديين هناك سعد بن مطلق المطيري والذي يعمل باسم خالد بن سعود أمير الدولة السعودية المشمولة بحماية ونفوذ باشا مصر. وقد حمل سعد بن مطلق رسائل إلى زعماء ساحل عمان وإلى سلطان مسقط بهدف تقديم الزكاة والاعتراف بنفوذ آل سعود بالتعاون مع خورشيد باشا.

ولكن سعيد بن سلطان رغم أنه أظهر رغبة في السيطرة على البحرين ومال إلى تنسيق سياسته مع سياسة والي مصر محمد علي في الجزيرة العربية إلا أنه تراجع عن ذلك بسبب موقف العداء الذي أظهرته السلطات البريطانية نحو تواجد قوات محمد علي في منطقة الخليج العربي وعندما أيقن من موقف بريطانيا المعادي لنفوذ محمد علي في شرقي الجزيرة العربية أخذ موقفها وبالنسبة للساحل العماني فقد سعى سعد بن مطلق المطيري من مقر أقامته بواحة البريمي أن يمد نفوذ خالد بن سعود المشمول بحماية قوات محمد علي إلى مناطق الساحل العماني خاصة أبو ظبي والشارقة ورأس الخيمة وقد رحبت مشيخات القواسم في الشارقة ورأس الخيمة بسعد بن مطلق كنائب عن والي مصر لأنها كانت تميل منذ عهد الدولة السعودية الأولى إلى الدعوة الوهابية^(١).

وتبعاً لذلك فقد سمح الشيخ سلطان بن صقر القاسمي حاكم الشارقة لسعد بن مطلق المطيري أن يقيم في الشارقة بعد وصوله إليها في مارس عام ١٨٣٩م وقد وضع الشيخ سلطان تحت إمرته بيتاً حصيناً وقلعة ليقوم فيها.

(١) د. صلاح العقاد: مرجع سابق ص ١٢٨.

ومن الشارقة أخذ سعد بن مطلق المطيري يباشر نشاطه لخدمة أهداف محمد علي في منطقة الخليج فاستطاع عقد تحالف مع الشيخ خليفة حاكم أبوظبي الذي رحب بالتعاون مع رجال محمد علي رغم معارضته السابقة لتقدم السعوديين إلى البريمي.

ومن الشارقة أيضاً حاول سعد بن مطلق المطيري استخدام وساطة حاكم الشارقة الشيخ سلطان لفتح صفحة جديدة مع قبائل (بني النعيم) في البريمي لينضموا إلى منطقة نفوذ محمد علي، ولكن بسبب وجود خلافات شخصية بين بني النعيم وبين سعد بن مطلق الذي اتهمهم بقتل والده - مطلق المطيري - لم تنجح الوساطة واستند بني النعيم على تأييد الإنجليز في وقوفهم ضد نفوذ محمد علي الذي يسعى نشره عدوهم سعد بن مطلق^(١).

وكان لأسلوب سعد بن مطلق في إنذار القبائل التي ترفض الأنصياح لأوامره نتائج واضحة في فشل مهمته في منطقة الساحل العماني ذلك إن الإنجليز تدخلوا لحماية قبائل بني النعيم وغيرها لحمايتها من تهديدات سعد بن مطلق فقد قام (ميتلاند) قائد عام البحرية البريطانية في الخليج بزيارة للساحل العماني المتصالح في فبراير عام ١٨٣٩م وحصل على تعهدات من شيوخ قبائل الساحل بعدم إقامة أية علاقات ودية مع مبعوث قوات محمد علي (سعد بن مطلق).

كما أن المقيم العام البريطاني في الخليج العربي الكابتن (هينيل) زار ساحل عمان في يوليو ١٨٣٩م، وأدرك أن شيوخ أبوظبي ودبي وأم القوين والشارقة يميلون إلى التعاون مع محمد علي وحصل على تعهدات خطية من شيوخ أبوظبي ودبي وأم القوين والشارقة وحاكمها سلطان بن صقر القاسمي الذي كان أكبر ميلاً للتعاون مع مصر محمد علي، كما حصل على تأييد السياسة البريطانية الرامية إلى الأنفراد بالنفوذ في الخليج العربي ومعاربة التوجه العثماني باسم محمد علي.

ونظراً لتخوف (هينيل) من سلطان بن صقر القاسمي من أن ينقلب لمناصرة نفوذ محمد علي فقد كبله بشروط أخرى أكثر صرامة، كعدم إجراء أية علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد علي باشا والى مصر أو أنصاره أو أية قوة أجنبية أخرى قبل موافقة الحكومة البريطانية. كما أظهر استعداد إنجلترا لحماية هذه المشيخة وغيرها وإمدادها بالأسلحة والذخائر بشرط استخدامها ضد تقدم قوات محمد علي، وكل ذلك دليل على خشية الإنجليز من الخطر المصري المزعوم في الجزيرة العربية.

وقد نجح الكابتن (هينيل) في ذو القعدة ١٢٥٥هـ الموافق يناير ١٨٤٠م في إقناع شيوخ

(١) د. رأفت الشيخ: العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٨٤.

الظواهر بالتجمع في تحالف دفاعي مع الشوامس وآل نعيم وجميع القوى المحلية في المنطقة، كما نجح في تصفية الخلافات فيما بينهما لتتفرغ للوقوف ضد سعد بن مطلق وسادته من آل سعود وياشا مصر، وعندئذ أدرك سعد بن مطلق المطيري أنه لا قبل له على مواجهة الموقف، فأرسل إلى خورشيد يخطره بحقيقة الموقف، ويخطره بأنسحابه إلى الأحساء ولم ينتظر وصول الأمدادات التي طلبها والتي كان خورشيد قد أعدها فعلاً لإرسالها لتحقيق أهدافه في ساحل عمان. وهكذا بدأ التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته في الجزيرة العربية بناء على طلب الدولة العثمانية خلال عشرين سنة تقريباً من ١٢٢٦ - ١٢٤٧ هـ الموافق لأعوام ١٨١١م - ١٨٢١م، عندما بدأ الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية علي أرض الشام، ومن ثم بدأ توجه محمد علي في الجزيرة العربية وفي ساحل الخليج العربي يأخذ اتجاهاً شخصياً لتحقيق أهداف محمد علي لحساب ملكه هو لا ملك الدولة العثمانية والسلطان العثماني وكان يمكن أن يقدر لتوجه محمد علي في الجزيرة العربية أن يستمر لولا موقف انجلترا بصفة خاصة والتي سعت حتى أنهت على كثير من مناطق سيطرته فانسحبت قواته من الشام ومن كل شبه الجزيرة العربية بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠م.

الفصل الخامس

مدحت باشا

نشأته وأفكاره الإصلاحية.

الفكر الاستراتيجي عند مدحت باشا.

مدحت باشا في العراق:

أعمال مدحت باشا في العراق.

حملة مدحت باشا على الأحساء.

مدحت باشا نشأته وأفكاره الإصلاحية

ولد مدحت باشا في اسطنبول في شهر صفر سنة ١٢٣٨ هـ الموافق ١٨٢٢ م، والده القاضي الحاج حافظ محمد أشرف، وقد سماه والده اسماً تغير فيما بعد. كان الاسم الذي سمي به هو أحمد شفيق، وقد حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة، فصار اسمه بعد ذلك حافظ شفيق، وقد تعلم مبادئ الإنشاد، فأدخله عاكف باشا رئيس الكتاب وناظر الخارجية إلى الديوان الهمايوني فتعلم الخط الهمايوني المخصوص بهذا القلم في ستة أشهر. وكيف أصبح اسم أحمد شفيق أو حافظ شفيق إلى اسم مدحت؟

لقد كانت العادة المتبعة بالنسبة للذين يتخرجون من الديوان الهمايوني بتوسيم المتخرج باسم خاص، فسمي حافظ شفيق باسم مدحت الذي غلب على الاسم القديم من عام ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨٣٤ م، وقد درس مدحت العلوم العربية والدين الإسلامي واللغة العربية واللغة الفارسية في مسجد الفاتح باسطنبول وغيره من الجوامع، إلى جانب النحو والمنطق والفقه والحكمة^(١). وقد شغل مدحت عدة وظائف في الحكومة، كان منها وظيفة في قلم مكتوبجي الصدارة، ووظيفة رفيق لكاتب تحريرات الشام، وفي عام ١٢٦١ هـ الموافق ١٨٤٥ م، عين كاتباً لديوان سامى باشا بولاية قونية، وقد حصل في عام ١٢٥٩ هـ الموافق ١٨٤٣ م على رتبة خوجة وتدرج في الوظائف وترقى بها حتى صار عام ١٢٦٧ هـ الموافق لعام ١٨٥٠ م رئيساً للخلفاء وهي رتبة التمايز، وقد عينه الصدر الأعظم في عام ١٢٦٩ م الموافق لعام ١٨٥٢ م رئيساً لمجلس "الوالا" فأثبت في هذه الوظيفة كفاءته وحبذه رشيد باشا، وعالى باشا، ورشدى باشا، وأمثالهم من أقطاب الدولة ووزرائها.

وقد لاقى مدحت العنف من بعض المسئولين مثل محمد باشا القبرصلى الذي تعين في منصب الصدر الأعظم عام ١٢٧٠ هـ الموافق ١٨٥٣ م، فأبعد مدحت إلى البلقان لمواجهة عصابات الأشقياء التى ملأت ولايات الرومىلى، ثم عاد إلى اسطنبول بعد عزل الصدر الأعظم محمد باشا القبرصلى وتعيين رشيد باشا ومع ذلك وجهت إليه اتهامات كاذبة أثبتت التحقيقات براءته منها.

وبعد ثبوت براءة مدحت أفندى تم تكليفه بالتحقيق في مخالفات بعض الولايات العثمانية، سواء في حلب، والبلغار، ونجح مدحت في تحقيق الأمن والاستقرار في تلك

(١) يوسف كمال بك حتاتة، ود. صديق الدماوجى: مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٢ م، ص ٩ - ١٠.

البلاد بعد إزالة المظالم التي اشتكى منها الأهالي وتحقيق العدالة. وقد لقي التقدير من الوزراء، مما أثار عداة البعض من الوزراء ضد مدحت، مما أثر في نشاط مدحت أفندي وثبط همته، وتوفي رشيد باشا وتأثر مدحت أفندي لوفاته أيضاً وعزم على السياحة في أوروبا عام ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧م. وقد تعلم اللغة الفرنسية أثناء زيارته لباريس ثم زار لندن وفرنسا وبلجيكا. ووقف على أسرار ترقى الأوربيين وتقدمهم. ثم عاد إلى اسطنبول وترقى رئيساً لمجلس "الوالا". وفي عام ١٢٧٧هـ الموافق ١٨٦٠م طلب محمد باشا القبرصلي الذي عاد صدرًا أعظم من السلطان عبد المجيد توجيه رتبة الوزارة لمدحت أفندي وعين والياً لولاية "نيس" وكانت هذه بادرة من الصدر الأعظم طيبة تجاه مدحت، وقد أصدر السلطان القرار المطلوب. وقد نجح مدحت في وظيفته نجاحاً كبيراً حيث أفضل إلى حد كبير دسائس روسيا في بلاد البلغار وغيرها من بلاد البلقان.

وفي عهد السلطان عبد العزيز (سنه ١٨٦١، ١٨٧٦م) توالى على الدولة المشاكل الخارجية والدخلية وقد أستعان السلطان عبد العزيز برجله محمود نديم باشا صدرًا أعظم. وكان الناس يعززون إلى محمود نديم باشا المساوي والمظالم التي يعيشون فيها، وكان السلطان يؤيده مما دفع الناس إلى المطالبة بخلع السلطان عبد العزيز لإنهاء استبداده وبسبب مساوي حكم الصدر الأعظم، وفي نفس الوقت اشتعلت الثورات ضد الحكم العثماني في كل من أدرنة والبوسنة والهرسك والبلغار. أين مدحت باشا في خلال هذه الأحداث؟ عندما ثارت ثائرة الناس ضد محمود نديم باشا لجأ إلى الفرار فصدر قرار السلطان عبد العزيز بعزله وتعيين رشدي باشا الكبير صدرًا أعظم وصدرت إرادة سلطانية أيضاً تقضي بإحضار حسين عوني باشا من مدينة "بروسة" وتعيينه بوظيفة سر عسكر وتعين مدحت باشا في الوزارة بوظيفة عضو في المجالس العالية ومع ذلك فإن السلطان عبد العزيز في السنين الثلاث الأخيرة لم يسمع نصيحة مخلص ومن هنا انتشرت الشائعات بعزم الأمة على خلع السلطان عبد العزيز فأرسلت والدته "جوهرأغا" إلى مدحت باشا تطلب منه المشورة.

كانت تلك الاستعانة من أم السلطان عبد العزيز دافعاً لمدحت باشا لكي يقدم أفكاره الإصلاحية. فأسرع بكتابة لائحة ضمنها الأسباب التي أوقعت الدولة في مأزق الأزمات، وختمها بوجوب إصدار قانون يكفل للأمة حق المساواة ويجعل النظار مسئولين عن أعمالهم لتلافي وقوع الثورة، ولكن السلطان عبد العزيز رفض هذه الأفكار، مما جعل كلاً من مدحت باشا، وحسين عوني باشا ورشدي باشا وخير الله أفندي على أحضار ولي العهد في التاسع من شهر جمادى الأولى عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م إلى الباب الهمايوني لإجلاس

على العرش. باسم السلطان مراد ، وقد انتحر عبد العزيز في اليوم السادس لخلعه وكانت فرصة مدحت ورفاقه من الاصلاحيين لتخليص الدولة من أزمته واتخاذ مسلك ثابت للإدارة والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الثورة بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها أفراد الأمة أحرارًا متساويين. ويذكر مدحت أن هذه المسألة قد ارتسمت في فكري حين كنت واليًا على "الطونة" فكتبت قانونًا موافقًا لروح العصر، وحان وقت العمل به وقد جلس السلطان على كرسي أجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية فزاد أنتشار فكرة الثورة بين الأحرار، وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب أخراة لإعلان الشورى.

ويضيف مدحت باشا بأن خطبة السلطان الجديد (مراد) ذكرنا فيها أن الحكومة تفكر في احلال الشوري محل الاستبداد وإن أفراد الدولة العلية سيتساوون في الحكومة الدستورية. والدستور يعلنه الملوك، ولكن السلطان (مراد) قد أصيب بمرض خطير، فلم نتمكن من إعلان الدستور، ورغمًا عن كل هذا فقد اشتغل موظفو الحكومة بالتخلص من الكوارث الداخلية والخارجية، وكنا نعلم أن الخلاص من المشاكل متوقف علي وضع القوانين الدستورية. وقد انتهزت فرصة اجتماعنا في الباب العالي الوزراء وعدد من العلماء فأخرجت من جيبى صورة القانون الأساسي وعرضتها عليهم فقرروا باتفاق الآراء تبديل بعض مواده وجعلها موافقة لروح العصر وإنابة أمر تبديلها بلجنة تكون تحت رئاستي. وكان بعض أعضاء البيت المالك حاضرين فأعطينا لكل واحد منهم صورة من هذا القانون^(١).

وفي يوم الخميس الموافق للحادي عشر من شهر شعبان عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م قرر النظار والعلماء بالاتفاق معًا تولية عبد الحميد عرش الخلافة والسلطنة باعتباره كان وليًا للعهد للسلطان مراد ، وقد رحب عبد الحميد الثاني بالقانون الأساسي "الدستور" وأعلن أن تخليص الدولة من مشاكلها يتم من خلال إعلان الدستور وتنفيذه، وكان هناك معارضون لإعلان الدستور. بينما كان الاصلاحيون ومنهم مدحت باشا يسعون لإعلانه خاصة بعد أن تحقق النصر في الصرب في الخارج ضد الصرب.

وفي ١٩ يناير عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قرارا بتعيين مدحت باشا صدرًا أعظم، وتمت مراجعة مواد القانون الأساسي "الدستور" وأرسل المشروع للسلطان عبد الحميد الثاني الذي أصدر الإرادة السنية فصدر الخط الهمايوني القاضي بإعلان الدستور في السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م في

(١) المرجع السابق ص ٢٣ - ٣١.

ميدان الباب العالي بحضور الجمهور المحتشدة، ووزعت نسخ من الدستور في جميع أنحاء الدولة مما أثار الفرح في نفوس الناس.

وقد بدأت الانتخابات النيابية في الولايات، وقد ابتهج الناس بالانتخابات وتطلعوا إلى مجلس المبعوثان، ولكن حدث في عام ١٢٩٤هـ الموافق ٢٤ يناير لعام ١٨٧٧م صدر قرار السلطان بخلع مدحت باشا من منصب الصدارة العظمى وإبعاده إلى أوروبا في لندن، باريس فيينا حتى صدر عفو سلطاني عن مدحت باشا والسماح له بالإقامة مع عائلته في جزيرة كريت الذي وصلها مع العائلة في غرة من شهر شوال عام ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م. ومن كريت صدر قرار سلطاني بتعيين مدحت باشا والياً على سوريا لإصلاح الأحوال بها كما سبق وأصلح أحوال ولايات الطونة وبغداد وقد أدى الدور الاصلاحى المنوط به خير أداء، ولكن الوشايات والدسائس سواء في بلاد الشام أو في اسطنبول، فصدر فرمان بنقل مدحت باشا من بلاد الشام إلى أزمير في أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٧٨م. حتى تم القبض على مدحت باشا في يوم الاثنين ٤ مارس وحوكم في السراى وصدر الحكم عليه بالموت، وصدر قرار بنفيه ورفاقه رشدى باشا ومحمود جلال الدين باشا ونورى باشا إلى سجن مدينة الطائف حيث تم التخلص منهم هناك^(١).

هل كان مدحت باشا مصلحاً حقاً لأحوال الدولة العثمانية؟

اختلف المؤرخون حول شخصية مدحت باشا وسياسته الإصلاحية سواء في "نيس" بالبلقان أو في العراق والخليج العربي أو حتى في اسطنبول مركز الدولة العثمانية. فيذكر عباس الغزاوى في كتابه: تاريخ العراق بين احتلالين، وأن مدحت باشا كان توجيهه للإصلاحات كان مرضياً، ويكفي أنه وجه وعمل واستخدم المواهب، كما حاسب على الإهمال والتراخي، وتغلب على الأهواء والتيارات المتعارضة فاخذ بناصيتها وعمل بما لم يسبق إليه^(٢).

ويذكر الدكتور عبد العزيز نوار: إن مدحت باشا أحيى روح الإقبال على العمل في ميادين لم تكن مطروقة من قبل، وأطلق بذلك طاقات كانت مكبوتة، وكشف للناس عن إمكانيات كانت واسعة احتاجت إلى الحل وإلى المتابعة، ونتيجة لذلك ظلت ذكراه عطرة إلى أيامنا هذه.

ويضيف الدكتور عبد العزيز نوار بأن مدحت باشا قام بتطبيق النظم الحديثة،

(١) المرجع السابق ص ٣٧ - ٦٢.

(٢) عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين، ص ٧ بغداد ١٩ ص ١٦٦.

وهذه وحدها مشكلة استعصت على معظم الولاة من قبله، ونظم الإدارة، وضرب على يد المرتشين، وعنى بالحياة الاجتماعية والصحية، وكانت من الأمور المهمة، فضرب مثلاً في هذه الناحية بأن الشرقي لا يقل عن الغربي إقبالاً على هذه الأساليب من الحياة المتطورة، وكما قام بواجبه - على قدر استطاعته - نحو أهل العراق وفي حكومته حقها، فقدم لها مبالغ من الأموال لم يقدمها وال من قبل^(١).

أما آن وولفرد بلنت An and Wifred Blunt في كتاب تاريخ الاحتلال الإنجليزي لمصر. فقد وجها نقداً شديداً لمدحت باشا حيث أنه وضع من الخطط ما لم يكن هو بقادر على تنفيذها... كما أن مدحت باشا في رأي ويلفرد بلنت، لم يكن ممتازاً بأي شئ في مظهره سوى أنه كان فخوراً مختالاً، ولم أجد في محادثتي معه أثناء لقائنا بدمشق عندما كان والياً عليها، في موضوع تجديد تركيا وإصلاحها أي عمق في أفكاره، والواقع أنه كان أكثر من الأتراك في اسطنبول احتقاراً لكل ما هو عربي^(٢).

ونحن نعتقد أن هجوم آن وولفرد بلنت على مدحت باشا مرجعه أنه كان من أشد أعداء النفوذ الأجنبي في ولايات الدولة العثمانية، بينما دائرة المعارف البريطانية أشادت بإصلاحات مدحت باشا، حيث أن إصلاحات مدحت باشا في العراق مثل إصلاحاته في "نيس" كانت ذات نتائج حاسمة، وأنه لقي من المتعجب في العراق ما لقيه في "نيس"^(٣).

ويرى الدكتور عبد العزيز نوار: أن النقد الرئيس الذي يوجه إلى مجهودات مدحت هو أنه كان تركياً في تفكيره، وكانت إصلاحاته تستهدف إنقاذ رعية الدولة العثمانية والحكومة في اسطنبول من الهاوية التي كانوا ينحدرون إليها، ولكن لم يعن باسراك العرب والأكراد إشراكاً فعلياً في توجيه أمور البلاد أو في تدريبهم على مسئوليات الحكم، فظلت الإدارة تركية، وظلت المدارس تعلم بالتركية، حيث أن بواكير الحركة العربية في العراق أخذت تظهر في البلاد لافي أواخر القرن التاسع عشر - كما هو معروف - ولكن منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر^(٤).

ومهما يكن فإن لمدحت باشا سمعة كبيرة في العراق، وأهمية لدى مؤرخي تاريخ العراق، فضلاً عن أن مدحت نفسه شخصيته لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العثمانية أبتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد وصفه البعض بأنه مصلح العراق،

(١) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٤٤١.

(٢) وولفرد بلنت ترجمة: تاريخ الاحتلال الإنجليزي لمصر، القاهرة ١٩ ص ١٢٢.

(3) The Encyclopedia Brittanica, 14ed, Vol. 51, P. 456.

(٤) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٤٤١.

كما وصفه آخرون بأنه أبو الدستور العثماني^(١).

وهذا يسوقنا إلى ذكر حقيقة عن الحكم العثماني عامة وسياسة مدحت باشا للبلاد التي تولى عليها، حيث كان اهتمام الحكم العثماني عسكرياً أكثر منه مدنياً واقتصرت عناية العثمانيين على بعض المدن الساحلية أو الكبيرة التي تدر دخلاً كبيراً، ولذلك لم تنتعش الولايات في أيامهم، بل بالعكس تجمدت حيث كانت مما جعلها مسرحاً للفوضى وسوء الحكم، ولما ضعفت الدولة العثمانية إلى حد استئثار الكثيرين في ولايات الدولة العثمانية بالسلطة محلياً قامت الثورات والحركات العصبية والقبلية التي تطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية.

ويذكر أنصار مدحت باشا أنه لو بقي مدحت باشا في خدمة الدولة العثمانية ولم يعزل ولم يحاكم ولم يقتل، لأصبحت تركيا اليوم من أكبر بلاد العالم من حيث العمران والثروة والقوة والمنعة؛ لأن الرجل كان يشبه "اللورد كرومر" و"غمبتا" و"بسمارك" وغيرهم من عظماء الرجال، ولوقسنا أعماله وأعمال غيره من الرجال لرأينا الفرق كبيراً.

ويضيف هؤلاء المناصرون قولهم: إن مدحت باشا كان إذا فكر في أمر أقدم عليه من أول يوم، وابتدأ بإجرائه بعكس رجال الدولة العثمانية الذين يقضون أوقاتهم بإحضار اللوائح وشرب القهوة والشاي، ولا يعملون عملاً إلا بعد مذكرات طويلة، والقرارات التي تجلب الصداق.

وأضاف هؤلاء المناصرون لمدحت باشا تقریظاً في أوصافه ومناقبه، بأنه لم يسمع أحد أن مدحت باشا مكث شهراً أو شهرين لإحضار لائحة، بل رأى الناس السفن تملأ بالأسلاك بعد توليته مسند الصدارة بأسبوعين، وسألوا عن السبب فقيل لهم أنه عازم على مد خط التلغراف بين الشام والحجاز، ورأوا بعد ذلك بأسبوع المهندسين يتوجهون إلى طرابلس الشام وإلى بغداد لترسيم خريطة خط بغداد الحديدى.

رأى الناس رجلاً فى يده المسبحة، يقرأ الأوراد، ويصلي الأوقات الخمس، ولم يتعلم اللغة الفرنسية بعد أن جاوز سن الأربعين، وتعلم في أيام صباه في مدارس الفاتح، وقرأ دروسه على المشايخ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء^(٢).

وجاء مقتل مدحت باشا في سجن الطائف بالحجاز من السلطان العثماني عبد الحميد

(١) د. عبد العزيز نوار: نفس المرجع، ص ٢٥٢.

(٢) مدحت باشا: حياته / مذكراته / محاكمته: المرجع السابق ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

الثاني في ليلة الخميس ١٢ رجب ١٣٠١هـ الموافق ٢٠ أبريل ١٨٨٤م^(١) وبذلك أسدل الستار على حياة رجل من رجالات الدولة العثمانية الإصلاحيين، بل أظهر هؤلاء الرجال وأقدرهم، ولكن الوشائيات والاستبداد كانا من وراء التخلص منه، وبذلك فقدت الدولة العثمانية تنفيذ الاستراتيجية الواضحة التي تبناها مدحت باشا ليس في اسطنبول أو في أوروبا فقط، بل وفي المشرق العربي، الخليج، والجزيرة العربية، والعراق، والشام.

مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته

قال نجل المرحوم مدحت باشا علي حيدر بك ما ستأتي ترجمته بالحرف الواحد
"بعض كلمات"

أقدم إلى أبناء وطني في يوم عيدنا الملي أثر والدي وقد ذكره بعض الذكر أو لم يذكره ليكون عبرة لهم.

لما تمايل الوطن إلى سقوط في دركات الحضيض لفقدان العدل وسوء الإدارة حاول بتأسيس حكومة الاخوة والمساواة فجاهد ٤٥ سنة إلى أن أفنى حياته وسكن لعهده.

هذا الكتاب هو أول خطوة أخطوها لإثبات براءته التي سأسعى لتحقيقها رسمياً.

كتب والدي هذا الأثر في قلعة الطائف أمام مشكل وهو محاط بالجواسيس فكان يكتب السطر أو السطرين ويترك الكتابة إذا سمع وقع قدم أو صوت إنسان.

كتبه وليس معه رفيق يستشيريه أو كتاب يلجأ إليه ورغما عن فقدان كل الوسائط اللازمة لكتابة التواريخ خدم به وطنه أيضاً في أواخر أيامه وأودعه وقائع حياته السياسية والإدارية وبرأ نفسه من الحكم الذي ألصقه به الملك المستبد وأعوانه الأراذل الجبناء وكان قد أرسل قسماً من هذا الأثر إلى عائلته في أزمير فحفظته عندي كتذكار مقدس واستخرجت منه الكتاب الذي قد نشرته في أوروبا وعدد صفحاته (١٤٣) وزدت عليه بعض المواد المأخوذة من غيره.

وكان - رحمة الله - قد صرف النظر عن إرسال متماماته لانقطاع الرسائل المنبئة بوصول ما بعث به من مقدمات ومع كل ذلك فقد رأى وجوب إيجاد نسخ متعددة منه فاستكتب خير الله أفندي نسختين وحفظ النسخة الأصلية في بعض خبايا السجن ولكنه أخرجها قبل قتله بلية لسبب لا أعلمه فأخذها الجلادون ولعلمهم أرسلوها إلى عبد الحميد وأرسلت إحدى النسخ المكتوبة بخط خير الله أفندي إلى كمال أفندي شيخ تكية (بلاط) بواسطة

(١) نفس المرجع ص ١٤٩.

طوغله جى زاده مصطفى أفندي فلم يسلمها الأول إلى الثاني لليوم وسلمت الصورة الثانية إلى وصفي أفندي مدير أوراق الطائف بواسطة فخري بك فوضعها في صندوق من الحديد ودفنها إلى يوم إعلان الدستور.

أنشر اليوم أثرًا كتب بمهمة عالية وحفظ بشجاعة نادرة. أنشر منه اليوم (تبصرة وعبرة) وأذيله بملحق فمن المحررات المرسله إلى عائلته يعلم القارئ ما قاساه المرحوم في سجنه وقد أضفنا إلى هذا القسم ما التقطاه من أفواه رفاقه الذين لا يزالون في قيد الحياة.

اعتمدنا في تفصيل مسألة خنقه على رسالة لرفيقه في سجنه خير الله أفندي (شيخ الإسلام الذي اصدر فتوى خلع عبد العزيز) وعلى أقوال المايينجي الثاني للسلطان عبد العزيز الذي قد رافق الفقيد وعائشه في سجنه وخلص من الأسر وعاد بعد إعلان الدستور. اليوم أنشر أثر رجل قد خنق بأمر السلطان عبد الحميد في غيابة سجن الطائف لأعيد ذكره المنسي بين محافل سرور الشعب. واشرك روحه في فرح الأمة التي كان يحبها ويفديها بالنفس والنفيس

علي حيدر مدحت باشا

١٠ تموز ١٣٢٥

مقدمة مدحت باشا

قال المرحوم عن نفسه في مقدمة كتابه المكتوب بخط يده.

طلب الكثيرون من محبي الوقوف على نشأة مدحت باشا ترجمته فنشرها مراراً باللغتين التركية والعربية ولكنها لم تكن وافيه لأن قسمًا منها كتب عن أحوال سنة ١٢٨٢ والقسم الثاني كتب عن الأحوال سنة ١٢٩٠ على أن خدمات مدحت باشا المشهورة قد ابتدأت بعد ذلك الزمان وخصوصاً سنة ١٢٩٢ أي من خلع السلطان عبد العزيز إلى سنة ١٢٩٩ ففيما بين هذين التاريخين تنحصر أهمية صحائف أحواله ولذلك قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة هذه الأسطر فلبى طلبهم وكتب ترجمته من يوم ولادته سنة ١٢٣٨ إلى سنة ١٣٩٨ ضمن هذه الترجمة وقائع الدولة السياسية وسمي الكتاب المحتوي على التفصيلات الشامل لأعظم الوقائع السياسية تبصره وعبرة.

فالواقع المسطور في هذا الكتاب يعرفها الواقفون على حركاته وأحواله وهم إلى اليوم في قيد الحياة والأوراق الرسمية الموجودة إلى يومنا في سجلات الحكومة تثبت ما له من الأيادي في خدماته المشهورة التي قد خدم بها الحكومة ٤٥ سنة بلا فاصلة فمن اشتبه في بعض محتويات هذا الكتاب فليراجع الأوراق الرسمية ليظهر له الحق.

وهنا مسألة يجب النظر إليها وهي أن ما كتب في السجن لم يحتوى على النمر الرسمية والتواريخ بالضبط لأن الأوراق الرسمية إذ ذاك بعيدة عن الكاتب وليت الخطب قد بقي عند هذا الحد فقد كانت الكتب الدينية وأمثالها ممنوعة عنه وعن رفاقه وكانت مخابرة أولادهم وعائلاتهم ممنوعة أيضاً فضلاً عن التضييق والتعذيب فليعذر القارئ إذا وقف على بعض الخطأ والقصور.

مدحت باشا

الفكر الإستراتيجي عند مدحت باشا:

يتضمن الفكر الاستراتيجي لمدحت باشا ناحيتين، ناحية عسكرية، وناحية إدارية، وكلا الناحيتين متكاملتان، باعتبارهما ناتجتين من فكر واحد هو فكر مدحت باشا رجل الإصلاح في الدولة العثمانية، والذي تولى عدة وظائف قيادية في حكومة الدولة، وفي الولايات العثمانية في البلقان حتى تولى وظيفة ولاية العراق، ومن ثم اتجهت أنظاره نحو منطقة الخليج العربي لتنفيذ فكره الاستراتيجي الذي يخدم الدولة العثمانية في مواجهة النفوذ البريطاني الممتد من شبه القارة الهندية إلى مشيخات الخليج العربية، مستنداً إلى إصلاحات حققها في العراق، سواء في مجال الأراضي الزراعية، أو في مجال التنظيم الإداري، أو في مجال استخدام شط العرب كشریان للنقل البحري من العراق إلى مياه الخليج فالبحر العربي والمحيط الهندي، ثم إلى المحيطات المفتوحة.

قام الفكر الإستراتيجي لمدحت باشا في الناحية العسكرية على إيمانه بأن تنفيذ أية سياسة على الأرض يستلزم احتلالاً عسكرياً لتلك الأرض، ومن ثم وضع مدحت باشا خطته للقيام بحملة عسكرية لاحتلال الأحساء، وإذا تم له احتلال الأحساء ينطلق منها إلى بقية مناطق الخليج وإماراته، تعويضاً عما فقدته الدولة العثمانية في أوروبا من جراء حرب القرم التي انتهت سنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م.

قامت خطة مدحت باشا العسكرية بإعداد حملة عسكرية تتوجه من البصرة الميناء العراقي على شط العرب للتوجه نحو الأحساء، وقد حرص مدحت باشا على تحقيق هذا الغرض بعد توفر عدة عوامل هي:

- (١) إعداد القوة العسكرية من حيث الرجال والعتاد.
 - (٢) اللجوء إلى السرية التامة سواء في مرحلة الإعداد أو مرحلة التنفيذ.
 - (٣) الاستعانة بالكويت، حاكما وموانئ، وسفنًا.
 - (٤) جمع المعلومات عن منطقة الأحساء، شعباً، وإمكانات اقتصادية.
- كان اختيار مدحت باشا للقائد العام للحملة العثمانية إلى الأحساء القائد "نافذ باشا" بما يملكه من قدرات عسكرية وخبرات حربية، في حروب الدولة العثمانية في ميادين كثيرة في أوروبا وفي غيرها دفاعاً عن الدولة ثم جاءت الخطوة الثانية في تكوين الفرق والألوية التي ستشارك في الحملة والتي بلغ عدد أفرادها حوالي أربعة آلاف جندي، مزودين

بأسلحة متنوعة من بنادق ومدفعية ، وخيول وغير ذلك من الأسلحة ، إلى جانب إعداد البواخر التي ستبحر من البصرة في اتجاه الأحساء مروراً بميناء الكويت.

الفكر الاستراتيجي لمدحت باشا في الخليج العربي:

إذا كان لمدحت باشا استراتيجية نحو الخليج العربي امتداداً من ولايته على العراق ، فإن تلك الإستراتيجية هي إستراتيجية الدولة العثمانية وما هو إلا أداء وصاحب فكر أخذت به الدولة في الآستانة وكلفته بتنفيذه ، ومن هنا ارتبط الفكر الاستراتيجي لمدحت باشا في الخليج العربي برغبة الدولة العثمانية لتحقيق طموحاتها في تلك المنطقة خاصة وأن فكرة الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية - السلطان العثماني - التي روج لها السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وانطلقت من مصر في ستينيات القرن التاسع عشر كانت مبرراً لأن يتبنى السلطان العثماني الفكر الإستراتيجي لمدحت باشا في الخليج العربي^(١).

ويقوم الفكر الإستراتيجي لمدحت باشا نحو الخليج العربي والجزيرة العربية على الأسس الآتية:

(١) تطويق الجزيرة العربية من الجهة الشرقية بعد أن سيطرت على كل من الحجاز وعسير واليمن ، لكي تضمن سيطرتها المنفردة على كل شبه جزيرة العرب ولا تترك منه فراغاً تتسلل منه قوة أجنبية مثل بريطانيا امتداداً من الهند ، التي حاولت منذ أوائل القرن التاسع عشر السيطرة على مشيخات الخليج العربي وإماراته بتوقيع معاهدات الهدنة أو المعاهدات المانعة التي وقعها شيوخ الإمارات الخليجية مع ممثلي بريطانيا في الخليج وقبلوا فيها بشروط بريطانيا في عدم التسلح أو الاتجار بالرقيق أو القيام بعمليات الجهاد البحري الإسلامي ضد السفن الأجنبية ، أو التنازل لأية قوة غير بريطانيا عن أرض تمتلكها تلك الإمارات على الساحل العربي للخليج^(٢).

(٢) الاستفادة من افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية العالمية عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ) ، في الربط بين العراق وإمارات الخليج العربية وبين اسطنبول ربطاً بحرياً يسهم في احكام السيطرة العثمانية على بلاد العرب امتداداً من البحر الأحمر إلى الخليج العربي ، بما فيها العراق ومصر واليمن وسلطنة مسقط وعمان إن أمكن لإبعاد التنافس الأوربي المتجه لبسط نفوذ الدول الأوربية في المنطقة بكاملها بالاستفادة

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ٢٣٦.

(٢) د. رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ٢٠٠٠م.

من افتتاح قناة السويس للملاحة^(١).

(٣) تعيين مدحت باشا ، رجل الدولة القوى والطموح والياً على العراق العثماني مع إطلاق يده بكل حرية في بسط نفوذ الدولة العليا في الاتجاه الذي يراه مدحت باشا مناسباً لاستراتيجية الدولة في المنطقة^(٢) ، خاصة بعد أن ظهر الصراع واضحاً في الإمارة السعودية بنجد والممتدة إلى الأحساء بين أبناء فيصل بن تركي آل سعود : عبد الله وسعود ، ومن ثم يعمل مدحت على أن يحل النفوذ العثماني المباشر محل آل سعود في حكم كل من الأحساء ونجد. حيث تعتبر الدولة العثمانية نجد وملحقاتها جزءاً من الدولة العثمانية المتسعة الأرجاء كالحجاز وعسير واليمن ، ومن ثم فعلى مدحت باشا منذ تولى حكم العراق أن يتبنى فكر رجال الإصلاح العثمانيين - وهو منهم - الذين كانوا يدعون إلى التوجه بأنظارهم إلى الأقطار الآسيوية؛ لكي يعوضوا ما خسرتة الدولة في البلقان^(٣).

(٤) قامت الإستراتيجية العثمانية في الخليج والجزيرة العربية التي ينفذها مدحت باشا باحتلال الأحساء بمنتهى السرعة ، خوفاً من التدخل البريطاني في المنطقة ، خاصة بعد أن تقدم البريطانيون من الهند بمساعدة الأمير سعود بن فيصل آل سعود في صراعه مع أخيه عبد الله ، عن طريق حاكمي مسقط والبحرين ، وأن نجاح البريطانيين في هذا المسعى سيضر بالاستراتيجية العثمانية في الخليج بل وفي العراق ، إلى جانب ادعاء مدحت باشا بأن نجد والأحساء تعيش حالة من الفوضى السياسية مما دفع بالأمير سعود بن فيصل إلى الاعتداء على القوافل التجارية العثمانية^(٤).

كما قامت إستراتيجية مدحت باشا بالاستيلاء على الأحساء وغيرها من إمارات الخليج العربي ، بالاعتماد على العيون "الجواسيس" في معرفة أحوال أهل الأحساء ، وتحركات الأمير سعود بن فيصل آل سعود في المنطقة ومراكز تجمع قواته وتحصيناتها ، حتى يستفيد من هذه المعلومات في اختيار طريق القوة العثمانية البرية المتجهة إلى الأحساء برّاً ، وتجنب غارات البدو ، ومجاهل الصحراء في تلك المنطقة ، وكذلك معرفة الموانئ التي يمكن أن ترسو فيها سفن حملة مدحت باشا.

كما أن مدحت باشا في إستراتيجيته في منطقة الخليج العربي كان يدرك أن

(١) محمد عرابي نخلة: تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨ / ١٩١٢م ، الكويت ١٩٨٠ ص ١٤٩.

(٢) عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٧ بغداد ١٩٤٩م ص ٢٧١.

(٣) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث.

(٤) د. عبد الفتاح أبو عليّة: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، الرياض ١٩٨٦ ص ١١٢.

البريطانيين لهم نفوذ كبير في البحرين وقطر وإمارات الساحل العماني المهادن وسلطنة مسقط وعمان، ذلك النفوذ المعتمد على الاتفاقات مع تلك الإمارات العربية، ولم يبق من ساحل الخليج العربي إلا سواحل الأحساء بمدنها وإمارة الكويت، حيث كانت هذه غير مرتبطة بالبريطانيين بأية معاهدات، وبالتالي يمكن لمدحت باشا أن ينطلق من الكويت إلى الأحساء لتوسيع نفوذ الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، ومن ثم نجده يعلن في أبريل عام ١٨٧١م أن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل نجد، وأن حملة عثمانية ستزحف لتثبيت الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود بصفته قائم مقام عثماني، وأعلن مدحت باشا أن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء على نجد، بل لتوثيق الروابط القائمة بينها، بين نجد، وبين الدولة العثمانية، وكبح جماح الأمير سعود بن فيصل آل سعود، المتحالف مع البريطانيين - وإنهاء أعماله العدائية^(١).

(٥) تمثلت الإستراتيجية العثمانية نحو الخليج العربي التي ينفذها مدحت باشا أيضاً في مد نفوذ الدولة من الأحساء إلى قطر التي كان آل ثاني يحكمونها بصفة شبه مستقلة عن أدعاءات البحرين عليها، بموجب معاهدة عام ١٨٦٨م التي وقعها الشيخ محمد بن ثاني "شيخ الدوحة" مع المقيم البريطاني في الخليج بأن شيوخ القبائل القطرية يتعهدون بدفع ما قيمته ١٥ ألف "قران" للمقيم البريطاني ليقوم بتسليمها لحاكم البحرين حتى يتوقف عن ادعاءاته بالسيادة على قطر، ومن ثم رأى مدحت باشا أن قطر لم تكن ضمن الإمارات الخليجية التي وقعت على اتفاق السلم الدائم مع البريطانيين عام ١٨٥٣م، ومن ثم أرسل مدحت باشا قوة تركية نزلت إلى شبه جزيرة قطر عام ١٨٧١م واعترفت بالشيخ قاسم "جاسم" بن محمد آل ثاني حاكماً لقطر، وتم تعيين الشيخ قاسم بوظيفة قائم مقام عثماني، مع تعهد العثمانيين بعدم التدخل في الشؤون الداخلية في قطر تلك الشؤون التي كان يتولاها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني والاعتراف بآل ثاني حكاماً لقطر.^(٢)

(٦) واجه مدحت باشا المستبدين من الحكام في الأحساء، حيث كان هؤلاء الحكام يحكمون حكماً استبدادياً يتسم بالظلم والجور، حيث استغل الموظفون العثمانيون السلطة في أيديهم وكبدوا الأهالي دفع ضرائب باهظة، وكان مدحت باشا - لكي يكسب الأهالي في الخليج - كان يقف في وجه هؤلاء الحكام المستبدين، ويحقق

(١) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٨١.

(٢) د. رأفت غنيمي الشيخ: العرب، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٨٤م، والقران عملة فارسية خليجية.

في كل صغيرة وكبيرة ، ولذلك استثنى القبائل من دفع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور ، ولذلك فإنه بعد رحيل مدحت باشا عاد الظلم والاستبداد من قبل الموظفين العثمانيين.

(٧) ونتساءل ما هو موقف أهالي الأحساء وبقيّة إمارات الخليج من الاستراتيجية العثمانية التي رسمتها الدولة العثمانية ونفذها مدحت باشا في منطقة الخليج العربي. الأجابة أن الاستراتيجية العثمانية لم تكن موفقة لسببين رئيسيين هما :

(أ) أن الدولة العثمانية لم تفي بوعدّها للأهالي في منطقة الخليج العربي ، مما أفقد الدولة ثقة الأهالي في سياستها ، ومن ثم كان استياء الأهالي كبيراً وفرحوا كثيراً بانسحاب العثمانيين من الخليج.

(ب) اعتماد الدولة العثمانية على القوة العسكرية ، وأهملت تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتحقيق مطالب الأهالي في توفير التعليم والصحة ، أي أن الحكم العثماني اتصف بالعسكرية وليس بالحضارة التي لا توجد في القاموس العثماني آنذاك. مما جعل الأهالي ينفرون من هذه السياسة العثمانية.^(١)

(٨) جاء تعيين مدحت باشا لتنفيذ الاستراتيجية العثمانية نحو منطقة الخليج والجزيرة العربية بعد أن أدركت الدولة العثمانية أن التوسع غرباً في أوروبا لم يعد ممكناً ، وأن السبيل الوحيد أمامها هو تقوية نفوذها في الخليج ، خاصة بعد هزيمتها في بلاد البلقان أمام روسيا القيصرية. وهنا تبرز قيمة الدور الذي لعبه مدحت باشا كمنفذ لهذه السياسة العثمانية ، خاصة وقد اكتسب خبرة كبيرة من تجربته الإدارية والعسكرية في بلاد " الطونة " إضافة إلى ما اكتسبه العراق في عهد ولاية مدحت باشا من استقرار. ومن المعروف أن العثمانيين كانوا يعتمدون في سيطرتهم على هذه المناطق على الوجود العسكري فيها ، وكان مدحت باشا من مؤيدي ذلك الأسلوب.^(٢)

مدحت باشا في العراق:

كان العراق قد سقط في يد الصفويين^(٣) عام ١٥٠٨م وهم شيعة ، وصادف هذا تطلع

(١) عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعيل: الوجود العثماني في منطقة الأحساء ١٨٧١ - ١٩١٤م ، رسالة ماجستير غير منشورة ص ٢٨٨ كلية الآداب جامعة الزقازيق ، عام ١٩٨٨م.

(٢) محمد بن عبد الرحمن عبد المحسن الأحسائي: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد ، ص ١٦٨ الرياض ١٩٨٢ .
(٣) ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين صاحب طريقة صوفية في أردبيل بأذربيجان من بين عدة طرق صوفية انتشرت هناك أثناء الاضطراب الذي عم إيران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى. وقد أصبح لهذه الحركة قوات عسكرية تتخذ لباساً للرأس عبارة عن تاج أحمر ذا اثني عشر ذؤابة كناية عن الاثني عشر إماماً ، ولهذا أطلق عليهم العثمانيون « قزل باش» أي الرموس الحمراء د. محمد أنيس. الدولة العثمانية والشرق العربي.

العثمانيين إلى الشرق بعد أن اتسعت فتوحاتهم في الغرب، في أوروبا عبر البلقان، ووصلت إلى مداها، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على أرض العراق عام ١٥١٤م، وكانت العراق بذلك أول قطر عربي تدخله القوات العثمانية غازية.

وكان سقوط العراق في يد الصفويين على يد زعيمهم الشاه إسماعيل الصفوي الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة في إيران والذي استمر في الحكم من ١٥٠٠ إلى ١٥٢٤م. ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي Toynbee أن الشاه إسماعيل الصفوي مسئول عن تحول العثمانيين في فتوحاتهم نحو الأقطار العربية وهو التحول الذي أدى إلى صدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة، وذلك بمحاولات إسماعيل إثارة العثمانيين بشتى الطرق.

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل الصفوي في سهل جالديران عام ١٥١٤م ودخول السلطان سليم إلى العاصمة تبريز واستيلائه على أموال وكنوز الشاه ونسائه، فإن هذا الانتصار لم يمهّد للعداء بين الفريقين، بل استمر طويلاً وكان العراق ميداناً للصراع والمعارك بين الطرفين: مما جعل العراق موزعاً توزيعاً متوازناً بين السنة والشيعة.

ورغم حملة السلطان سليم الأول لم يخضع العراق كله للحكم العثماني، بل خضع شماله فقط في الموصل وديار بكر، وحتى في هذه المناطق لم يكن الحكم العثماني مستقرًا كل الاستقرار. أما العراق الأوسط والجنوبي فقط ظل في يد الإيرانيين^(١) وكان هذا الانقسام من أسباب استمرار الصراع بين الأتراك العثمانيين والصفويين، واستفاد المغامرون وقبائل الأكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية، وفي عام ١٥٢٣م قاد السلطان سليمان القانوني العثماني حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة آنذاك إلى العثمانيين طواعية حتى عام ١٦٢٢م عندما أعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات وبذلك أصبح العراق كله تقريباً خاضعاً للدولة العثمانية إلى أن قام السلطان العثماني مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨م استولى بها على العراق وأعادته إلى حظيرة الدولة العثمانية^(٢).

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الإيرانيين والعثمانيين حول العراق، إذ أنه بعد سقوط الأسرة الصفوية في إيران على يد نادر شاه عام ١٧٢٣م حاول هذا

(١) د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٢٨.

(٢) رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة ١٩٧٥ ص ٦٢.

الشاه الجديد الاستيلاء على العراق ولكنه فشل، ثم أعاد الكرة من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٤٧م عندما توفي نادر شاه، وعقدت بين إيران وتركيا معاهدة حددت الحدود التقليدية بين الدولتين مع دخول العراق في حوزة الدولة العثمانية، وبهذه المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الإيرانيين والعثمانيين والتي كان العراق ميدانها.

ومما يجب الإشارة إليه أن البصرة كان لها وضع خاص، فقد استولى عليها الفرس، الصفويون، أولاً في سنة ١٦٩٦م ثم تركوها بعد عامين، ثم أغار عليها نادر شاه عام ١٧٤٧م ثم ارتد عنها^(١)، وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب على رأس الخليج مصدر اهتمام الدول الأوروبية، وقد استفادت العشائر العربية هناك من هذا الاهتمام إلى جانب استفادتها من الصراع الإيراني العثماني.

وفي ظل الصراع الإيراني العثماني حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية إلى إقرار الأمور في العراق دافعا لكي تظهر أسرة حاكمة تحكم العراق منذ أوائل القرن الثامن عشر وتستمر حتى عام ١٨٣١م. هذه الأسرة هي أسرة حسن باشا الذي عين والياً في عام ١٧٠٤م، وقد نجح حسن في إخضاع القبائل العربية المتمردة ومن ثم لم يعد في استطاعة الباب العالي أن يستغنى عن خدماته^(٢).

ظل حسن باشا في الحكم متخذاً من بغداد مقراً له ونادراً ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه، إذ كانت الموصل والبصرة كثيراً ما يعلن حكامها عدم خضوعهما لباشوية بغداد، وبقي حسن باشا في الحكم حتى عام ١٧٣٤م حيث خلفه ابنه أحمد في الباشوية.

عاش العراق بعد حكم المماليك تابعا تبعية كاملة للدولة العثمانية، وحرص الولاة الذين حكموه باسم السلطان العثماني من عام ١٨٣١ إلى ١٩١٤م على إخضاع العراق للحكومة المركزية باسطنبول والقضاء على آثار استقلال العراق الذي عمل له الباشوات المماليك وقد أدت سياستهم هذه إلى أن تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينهم أو المحاربة للباشوات الأتراك، وهذه القبائل ساندت محمد علي والي مصر الذي كان يطمع في ضم العراق إلى الكتلة العربية التي حرص على إقامتها في هذه المنطقة بعد أن ضم بلاد الشام والحجاز والسودان إلى مصر بصفة خاصة.

وكانت سلطة الباشوات الأتراك ضعيفة أيضاً في مواجهة أكراد شمال العراق الذين

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة ص ٢٣٠.

(٢) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي القاهرة ص ١٥.

يؤيدهم شاهات إيران، وقد استمرت الحرب دائرة بين الباشوات الأتراك وبين الأكراد من عام ١٨٣١ إلى ١٨٤٢م حتى عقدت في مايو عام ١٨٤٢ معاهدة أرضروم الثانية بين تركيا وإيران. حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها إيران عن السليمانية ومناطق أخرى مقابل تنازل تركيا لإيران عن الساحل الأيسر لشط العرب ومناطق أخرى، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الانتفاضات الكردية ضد الحكم التركي المباشر الذي بقيت سلطته وهمية.

وطبقاً لمنشور التنظيمات الخيرية الذي صدر في يونيو ١٨٥٦م انقسمت العراق إلى ثلاث إيالات: ولاية بغداد وولاية البصرة التي أنشئت عام ١٨٠٤م، وولاية الموصل التي أنشئت عام ١٨٧٩م^(١) وأعدت هذه التنظيمات تنظيم جهاز الدولة ولكنها لم تنه إساءات الموظفين وابتزازهم الأموال لمصالحهم الخاصة.

وقد شهدت العراق عهداً من الإصلاح في عهد ولاية مدحت باشا (١٨٦٩، ١٨٧١م)^(٢) حيث شمل الإصلاح نواحي متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحي، ومع ذلك بقي نظام "الطابو"^(٣)، أو إدارة تسجيل الأراضي، من أهم الأعمال التي تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف إلى استقرار القبائل في الأراضي الزراعية هذا إلى جانب اهتمامه بربط العراق بحراً بكل من اسطنبول ولندن بعد أن فتحت قناة السويس للملاحة العالمية، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط أجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا، وإدخال الخدمة العسكرية، ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام ١٨٧١ إلى أدرنة.

وقد استمر الوضع غير مستقر في العراق بسبب إنقسام العراق إلى سنة وشيعة استغله سلاطين آل عثمان لبقاء نفوذهم في العراق مع محاباة للسنة العراقيين، وانقسام العراق إلى عرب وأكراد على استعداد للثورة مستمدين التأييد من قوى خارجية، وانقسام العراق إلى حضر وبادية مع اختلاف التكوين الثقافي والاجتماعي بين سكان المدن والقبائل

(1) Longrigg. Iraq 1900 - 1950, p. 10

وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث تأليف لونغريج، د. محمد أنيس الشرق العربي ص ١٣.

(٢) كان مدحت باشا في رئاسة شوري الدولة يسن القوانين ويحدث اللوائح، وكان من الواجب على الحكومة إحالة كل شيء على هذا المجلس، ولكنها لم تفعل بل كانت تصدر بعض النظامات قبل عرضها على شوري الدولة، فلم يقبل مدحت باشا أعمالها، وعزم على التوجه إلى إحدى الولايات، وصادف عزل تقي الدين باشا والي بغداد، فأظهر مدحت باشا ميله إلى تلك الولاية، فوجهت إليه وظيفة والي بغداد مع نظاره الفيلق السادس. مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، إعداد يوسف كمال بك حتاته ود. صديق الدمولوجي، بيروت ٢٠٠٢م، ص ٢٢٣.

(٣) يعنى الطابو قيام إدارة التسجيلات ببيع أراضي الحكومة بأقساط صغيرة سهلة الدفع ومنح هذا الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الأرض القبيلة التي يتولون رئاستها وقد أدى هذا النظام إلى أن أصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكاً زراعياً وإقطاعياً كباراً.

والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة في القدم.

حاول الولاة الأتراك اقتفاء أثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا في تحقيق أية برامج إصلاحية في العراق، وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة في الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد (مكي عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الأتراك والموظفين والمثقفين الأحرار، ذلك الصراع الذي انتهى بحدوث انقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان عبد العزيز، وانقلاب أغسطس من نفس العام ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطاناً في ظل دستور وضعه مدحت باشا الذي اختاره السلطان وزيراً. ثم انقلاب عبد الحميد عام ١٨٧٧م ضد الدستور ونفي مدحت باشا.

وترك العراق نهباً لأطماع الدول الأوروبية وصراعها، فبينما حصل الألمان على مد خط سكة حديد بين برلين إلى بغداد، وققت إنجلترا أمام هذا المشروع؛ لأنه يهدد المصالح البريطانية في العراق والخليج والهند، وحصلت إنجلترا على احتكار التجارة مع العراق، واحتكار نقل البضائع بين العراق وإنجلترا.

استمر الوضع في العراق على هذا النحو في ظل حكم السلطان عبد الحميد الذي حاول التأثير في الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الإسلامية التي تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الأقطار لتقف ضد النفوذ الأجنبي المتزايد في ولايات الدولة وخاصة الولايات العربية.

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨م بقيادة جماعة الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد، ورغم فرح العراقيين وبقية العرب بهذه الثورة ومؤازرة العرب للقائمين بها، إلا أن العراقيين شاركوا مع إخوتهم العرب في تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التي اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة. تلك كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك في الحرب العالمية الأولى انتهت بانحسار الحكم التركي عن العراق وغيره من أقطار المشرق العربي.

ومما يجب ملاحظته، أنه مع اتساع الدولة العثمانية في شرق أوروبا على حساب الامبراطورية البيزنطية وفي أقطار الوطن العربي، خاصة في القرن السادس عشر فقد وضع السلطان سليمان القانوني ١٥٢٢م لحكم الولايات العثمانية، ومنها الأقطار العربية، نظاماً للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى كانت على النحو الآتي:

أولاً: الوالي؛ ويلقب بالباشا وهو نائب السلطان في حكم الولاية وله سلطة تنفيذ أوامر

السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانيين في الولاية وإن كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه في السلطة مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية ، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان لمدة سنة قابلة للتجديد.

ثانياً: رؤساء الجند: وهم قادة الفرق أو الأوجاقات. تلك الفرق الموكول إليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجي وحفظ النظام والأمن الداخلي وخاصة بالتصدي للثورات التي قد يقوم بها أهالي الولاية ضد الحكم العثماني، ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالي المسمى بالديوان الذي له السلطة الكبيرة في إدارة الحكومة حيث لا يستطيع الوالي أن يبرم أمراً إلا بموافقة أعضائه، فهم بمثابة سلطة رقابة وإشراف على السلطة الوالي، وحتى عندما انقسم الديوان إلى ديوان كبير وديوان صغير ظل لسلطة قادة الجند القوة في مواجهة الوالي.

ثالثاً: العصبية المحلية: خير مثل للعصبية المحلية وسلطتها في حكم الولاية، المماليك في مصر حيث أصبح لهم حكم الإقاليم المختلفة بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها، وفي وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية حتى يصير في إمكانهم عزل الوالي أو الاستئثار بالنفوذ دونه. هذا إلى جانب القبائل العربية ذات الشوكة في الأقطار العربية كالعراق والشام.

وكان يساعد هذه القوى الثلاث مجموعة من الموظفين يعينهم السلطان العثماني مثل الكتخدا أي وكيل الوالي والدفتردار المسئول عن الشئون المالية والسلاح دار (السلحدار) المسئول عن أمور التسليح والخازن دار (الخزندان) المكلف بالخزانة العامة للولاية. إلخ. وهكذا أصبح العراق ولاية عثمانية يتولاها باشا يتم تعيينه من مركز السلطنة العثمانية في اسطنبول، وكانت بغداد مقر الوالي يدير منه أمور الولاية في النواحي الداخلية، والنواحي الخارجية. وكان مدحت باشا أظهر الولاية في العراق، حيث تمكن من إقرار النظام والأمن والاستقرار، وأجرى بعض الإصلاحات التي لا يزال يذكرها العراقيون^(١).

أعمال مدحت باشا في العراق

كان مدحت باشا معنياً بإصلاح أمور الدولة العثمانية، منذ أن أسندت إليه بعض المهام الرئيسية في الدولة، وكانت أهدافه تتمثل في الآتي:

١ - المساواة بين رعايا السلطان أتراكًا وغير أتراك.

(١) عباس الغزوي: تاريخ العراق بين احتلالين ح ٧ بغداد ١٩٤٩ ص ٢٧١.

- ٢ - تركيز السلطة الإدارية والقضائية في يد رجال الحكومة.
- ٣ - إعداد الموظف الأمين الذي يستطيع أن يلائم بين مصالح حكومته والرعية.
- ٤ - اشتراك الرعايا مع الإدارات المختلفة في إصلاح أمور البلاد.
- ٥ - سد الثغرات التي تنفذ منها الدول الأجنبية للتدخل في أمور الولايات العثمانية.^(١)
- وقد نجحت إصلاحات مدحت باشا في ولاية "الطونة"^(٢) بعد أن وضع قانون الولايات عام ١٨٦٤م. وذهب إلى الطونة لتطبيقه في النواحي الإدارية والاقتصادية، زراعية وصناعية، وفي النواحي التعليمية، ثم عاد إلى اسطنبول لتسند إليه منصب رئاسة مجلس الشورى، وعندما اختلف مع الصدر الأعظم نديم باشا عام ١٨٧٨م، أسند السلطان العثماني لمدحت باشا ولاية بغداد لأنه كان على مقدره كبيرة في التعامل مع الأجانب، خاصة مع البريطانيين الذين كانوا يسيطرون على مقدرات مشيخات الخليج العربي، ولأن مدحت باشا بشخصيته القوية أقدر على توجيه أمور العراق وفق أهداف الدولة نحو تقوية قبضتها إلى طول السواحل العربية، وفي جعل العراق طريقاً عالمياً ينادد قناة السويس المقرر افتتاحها للملاحة العالمية عام ١٨٦٩م^(٣).
- صدر فرمان تعيين مدحت باشا والياً على العراق ١٨٦٩م، ونص فرمان على تكليف مدحت باشا بتطبيق قوانين الأراضي والبلديات والولايات، وتطوير أمور العراق الانتاجية، وتقوية قبضة الحكومة على العشائر ضماناً للاستقرار في الأراضي الزراعية. وقد سعى مدحت باشا بالفعل في العمل على تطبيق تكليفات السلطان العثماني في فرمان التعيين، وكان بما يتحلى به من أدراك لأهمية الإصلاحات الإدارية والقضائية والاقتصادية، عمل على إشراك الأهالي في إدارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الإدارية المختلفة، وربط الإدارات الفرعية في الولاية بمقر الوالي^(٤).

ولسنا هنا بصدد تسجيل أعمال مدحت باشا الإصلاحية في العراق في مدة ولايته (١٨٦٩ - ١٨٧١م)، لكننا نكتفي بتلك الإصلاحات المتصلة بتقوية العراق في الداخل لينطلق منها لفتح الأحساء وليحقق فكره الاستراتيجي في منطقة الخليج العربي كاملة.

بالنسبة لتطبيق قانون الولايات في العراق، فقد وضع مدحت باشا تنظيمًا جديدًا

(١) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داوود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) بانضمام إقليم «سليسترة» و «ودين» و «نيش» تكونت ولاية الطونة في البلقان.

(٣) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٣٥٥.

(٤) مدحت باشا، حياته - مذكراته - محاكمته، إعداد يوسف كمال بك حتاته، ود. صديق الدموجي بيروت ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٢ - ٢٣٨.

للتقسيم الإداري للعراق، حيث شكل العراق ولايتين هما ولاية بغداد وتضم البصرة، وولاية الموصل، وقسمت هذه الولايات إلى أولوية، كان منها متصرفية البصرة وتتبعها الأقسام الإدارية: البصرة - المنتفق - العمارة - الكويت - نجد، وكانت نجد تضم الكويت والأحساء، عندما أصبحت البصرة ولاية أصبحت نجد والأحساء من سناجقها^(١).

وكانت العقبة الكبرى التي تواجه مدحت باشا في تطبيق قانون الولايات في العراق وجود عشائر عربية قوية تعارض بشدة إدخال هذه النظم الإدارية الجديدة ولكن تطبيق قانون الأراضي (الطابو) كان الأسلوب العلمي لإنفراد العشائر وتوجيهها إلى الإنتاج الزراعي، خاصة بعد الاهتمام بحفر الترغ والقنوات وإقامة السدود وربط مدينة بغداد الواقعة على نهر دجلة بنهر الفرات لتكون على صلة مستمرة بخطوط البواخر التي قرر أن يمدّها في نهر الفرات.

كما اهتم مدحت باشا بمدينة بغداد بتوفير المواصلات والخدمات الاجتماعية والعمرائية والصحية، كما عني بمدينة البصرة والموصل، واهتم بالثقافة والتعليم بإنشاء مدارس رشدية مدنية وعسكرية، ومدارس إعدادية عسكرية إلى جانب مدرسة الفنون والصنائع، وفي إطار إدراك مدحت باشا بأن القوة العسكرية المسلحة هي أداة الحكومة العثمانية لتقوية قبضتها على أجزاء العراق، ولبسط السيطرة العثمانية خارج العراق، فاهتم بالتجنيد الإجباري لأبناء العراقيين، وبذلك بلغ الجيش في عهده درجة لم يبلغها من قبل من حيث العدد والتجهيز^(٢).

وقد استخدم مدحت باشا البواخر العديدة لتعمل بين البصرة والسويس والأستانة وأوروبا بالواجهة نحو التجارة المتبادلة بين العراق من جهة وأوروبا والهند من جهة أخرى وعمل على أن يجعل من نهر الفرات طريقاً ينادد طريق قناة السويس، ويربط بين الساحل السوري وبغداد والبصرة^(٣).

حملة مدحت باشا علي الأحساء وأقطار الخليج

عندما تولى مدحت باشا ولاية بغداد عام ١٨٦٩م، وجه اهتمامه إلى بسط نفوذ الدولة العثمانية على كامل أقطار الخليج العربي بالاستيلاء على الكويت والبحرين وقطر والأحساء، والخطوة التالية هي الاستيلاء على إمارات الشارقة وعجمان ورأس الخيمة وأبو ظبي ودبي ومسقط وعمان، كما أشارت إلى ذلك جريدة "الزوراء" الناطقة

(١) عباس الغزاوي: المرجع السابق ج ٧ ص ١٦٨.

(٢) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٣) عباس الغزاوي: المرجع السابق ج ٧ ص ٢١٩.

بلسان مدحت باشا^(١).

وكان مدحت باشا يرغب في أن يسبق بريطانيا في هذا المضمار، لأن نشر النفوذ البريطاني في إمارات الخليج العربي فيه تهديد للعراق العثماني وفيه انتقاص من المجال الحيوي والاستراتيجي للوجود العثماني في العراق ومن ثم بدأ مدحت باشا بالكويت، إذ أنه عند زيارته لها عام ١٨٧٠م أي في العام التالي لولايته على العراق اتفق مع الشيخ عبد الله الصباح شيخ الكويت على أن تكون الكويت قائممقامية تتبع ولاية البصرة، ويصبح الشيخ عبد الله "قائمقام" يقوم بتنظيم شؤون الدولة الداخلية وترفع السفن الكويتية العلم العثماني، وأن تكون الكويت سنجقا مستقلاً استقلالاً ذاتياً تحت حكم وراثي لآل صباح.

وقد رحب آل صباح بهذا التوجه العثماني من متطلق إسلامي في إطار الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية، كما كان لشيوخ آل صباح أراضي في البصرة ويرغبون في الحفاظ على ملكيتهم لها في ظل الحكم العثماني للعراق، كما أن مدحت باشا استفاد من تعاون آل صباح في الحملة المزمع إرسالها للاستيلاء على الأحساء نظراً لما تملكه الكويت من سفن كثيرة ذات إعداد حربي وتجاري واضح، حيث أن الكويت تنعم بالاستقرار ويطبق الشريعة الإسلامية في أحكامه، ومن ثم فإنه ليس بحاجة إلى قوة عسكرية عثمانية^(٢).

وقد اشترك حاكم الكويت بقوات برية وبحرية في حملة مدحت باشا إلى الأحساء، وقد نجحت الحملة في الاستيلاء على القطيف والأحساء والهفوف التي أصبحت مركز "لواء نجد" الذي يضم إلى جانب الهفوف، قضاء القطيف، وقضاء قطر، وتعين على قضاء قطر الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني برتبة قائممقام يعاونه قائد عثمانى يشرف على حامية العثمانيين هناك^(٣).

وبعد أن تم لمدحت باشا الاستيلاء على الأحساء من يد آل سعود، عين عبد الله الفيصل آل سعود قائممقام على نجد، وعسكرت قوة عثمانية في منطقة الأحساء مما اضطر عبد الله الفيصل إلى الهرب، ومن ثم استقرت القوات العثمانية في الأحساء، وزار مدحت باشا الأحساء في شهر شعبان ١٢٨٨هـ الموافق لعام ١٨٧١م بهدف الاطمئنان على أحوال القوات العثمانية هناك، وينظر في إمكانية إرسال قوة تتجه إلى مدينة الرياض للاستيلاء عليها، وقد غادر مدحت باشا الأحساء بعد أن أقام فيها شهرين، ثم توجه إلى بغداد.

(١) خالد العزى: المرجع السابق ص ٤٠.

(٢) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث. ص ٤٣٢، ومذكرات مدحت باشا ص ١٨١.

(٣) د. مصطفى النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، بغداد ١٩٧٥م ص ٣١٢.

وكان مما ساعد مدحت باشا في نجاح حملته على الأحساء الصراع بين كل من عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود وأخيه سعود ، كما أن الأحساء كانت من المناطق التي قاومت حكم آل سعود لأن المؤثرات الشيعية فيها قوية ، كما أن بنى خالد - حكام الأحساء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر - كانوا يسعون لدى الدولة العثمانية ولدى حكومة محمد علي في مصر لاستعادة حكم الأحساء بالإضافة إلي موقف قبائل العجمان وبنو مرة من عبد الله بن فيصل، وهو موقف العداء الشديد.

وقد غادر مدحت باشا الأحساء في أوائل عام ١٨٧٢م، وأخذ معه عددًا من الجنود المرضى والجرحى من حامية الأحساء، كما أن عددًا من العشائر التي سبق لها الاشتراك في الحملة عادت أيضًا، فضعف هذا من تضائل القوة العثمانية، ومن تجميد أعمال الحملة ووقوفها عند الحدود التي بلغت على يد مدحت باشا، الذي غادر العراق إلى الآستانة في ٢٢ مايو ١٨٧٢م، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التي جمدت نشاط الحملة والقوات العثمانية في شبه جزيرة العرب، وقد قدرت قوات الحملة في أغسطس عام ١٨٧١م بـ ٣٤٠٠ مقاتل في الهفوف والقطيف والعقير، وأن ثلثهم كان مريضًا^(١).

وعندما صدر فرمان السلطان العثماني عبد العزيز باستعفاء مدحت باشا الذي سبق أن تقدم به نظرًا لما كان يلقاه من الحكومة العثمانية، ومن الصدر الأعظم خاصة محمود نديم باشا، قبل الصدر الأعظم استعفاء مدحت باشا بلا تردد وعين رءوف باشا واليًا على بغداد ومشيرًا لفيلقها، وحضر على جناح البرق، وفارق مدحت باشا بغداد بعد حضور الوالي الجديد، وكان خروجه منها في شهر مايس (مايو) ١٨٧٢م^(٢).

(١) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) مدحت باشا حياته - مذكراته - محاكمته: المرجع السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

الفصل السادس

الأحساء

كتاب الحملة العثمانية على الأحساء من خلال الوثائق العثمانية "فيصل بن عبد الله الكندري".

كتاب: العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية (إيالة الحسا) عبد الكريم بن عبد الله المنيف الوهبي.

الحكم العثماني للأحساء قبيل ضم ابن سعود لها.

جذور العلاقات العثمانية مع حكام شبه جزيرة العرب.

الإستراتيجية العثمانية نحو إقليم الأحساء.

المتصرفون الأتراك في الأحساء.

مقدمة (كتاب الحملة العثمانية على الأحساء) ^(١)

منطقة الخليج العربي ذو أهمية إستراتيجية كبرى، فالخليج ملتقى التجارة القادمة من جنوب آسيا أو من شرق أفريقيا أو من البحر المتوسط لذلك شهد الخليج نشاطاً تجارياً كبيراً خلال العصور المختلفة، حيث كانت التجارة العالمية تمر عبر الخليج مما أطمع كثير من الدول الأجنبية والغربية على احتلال المنطقة والاستفادة من تلك الأهمية. والمنطقة الشرقية من المملكة والتي تعرف حالياً بهذا المسمى من أهم مناطق الخليج. فنجد أن البرتغاليين احتلوا المنطقة لأهميتها وتبعتها دول ومنها الدولة العثمانية في فترة احتلال وسيطرتها الأولى على المنطقة، وبعد جلاء العثمانيين عن منطقة القطيف والأحساء ونظراً لأهميتها عاودوا الكرة مرة أخرى لأهميتها وذلك عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م.

اعتمدت هذه الدراسة بشكل كبير على الوثائق العثمانية التي لم تزل مجهولة، فقد عثر على مجموعة كبيرة من الرسائل والتقارير التي بعث بها كل من والي بغداد مدحت باشا ونافذ باشا القائد العثماني العام للحملة، وبلغت في مجموعها قرابة ٢٥ رسالة وتقرير، وقد نشرت تلك الوثائق مع ترجمة لها في الكتاب.

جاءت هذه الدراسة لتتناول تلك الحملة من خلال الوثائق العثمانية، وتبين أوضاع الجزيرة العربية منذ إعلان قيام الدولة السعودية الثانية على يد تركي بن عبد الله حتى حدوث الخلاف بين الأخوين عبد الله وسعود الفيصل، كما تطرقت الدراسة لتوضيح أهم الإصلاحات التي قام بها مدحت باشا لتعزيز الوجود العثماني في المنطقة. وفي الأخير تم مناقشة أهم النتائج التي أسفرت عنها الحملة.

قسم المؤلف الكتاب إلى فصلين ثم تبعهم بملاحق.

الفصل الأول:

- مصادر الدراسة: وهي الوثائق والتقارير العثمانية كما أنه استعان ببعض المصادر العربية.

- أوضاع شبه الجزيرة العربية: سلط المؤلف الأضواء على أوضاع الجزيرة العربية وذلك من خلال التسلسل التاريخي للأحداث في نجد وعلاقتها بمنطقة الدراسة؛

(١) نزار العبد الجبار: الحملة العثمانية على الأحساء من خلال الوثائق العثمانية، عرض الكتاب للمؤلف فيصل بن عبد الله الكندري.

الأحساء والقطيف.

- العثمانيون والخليج العربي: سجل المؤلف أهمية الخليج للعثمانيين خلال فترتهم الأولى وأهميتها لهم للرجوع إليها مرة ثانية وهي موضوع الدراسة.

الفصل الثاني:

- الحث على السيطرة على المنطقة وترغيب الدولة العثمانية فيها: حث مدحت باشا الدولة العثمانية لاحتلال المنطقة وذلك من خلال بعثه ببعض التقارير إلى السلطات العثمانية يخبرهم عن الخيرات الموجودة في منطقتي الأحساء والقطيف، ومما جاء في بعض تقاريره "بأن الضرائب التي تم تحصيلها من بستان واحد في القطيف والذي يحتوي على مليون ونصف نخلة قدرت بثلاثمائة ألف قرش، ويضيف بأنه يوجد في الأحساء بساتين تبلغ مساحتها أضعاف هذا البستان، وهذا يشير بأن العائدات المالية المتوقعة ستكون كبيرة جداً. والدولة العثمانية بحاجة ماسة لتلك العائدات الكبيرة.

- أوامر الحملة: وهي ترتيبات الحملة لخضوع المنطقة لهم من الدولة السعودية الثانية "سعود الفيصل" مع ترتيب الفرق العسكرية وكيفية سير وتنظيم الحملة، مع استعداد عبدالله الفيصل مع عشائر الرياض وحاكم الكويت للمساعدة في تلك الحملة. وتعيين عبدالله الفيصل قائمقام على القطيف والأحساء وقطر. وتقديم عبد الله الفيصل مساعدات مالية من أمواله الخاصة لتغطية بعض النفقات المادية للحملة العسكرية. وغير ذلك من الأوامر التي صيغت.

- استعداد مدحت باشا للحملة: قام مدحت باشا قبل الحملة بدراسة قوة خصمه قبل أن يجازف بالجيش، فتم التعرف على المنطقة وخاصة إنهم يجهلون منطقة نجد حيث من ضمن مخططهم مهاجمة نجد. فجاءت التقارير بالنسبة لمهاجمة القطيف بأن أنسب مكان تستطيع السفن أن تقوم بعملية إنزال بها هي رأس تنورة، فأراد مدحت باشا من ذلك تجنب الطريق الصحراوي.

- سير الحملة: بدأت استعداد الحملة من الفاو والبصرة وخرجت للكويت وبقوة عسكرية منها ثم اتجهت إلى رأس تنورة ثم للقطيف وذلك عن طريق مدينة صفوى متجهة نحو القطيف ومناطقها وتبعت الحملة نحو الدمام وقلعتها وبعد ذلك اتجهت الحملة نحو الأحساء.

- أعمال مدحت باشا بعد الحملة: بعد انتهاء الحملة وسيطرة العثمانيين على المنطقة قام مدحت باشا بعدة أعمال منها:

- (١) تحويل الأحساء والقطيف إلى متصرفيات، وتعيين قائممقامين ومديرين في المنطقة، ووضع فيلق عسكري نظامي وغيرهم من الموظفين في قلعتي الأحساء والقطيف.
- (٢) مكافأة حاكم الكويت عبدالله الصباح وإسهاماته في الحملة حيث شارك بأكثر من مائة سفينة، طلب إعطائه قائم مقام الكويت.
- (٣) الشروع في تحصيل الإيرادات من مزارع النخيل والعنب في القطيف والأحساء بمعرفة المجالس المؤقتة، وكذلك رسوم الجمارك والضرائب في ميناءي العقير والقطيف.
- (٤) أخذ مدحت باشا يتحدث عن الإيرادات التي تصب في خزانة الدولة بعد الإصلاحات التي تمت في الأحساء والقطيف بعد نجاح الحملة فأخذ يصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية للجزيرة العربية، ومثال ذلك فقد أورد وصفًا جيدًا عن الأوضاع الاقتصادية في المنطقة ومما قاله عن الأحساء بأنها تحتوي على ما بين ٣٠ - ٤٠ ألف مزرعة نخيل ومزارع النخيل تسمى بستان، وتبلغ مساحة كل بستان دونمين، وعلاوة على النخيل هناك أيضًا مزارع الأرز، وأمّا في القطيف فإن مزارع النخيل تقدر ما بين ٨ - ١٠ آلاف مزرعة.

وتحدث عن نجد ومناطقها كالرياض وعنيزة وبريدة وجبل شمر ومزارعهم القليلة، وحاجتهم الماسة لمحاصيل مزارع الأحساء والقطيف. وغيرهم من الأعمال.

أثر الحملة على بلدان المنطقة "نجد، والبحرين، قطر:

الملاحق: وهي ترجمة عربية كاملة للرسائل والتقارير العثمانية المتعلقة بالحملة وهي أساس معلومات الكتاب مع صور من الوثائق العثمانية الأصلية وهي على ستة ملاحق. وأخذت حيز كبير من الكتاب.

صدر مؤخرًا كتاب مهم يتحدث عن المنطقة الشرقية وقراها في فترة تاريخية مهمة وحرارة في تاريخ الأحساء والقطيف واسم الكتاب "العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية، إيالة الحسا ٩٥٤ - ١٠٨٢ هـ / ١٥٤٧ - ١٦٧١ م) للمؤلف الدكتور عبدالكريم بن عبدالله المنيف الوهبي ويقع في (٥٦٤ ص) ط١ ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، والناشر المؤلف نفسه^(١).

(١) د. عبد الكريم بن عبد المنيف الوهبي: العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية، (إيالة الحسا ١٩٥٤ - ١٠٨٢ هـ - ١٥٤٧ - ١٦٧١ م).

والكتاب في الأصل أطروحة دكتوراة حيث تم تسجيل الأطروحة في البداية بعنوان "الحكم العثماني في الحسا ٩٥٤ - ١٠٨٢ هـ / ١٥٤٧ - ١٦٧١ م" ثم عدل العنوان باسم الكتاب ذلك لتغير مفهوم مصطلح الحسا في الوقت الحاضر لاسيما من حيث المساحة والحدود الإدارية.

وتعود أهمية الكتاب إلى بداية الفترات الحرجة بالنسبة للمشرق العربي حيث كان المد البرتغالي في أوج قوته وخاصةً في غربي الخليج العربي وسيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي بما فيه الأماكن المقدسة وأصبحت القوة الرئيسية في العالم الإسلامي مما حملها التصدي للبرتغاليين حيث قام البرتغاليون بالتحالف مع الصفويين خصوم العثمانيين.

وتبرز أهمية هذه الدراسة في إيضاح نظرة العثمانيين للأحساء والدور المنوط بها في إستراتيجتهم لمواجهة الخطر البرتغالي الذي يهدد شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق. وإلقاء الضوء على حقيقة الحكم للأحساء والخصائص والمرتكزات التي قام عليها وإيضاح الهيكل الإداري الذي تمت بواسطته إدارة العثمانيين للأحساء والتعرف على موارد المنطقة الاقتصادية وأهم الضرائب والرسوم التي فرضتها الدولة العثمانية على الأهالي لصالحهم، وبيان أهم مظاهر ذلك الحكم وتنظيماته المالية والعسكرية وتقسيماته الإدارية وبيان كيفية نهايته وصلته بالقوى المحلية وأثر تلك الصلة على مستقبل المنطقة لاسيما من الناحية السياسية وسوف أقوم بالتعريف بشكل مختصر قدر الإمكان بمحتوى الكتاب.

ينقسم الكتاب إلى عشرة فصول تناول:

الفصل الأول: نشأة الدولة العثمانية والأوضاع السياسية في غربي الخليج العربي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري من حيث أهم القوى المحلية في المنطقة....

الفصل الثاني: صلة العثمانيين بالحساء في النصف الأول من القرن العاشر الهجري من خلال علاقتهم بالحسا في عهد الإمارة الجبرية وموقفهم المساند لتلك الإمارة في صراعها مع البرتغاليين، وعلاقة العثمانيين بالحسا أثناء فترة حكم آل مغماس للمنطقة ودور العثمانيين في الصراع على السيادة على القطيف بين آل مغماس والبرتغاليين، ودوافع العثمانيين لضم الحسا لحكمهم المباشر.

الفصل الثالث: عالج المؤلف مسألة ضم الحسا للحكم العثماني ودور ضم البصرة للحكم العثماني المباشر في سيطرة العثمانيين على الحسا والكيفية التي تمت بها والمراحل التي مرت بها تلك العملية حتى استكمالها بضم القطيف سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م على أثر انتزاعها من البرتغاليين وبيان دور الأهالي في عملية ضم الحسا بما فيها القطيف، ثم استعراض سريع للمواجهات البحرية العثمانية البرتغالية في الخليج العربي ما بين سنة ٩٥٩ - ٩٦٢هـ / ١٥٥٢ - ١٥٥٥م وإيضاح أثر تلك المواجهات على الوجود العثماني في الحسا.

الفصل الرابع: يتناول هذا الفصل قيام إيالة الحسا وتعريف مفهوم التسمية وتنظيماتها الإدارية فقد قدم المؤلف لمحة عامة عن التنظيمات العثمانية ما بين سنة ٩٥٠ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٤ - ١٦٧١م كمدخل لتناول الإدارة العثمانية في الحسا ومعرفة مدى العلاقة بين التنظيمات العثمانية عامة وما تم تطبيقه من تنظيمات في الحسا ثم تطرقت الدراسة إلى المراحل التي مر بها التشكيل الإداري للحسا حتى قيام إيالة الحسا سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٤م وإلى حدود إيالة الحسا وأهم مظاهرها الجغرافية وتأثير ذلك على مرتكزاتها الاقتصادية كما تناول الجهاز الإداري الذي كانت الحكومة المركزية تديره بواسطة إيالة الحسا وأهم مناصب ذلك الجهاز، ومهام وصلاحيات كل منصب وأسماء بعض من عينوا في ذلك المنصب وتاريخ وفترة كل منهم.

الفصل الخامس: تحدث في هذا الفصل عن منصب أمير الأمراء وأهميته واعتباره الممثل للسلطان العثماني في الإيالة ودوره كحاكم عام للإيالة والغموض الذي يحيط بشاغلي ذلك المنصب في إيالة الحسا، وتم تخصيص هذا الفصل لاستعراض الأمراء الذين تولوا منصب أمير الأمراء في الإيالة أو ما يماثل ذلك المنصب.

الفصل السادس: يتناول التقسيمات الإدارية لإيالة الحسا مع استعراض ألوية الإيالة وبقية الوحدات الإدارية فيها. التي منها لواء الحسا ولواء القطيف ولواء صفوى ولواء الظهران وغيرهم.

يبرز النشاط السكاني في الإيالة وأهميته بالنسبة لموارد خزينة الإيالة ويتناول الإنتاج

الزراعي وأهم الضرائب التي يتم تحصيلها لحساب السلطة العثمانية والفئات السكانية التي تشملها تلك الضرائب والرسوم.

الفصل الثامن: يتعلق بالتطبيقات المالية ويعالج مسألة تطبيق النظام الإقطاعي في إيالة الحسا...

الفصل التاسع: يختص بالتطبيقات العسكرية في الإيالة من حيث التشكيلات العسكرية التي تكونت منها قوات إيالة الحسا، والتعريف بأسطول الحسا ودرجة قوته ونوع المهام الموكلة إليه وصلته بأسطول إيالة البصرة.

الفصل العاشر: اختص بتنامي دور الإدارة المحلية في إيالة الحساء من حيث عوامله ونتائجه وصلته بالتطورات التي حدثت في الإيالات العثمانية المجاورة، ومن ثم تناول نهاية الحكم إيالة الحسا والتداعيات التي ساهمت في ذلك، وصلة السلطة المركزية العثمانية بالقوى المحلية التي استولت على السلطة في الحسا.

وانتهت الدراسة بخاتمة توضح أبرز النتائج التي توصلت إليها وبعدد من الملاحق المتعلقة ببعض الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف في دراسته. وفي نهاية الكتاب وضع المؤلف ثبت بالمصادر والمراجع التي اعتمد عليها وهي متنوعة من وثائق عثمانية ووثائق محلية ولوحات تأسيسية ووثائق برتغالية في الأرشيف الوطني البرتغالي بلشبونة. ومخطوطات عربية وعثمانية، وكتب ومراجع عربية وعثمانية وأجنبية ودوريات وبحوث غير منشورة. والكتاب جيد جدير بالاعتناء.

الدولة العثمانية وإقليم الأحساء:

ترجع علاقة الدولة العثمانية بالأحساء إلى عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م عندما دخلها جيش عثماني قادم من البصرة، في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني (المشروع). ثم استخلصها من العثمانيين عام ١٠٨١هـ الموافق لعام ١٦٧٠م براك بن غرير بن عثمان بن سعود آل حميد من بني خالد، الذي طرد الحامية العثمانية من الأحساء، وظلت السلطة في أيدي بني خالد، حتى دخلت الأحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م.

وظل الوجود السعودي في الأحساء حتى سقطت الدولة السعودية الثانية بعد وفاة الأمير

عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود، ومن ثم سادت الفوضى في المنطقة، حتى تطلع أهل الأحساء إلى من يحقق لهم الأمن والاستقرار، ويرفع عن كاهلهم تجاوزات الحكام المحليين في المنطقة، وتعنتهم في فرض الضرائب وجبايتها، وهنا وجد مدحت باشا الذي تعين والياً على العراق عام ١٢٨٦هـ الموافق لعام ١٨٦٩ الفرصة المواتية لإقناع الباب العالي بتسيير حملة عسكرية لاحتلال الأحساء، وبالفعل سارت الحملة صوب الأحساء يقودها "نافذ باشا" وكان الهدف منها هو تمكين الوجود العثماني العسكري في الأحساء، والانطلاق منها إلى مناطق الخليج الأخرى.

كانت إستراتيجية مدحت باشا إقامة سيطرة عثمانية في منطقة الأحساء يشرف منها على بقية مشيخات الخليج ويحقق بها وجود عثمانياً في منطقة الخليج العربي ينطلق منه إلى البحار المفتوحة، وخاصة وأنه واكب وجود مدحت باشا والياً في العراق افتتح قناة السويس للملاحة العالمية، ومن ثم تطلع إلى تسيير خطوط ملاحية بحرية بين شط العرب في العراق والبحر الأحمر والبحر المتوسط وأوروبا إلى استانبول مركز الدولة العثمانية وعاصمتها.

فهل تحققت إستراتيجية مدحت باشا هذه، وما هي الصعوبات التي واجهت خطته سواء بالنسبة لمنطقة الأحساء وللمنطقة الخليج العربي؛ بل ولمشروع الخطوط البحرية بين شط العرب والعالم، هذا ما سوف نستجليه في الصفحات التالية، خاصة بعد أن غادر مدحت باشا الأحساء في عام ١٢٨٩هـ / أوائل عام ١٨٧٢م.

الحكم العثماني للأحساء قبيل ضم ابن سعود لها^(١)؛

ما أن عبر أهالي الأحساء عن استيائهم من الفوضى التي سادت المنطقة وأبدوا تطلعاتهم إلى من يحقق الأمن لهم والاستقرار، ويرفع عن كاهلهم تجاوزات الحكام المحليين في المنطقة، وتعنتهم في فرض الضرائب وجبايتها حتى وجدها مدحت باشا فرصة مواتية لإقناع الباب العالي بتسيير حملته العسكرية إلى الأحساء^(٢) وبالفعل سارت الحملة صوب

(١) عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل: ميناء العقير في عهد الملك عبد العزيز، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق.

(٢) توجهت الحملة من العراق إلى الأحساء في غضون شهرين ووصلت رأس تنورة في ٢٥ مايو ١٨٧١م ومنها إلى القطيف التي سقطت دون مقاومة ثم اتجهت إلى المبرز والهفوف وكذلك الدمام وقلعة عنك وقد قام نافذ باشا بإجراء تنظيمات إدارية وعسكرية في الأحساء، إلا أن ظروف الحملة لم تساعد على استمرار الدور السياسي العثماني جيداً في الأحساء مما جعل مدحت باشا يقرر الذهاب بنفسه للأحساء. وقد استمر حكم العثمانيين للأحساء مضطرباً حتى استطاع ابن سعود ضمها لنجد عام ١٩١٤م أنظر. عبد العزيز الشعيل الوجود العثماني في الأحساء، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨، ص. ١٠٨ - ١٢٧.

الأحساء يقودها نافذ باشا وكان الهدف منها هو تمكين الوجود العثماني العسكري في الأحساء والانطلاق منها إلى مناطق الخليج الأخرى - كما ذكرنا.

وبدأت القيادة العسكرية للحملة في تنفيذ خطتها منذ أن وطئت أقدامها المنطقة، وكانت الظروف السياسية للمنطقة مهياة ليحقق الوجود العسكري العثماني أهدافه دونما عناء، لولا إصابة عدد كبير من جنود الحملة بالأمراض التي كانت تنتشر في المنطقة، الأمر الذي جعل مهمة الحملة تزداد صعوبة وتعقيداً وتلافيًا لتدهور محتمل قام نافذ باشا بتوجيه من مدحت باشا باتخاذ عدد من الإجراءات الوقائية ساعدت على تلاشي الفشل، وساهمت في تأمين قاعدة عسكرية عثمانية وزعت فيها القوات حسب أهمية المناطق^(١) حيث أصدر أمراً لكافة جنوده بعدم مبارحة القلاع والحصون تحسباً للمقاومات، كما استعان بجنود من أهالي المنطقة مقابل راتب شهري قدره ست روبيات، مستثمراً بذلك فرصة العوز والحاجة التي كان الأهالي يعانون منها^(٢).

إلا أن هذه الإجراءات التي لجأ إليها مدحت باشا لم تكن مجدية إلى حد ما ولم تقض على المشاكل التي كان قائد الحملة "نافذ باشا" يعاني منها، فضلاً عما كان لها من تأثير كبير على موقف الأهالي من الوجود العثماني ممثلاً في الحملة التي ظنوا أنها السبيل إلى الخلاص من مشاكلهم ومعاناتهم.

وإزاء هذا الموقف الحرج لجأ مدحت باشا إلى زيادة الأسطول العثماني في الخليج، متعللاً بأن حماية قناة السويس تستلزم زيادة القطع البحرية العثمانية في الخليج الأمر الذي دفع بريطانيا إلى الاحتجاج لدى الباب العالي، الذي أكد في رده على الاحتجاج بأن ارتباط الأحساء بولاية العراق هو الدافع من وراء ذلك^(٣).

ولكن الأمر ما لبث إن ازداد تعقيداً بعد أن اتصل "سعود بن فيصل بن تركي ببريطانيا مستعيناً بها ضد أخيه عبد الله ولكن بريطانيا لم تكن ترغب في الدخول في صراع داخلي بري وسط الجزيرة في المنطقة مما حدا بسعود إلى الاستجابة للمبادرة التي قام بها أخوه

(١) قدر بلى عدد القوات العثمانية الموجودة في الأحساء على النحو التالي: حامية القطيف (٥٠٠) جندي منهم (١٥٠ جندياً) مريضاً العقير = ١٥٠ جندياً قوات مساندة في الطريق = ٢٢٥ جندياً الأحساء وما حولها (٢٥٠٠) جندي منهم ١٠٠٠ مريض المجموع ٣٣٧٥ - مجموع المرضى (١١٥٠) انظر: عبد العزيز الشعيل الوجود العثماني في الأحساء، سبق ذكره، ص ١٢٥.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار «تاريخ العرب الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ص ٤٢٢.

(٣) حسين محمد القهواني: دور البصرة التجاري، ص ١١٦.

عبد الله بعد أن فقد الأمل في الدولة العثمانية التي لم تحقق رغبتة وطموحه^(١).

وإزاء هذه الأحداث المتلاحقة بدت السلطة العسكرية في الأحساء أعجز عن أن تحقق أهدافها أو تنقذ الوضع الآخذ في التردّي، مما حدا بمدحت باشا إلى دعم القوة العسكرية في الأحساء، فقام في ٢٨٨هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٧١م بقيادة كتيبة قوامها ٣٠٠ جندي نزلت ميناء العقير بعد أن فقدت الحاميات العسكرية في القطيف... وقد سلك مدحت باشا في وصوله العقير طريق البحر مخالفاً بذلك الطريق الذي سلكه "نافذ باشا" مع جنوده، وذلك خشية أن يكون الطريق غير آمن وما أن وطأ مدحت باشا "ميناء العقير" حتى قام بإجراء التعديلات اللازمة لتقوية قوته البحرية، فضم بعض السفن التجارية إلى ترسانته، كما استعان ببعض القوارب الصالحة للعمل في المياه الضحلة التي يتميز بها ميناء العقير. وكانت تلك الإجراءات بمثابة مؤشر أكيد على أن "مدحت باشا" يرمى إلى القيام بعمل عسكري بحري ينطلق من ميناء العقير كقاعدة بحرية في مقابل استخدام بريطانيا للبحرين^(٢).

كما قام "مدحت باشا" بإلغاء السلطة الشرعية الممثلة في حكم "عبد الله بن فيصل بن تركي" عندما حدد له خمسة عشر يوماً كحد أقصى - يتوجه خلالها على الأحساء، وإلا اعتبره متنازلاً عن الحكم بعد تلك المدة^(٣).

أما الوضع الإداري في المنطقة فقد ارتبط بالاستقرار السياسي المباشر الذي حكمت المنطقة بموجبه عسكرياً، وهنا الوضع لم يألفه الأهالي، وقد أدرك "مدحت باشا"، فأوكل بعض الأمور الإدارية إلى بعض الأفراد في مناطقهم لتتفرغ الحملة لاستكمال خطتها. إلا أن ذلك لم يكن ليجد من ردود فعل السكان الذين أظهروا امتعاضهم في شكل انتفاضات وتمرد داخل المدن وخارجها، وقد استغل "ابن سعود" ذلك الشعور وراح يحث القبائل على المقاومة والتمرد وانضم له العجمان وآل مرة، ووصل الأمر إلى تجمع أكثر من سبعة آلاف من الأهالي في المدن ليعلنوا تحديهم للسلطة العثمانية في المنطقة الأمر الذي دفع القائد العثماني "رعوف باشا" إلى الاتصال بسعود بن فيصل بن تركي، خشية أن يقوم هو وأخوه - أو منفرداً - بهجوم على المنطقة، خاصة بعد أن أدى رحيل مدحت باشا إلى العراق تاركاً منطقة الأحساء، إلى فشل مشاريع التوسع التي كان مدحت باشا يهدف إلى تنفيذها، سواء في الخليج أو في اتجاه الرياض.

(1) (I. O. R.) L/P 85/20C238. P. 35.

(٢) عبد العزيز الشعيّل: الوجود العثماني في الأحساء.

(٣) مذكرات مدحت باشا: ص ٧.

ولكن التقارب السعودي العثماني ما لبث أن تآزم عندما أرسل سعود أخاه عبد الله إلى بغداد فاحتجز كرهينة ثم أطلق سراحه ١٣٠٢ هجرية / ١٨٧٤ ميلادية، حيث لم يكد يصل إلى الأحساء حتى تزعم الثورة ضد العثمانيين.

ومع تطور الأحداث الداخلية وزيادة الثورات في منطقة الأحساء لجأ العثمانيون إلى إسناد مهمة إخماد هذه الثورات إلى رؤساء القبائل والقيادات المحلية، وكان العثمانيون يهدفون من وراء ذلك إلى تحقيق غايتين: الأولى إخماد الثورات بما تسببه من إزعاج واضطراب للسلطة العسكرية في المنطقة، الثانية: القضاء على نفوذ القبائل بإضعافها عن طريق تنافر بعضها مع البعض الآخر دون التورط في مواجهتها أو تكبد أية خسائر في سبيل القضاء على نفوذها وقوتها، وقد أكد ذلك قيام السلطات العثمانية بسحب أغلب قواتها من المنطقة، حيث لم تبق فيها سوى فرقتين وذلك طبقاً للتغيرات السياسية في العراق ومتغيرات الخطط العامة للدولة العثمانية.

ويمكننا تقسيم فترة الحكم العثماني لمنطقة الأحساء إلى مرحلتين متميزتين:

المرحلة الأولى:

وهي مرحلة القوة السياسية والتي وضع أسسها "مدحت باشا" منذ أن وصل إلى الأحساء وقد اشتملت على إيجاد تغيير في التقسيم الإداري.

لولاية العراق والتي من ضمنها الأحساء^(١) وقد امتد العمل بهذا التقسيم الجديد إلى بداية تولي "ناصر باشا السعدون" متصرفية الأحساء، وتميزت تلك الفترة بإعطاء أهمية للتطبيقات الإدارية وذلك بربط الأوامر والقرارات بالسلطة العليا في الولاية، وذلك لتحقيق أمنيات الأهالي ووضعها موضع التنفيذ لتأكيد إقناعهم بالحكم الجديد، وربطت السلطة المدنية العسكرية في هذه المرحلة بيد المتصرف وقيل الأهالي بذلك أملاً في الاستقرار الذي لم يتحقق، مما أدى إلى نفورهم من الحكم خلال الأسابيع وقد أدى الخلاف مع عبد الله بن فيصل على السلطة - إلى تخوف الأهالي من السلطة الجديدة، وانعكس ذلك على أفراد الحملة وأضعف من قدرة القيادة على تطبيق النظم الجديدة مما قلل من رغبة الأهالي فيها.

المرحلة الثانية:

وهي مرحلة الضعف الإداري، وقد بدأت هذه المرحلة بأسلوب إداري جديد يتمثل في

(١) مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٧٠، ص ١٩٢.

الاستفادة من الأهالي في الحكم، إلا أن تلك الخطة الجديدة لم تحقق الرضا لدى الأهالي مما دفعهم إلى تغيير تلك الخطة وجاء التغيير موافقا لرغبة الدولة العثمانية في حفظ الاتفاق الذي دفع الولاة إلى العمل لمصالحهم الشخصية، إضافة إلى أن الدولة العثمانية أخذت تفقد قوتها وسيطرتها على أطراف الإمبراطورية ولعل أبرز مظاهر هذه المرحلة هو كثرة التعيينات للولاة لفترات قصيرة ومحدودة وغير مقيدة بتعليمات سياسية إصلاحية، فضلا عن تعيين ولاة تنقصهم الخبرة والدراية بأساليب الحكم والإدارة في المنطقة، إضافة إلى الاستعانة ببعض القبائل لمواجهة البعض الآخر، مما عمق الفرقة وضاعف المشاكل^(١) ودفع الأهالي إلى القيام بثورات واضطرابات ضد الحكم بل والاعتداء في بعض الأحيان على القوات الحكومية كما أظهر الأهالي عزوفهم عن الحكم العثماني وذلك بدعوتهم للإمام عبد الله بن فيصل بن تركي إلى المنطقة.

ومن الملامح البارزة للحكم في تلك الفترة أنه أوكل إلى الأهالي بعض الوظائف الرسمية وذلك لكسب الود وتكوين الولاء للدولة وتأتي الضرائب وكثرتها كملح أخير متميز من ملامح هذه الفترة حيث بلغ عدد الضرائب إلى أكثر من ثمانين ضريبة وذلك لتمكن الحكومة من حفظ الاتفاق مع الولاة الأمر الذي لم يطق الأهالي تحمله وواجهوه بالإضراب عن الدفع احتجاجا على كثرة الضرائب وزيادتها وتكرارها^(٢).

وهناك مظهرا آخر من مظاهر تأثر الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمتغيرات السياسية في المنطقة نلمسه في شيوع استخدام أكثر من نوع من النقود في المنطقة، حيث التعامل بالنقود لا عثمانية مقتصرًا على التعامل الرسمي فقط، أما التعامل فيما بين الأهالي فكان يتم بعملات أخرى كما شاع التعامل بنظام المقايضة خاصة بين البدو وعلى الرغم من أن الدولة لم تطبق نظام الأراضي في المنطقة، فإنها استطاعت أن تحقق زيادة في الموارد الاقتصادية عن طريق تشجيع الزراعة وزيادة الموارد المحلية الزراعية، إلى الدرجة التي حققت فيها المنطقة اكتفاء ذاتيا في الموارد الزراعية في المرحلة الأولى من مرحلتى الحكم العثماني سالفتي الذكر وقد ظلت المنطقة تستخدم عددا من الأساليب التقليدية في تعاملها التجاري، وذلك طبقا لنظام المقايضة المنتشر قبل تواجد العثمانيين في الأحساء.

ولسنا في حاجة بعد هذا الطرح إلى إعادة التأكيد على أن التواجد العثماني في الأحساء جاء مخيبا لطموحات الأهالي التي كانت تأمل في أن يأتي معه بالأمن والاستقرار المفتقدين

(١) عبد العزيز الشعيل: المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) نفسه: ص ١٦٥.

بل إن التواجد العثماني في الأحساء لم يحقق طموحات وأهداف أنفسهم كما تبين لنا من العرض السابق بذلك.

جذور العلاقات بين العثمانيين وأقطار الخليج العربية:

لم تكن الاتصالات السعودية العثمانية في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود هي الأولى في تاريخ الدولة السعودية، وإنما جرت اتصالات، وقامت علاقات سلمية وأخرى حربية في عهد الدولتين السعوديتين: الأولى والثانية. وظلت طبيعة هذه العلاقة قائمة على مبدأ عدم الانسجام والتوافق والمصالحة، وظل قوامها الشك وعدم التقابل، مما ساهم إلى حد كبير في قيام حروب مريرة بين الطرفين، تمثلت في حروب الدولة العثمانية مع كل من الدولة السعودية الأولى والدولة السعودية الثانية والدولة السعودية الحديثة.

وليس غريباً أن يقوى موقف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية من خلال سيطرة آل رشيد على نجد في أواخر عهد الدولة السعودية الثانية، وبعد سقوطها عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م؛ لأن آل رشيد ظلوا على ولاء للدولة العثمانية حتى هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تؤيد آل رشيد وتدعمهم بالسلاح والقوات النظامية والأموال، وظلت تمنحهم المناصب العليا وترفع من شأنهم.

ولا أحد ينكر أن الدولة العثمانية أصيبت بخيبة أمل ومرارة وضعف من جراء انحسار تأثيرها على شيخ الكويت بعد أن أصبحت الكويت تحت الحماية البريطانية عام ١٣١٨هـ / ١٨٩٩م، مما أفقد الدولة العثمانية مراقبة آل سعود المقيمين في الكويت من جهة، وضعف مركزها الإستراتيجي في الخليج من جهة أخرى. ولا يغيب عن بالنا الخطة الإستراتيجية البريطانية المنظمة في إحكام القبضة البريطانية على ساحل الخليج العربي والأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، وقد سبب هذا المخطط البريطاني حرجاً للنفوذ العثماني في المنطقة، وكان سبباً في ضعف قبضة الدولة العثمانية على سنجد الأحساء، لانقطاع صلة الربط بين هذا السنجد وولاية البصرة العثمانية من جراء انسلاخ الكويت من المنظومة السياسية العثمانية وتأثيرها.

وعلى الرغم من حرج موقف الدولة العثمانية في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، إلا أنها ظلت مطمئنة على الأوضاع في نجد خاصة بعد تزايد قوة آل رشيد فيها، وولائهم المطلق لها. واعتماداً على مبدأ ولاء آل رشيد للدولة العثمانية ظلت الدولة العثمانية تعد وجودها المؤثر في نجد قائماً من خلال الوجود السياسي لآل رشيد، وهو ما جعل العثمانيون يحاولون تركيز

نفوذهم في ساحل الخليج، وخاصة في الأحساء وقطر، تاركين شؤون الداخل لإدارة آل رشيد، موفرين على أنفسهم عناء جهد عسكري شاق وطويل ومجرب، وعناء وجود إداري مكلف ومرير. وقد أيد العثمانيون آل رشيد لكونهم قوة حديثة معادية لآل سعود.

الاتصالات السعودية العثمانية قبل استرداد الملك عبدالعزيز الأحساء:

نشطت الاتصالات السعودية العثمانية في مطلع القرن العشرين الميلادي بعد أن استرد الملك عبدالعزيز آل سعود الرياض عام ١٢١٩هـ/١٩٠٢م، وبعد إخراج آل رشيد من منطقة العارض والمناطق الجنوبية من نجد. فقد تبنى الملك عبدالعزيز وقتذاك موقفاً تجاه الدولة العثمانية اتسم بأسلوب الموازنة، فهو يركز تماماً على مبدأ الاستقلال التام لكنه في الوقت نفسه مازال في بداية الطريق بالنسبة لمشروعه الكبير الرامي إلى توحيد المناطق التي كانت أصلاً تابعة للدولتين السعوديتين المتعاقبتين الأولى والثانية. كما أنه ظل يقدر مدى نفوذ الدولة وطاقاتها في الولايات العثمانية المحيطة، ولهذا حاول في البداية أن تكون صلته بالدولة العثمانية واتصالاته معها قائمة على أساس يجمع بين الولاء الرمزي لها وبين المطلب الاستقلالي الذي يعمل من أجله. وكان غرض الملك عبد العزيز آنذاك هو تقليل الضغط العثماني عليه من خلال محاولة تحييد الموقف العثماني في نزاعه الحاد وحروبه المريرة مع آل رشيد.

والواقع أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم يكن وقتها في موقف يسمح له بمعاداة الدولة العثمانية بشكل علني وصريح لأن موقفه السياسي والحربي ما زال في بدايتهما وخاصة بعد وقعة البكيرية عام ١٢٢٢هـ/١٩٠٤م، التي اشترك فيها جيش عثماني قوامه أحد عشر طابوراً يحارب إلى جانب آل رشيد الملك عبدالعزيز آل سعود، بالإضافة إلى الدعم العثماني المادي والمعنوي لآل رشيد بهدف القضاء على القوة السعودية الحديثة والنشطة.

وقد بان الموقف العثماني من الملك عبدالعزيز آل سعود بعد وقعة البكيرية من خلال ما ورد في رسالة الأميرالاي حسن شكري أميرالاي الجيش العثماني الذي وصل إلى القصيم لمساعدة الأمير الرشيد عبدالعزيز بن متعب آل رشيد بعد انتهاء وقعة البكيرية، جاء فيها: "... أن الخليفة الأعظم بلغه اضطراب الفتنة في بلاد نجد، وأن يداً أجنبية محركة لها... فأنا أنذرك إذا لم تأتتا وتبين الأسباب التي حملتك على إضرار هذه الفتنة بدون مراجعة أي ولاية من ولايات الدولة، واقتصارك على مراجعة صاحب الكويت، وأخذ المدد منه، وأنت تعلم علم اليقين أنه خارج عن طاعة الدولة، وما كان منك الالتئام معه... فها أنا مقيم بأطرافكم إما أن تقدموا إليّ وإما أن تستقدموني وتعرضوا عليّ ما عندكم لأنظرفيه

مع أمراء عساكري، وأسير في الحكم طبق إرادة مولانا الخليفة... فإياكم والمخالفة...
وأعطيك مدة عشرة أيام تشاور بها القريب والبعيد، وتختار لنفسك ما يصلح لها.

وجاء جواب الملك عبدالعزيز عن رسالة الأميرالاي حسن شكري قوياً جداً، فيقول: "...
أما قولك إن أمير المؤمنين بلغه خبر أمر هذه الفتنة في البلاد العربية وما هان عليه إلا
إصلاحها، فسبحان الله! هل تخفى عليه حقيقة الأحوال؟ إنه هو المضرّم لها، وهي غاية
مقاصده. وما الحامل لمبارك الصباح على التحيز إلى دولة أجنبية إلا سوء أفعال محسن
باشا والي البصرة، فهو الذي نفره وأضرّم هذه الفتنة، ولذلك لم تبق لي ثقة بوال أو مبعوث
تركي. وإنني مختار لنفسي ما اختاره مبارك الصباح، والأحسن رجوعك من هذا المكان...
وأما قولك إن الخليفة المعظم بعثك لتتظر الخلاف بيني وبين آل رشيد، فليس إلا لأنكم
تريدون غدر إمارتي. ولو كان الأمر كما زعمت لكنت نظرت في بادئ الأمر لمن تكون
بلاد نجد، ولمن كان الأمر عليها من قديم، ومتى كان ابن رشيد أميراً فيها، وكيف
دخل هذه الإمارة؟ وأحواله لا تخفى عليكم، وليس له حق في المنازعة.

ويبين الملك عبدالعزيز في رسالته الجوابية إلى الأميرالاي حسن شكري أنه لا يثق
بالدولة العثمانية، ويحمل ولائها مسؤولية خروج الكثير من الجهات والولايات العربية عن
الدولة العثمانية، فيقول في رسالته: "...وأما الآن فلا نقبل لكم نصيحة، ولا نعترف لكم
بسيادة، والأحسن أنك ترجع من هذا المكان إذا كنت لا تود سفك الدماء... فلا شك أننا
نعاملك معاملة المعتدين علينا... وأن سبب عدم طاعتي هو عدم ثقتي بكم. انظر إلى ولاية
البصرة كيف فرطت في الكويت؟ وإلى والي اليمن كيف سلوكه في اليمن فإنه أضرّم
فيها الفتنة، وانظر إلى الحجاز وأهله التعساء وما يلاقونه هم وحجاج بيت الله الحرام من
السلب والنهب...". ويخلص الملك عبدالعزيز إلى القول: "...إن كل العمال الذين رأينا،
إنهم خائنون منافقون. فلا طاعة لكم علينا، بل نراكم كسائر الدول الأجنبية".

وبناءً على مبدأ عدم استقرار الوضع العسكري في القصيم وتأرجحه، فإنه لا يستبعد أن
يهتم الملك عبدالعزيز آل سعود بفكرة التقارب مع الدولة العثمانية لتكون خطوة مرحلية
من مراحل الحل الشامل للتدخل العثماني في شؤون نجد. كما أن الإمام عبدالرحمن
بن فيصل آل سعود، والد الملك عبدالعزيز كان يرى ضرورة الاتصال بالدولة العثمانية
ومراسلتها لتكون خطة سياسية الهدف منها إشغال الدولة العثمانية بالمفاوضات، وإقناعها
بأن آل سعود يودون الصلح والتقارب معها، مما يخفف ضغطها على الجانب السعودي في
حروب القصيم، ومن ثم تضعف قوة آل رشيد ويتهياً تفوق عسكري لآل سعود عليهم. والواقع

أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم تكن لديه خطة لمعاداة الدولة العثمانية في مثل هذه الظروف الصعبة ، وظل هذا خياراً إستراتيجياً للملك عبدالعزيز ووالده الإمام عبدالرحمن قبل استرداد الأحساء عام ١٢٣١هـ/١٩١٣م.

وحدث عامل قوى مسألة الاتصالات والمفاوضات بين الملك عبدالعزيز والدولة العثمانية ، وهو انتصار الملك عبدالعزيز في موقعة الشنانه في القصيم في ١٨ رجب ١٣٢٢هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٩٠٤م ، تلك الوقعة التي كانت جواباً سريعاً لما حدث في وقعة البكيرية. فرأت الدولة العثمانية أن لا فائدة ترجى من حملاتها المتكررة على الملك عبدالعزيز وقواته ومناطقه بالتعاون مع آل رشيد. فحاولت أن تأخذ بأسلوب المفاوضات والاتصالات السلمية بعدما وجدت أن الأسلوب العسكري غير مجدٍ ، فقررت إتباع سياسة إقناع الملك عبدالعزيز بالمناسب العثمانية التي تضمن ارتباطه بها ، خاصة وأن بوادر الحرب العالمية الأولى قد لاحت في الأفق ، والدولة الآن في أمس الحاجة إلى الأعوان والأتباع والمؤيدين ، ليتفرغ جيشها لقضايا أكثر اهتماماً. وهنا تلتقي الرغبتان العثمانية والسعودية على الرغم من أن الملك عبدالعزيز لا يثق بالدولة العثمانية ونواياها ، كما أن الدولة العثمانية هي الأخرى لا تثق به.

وفي اعتقادي أن محاولة التقارب هذه تدخل في باب المجاملات السياسية؛ لأن الدولة العثمانية نفسها غير صادقة في نواياها تجاه الملك عبدالعزيز ؛ لأنه يطلب الاستقلال التام ، وهو أمر لا تقره الدولة. وبالمقابل فإن الملك عبدالعزيز يرى أن عامل الزمن لصالحه من خلال قراءته لأوضاع الدولة العثمانية من جهة ، والأوضاع السياسية والعالمية من جهة أخرى ، وظل يعتقد أن الدولة العثمانية دولة متهاوية ، وأن قوة اتباعها آل رشيد أيضاً في تناقص. كما أن اهتمامها بشؤون نجد يأتي في الدرجة الثانية في جدول المناطق التي تركز الدولة عليها وتهتم بها. وهذه الظروف مجتمعة حدت بالملك عبدالعزيز إلى صياغة قراره السياسي المصيري تجاه الدولة العثمانية.

وبعد موقعة الشنانه جاءت مبادرة المفاوضات من الدولة العثمانية قبل أن تكون من جانب الملك عبدالعزيز ، وفي اعتقادي أن الثقل العسكري الذي وضعتة الدولة العثمانية في القصيم إلى جانب آل رشيد ضد آل سعود كان من أجل تقوية موقفها في تلك المفاوضات؛ لأنه من الصعب على الدولة العثمانية أن تخوض حروباً واسعة في أراضي الجزيرة العربية الداخلية ، فرأت أن توسط الشيخ مبارك الصباح في مسألة المفاوضات مع الملك عبدالعزيز ، فطلبت من الشيخ مبارك أن يبلغ الملك عبدالعزيز أن الدولة العثمانية

تتوي التفاوض السلمي مع والده الإمام عبدالرحمن، على أن يلتقي الإمام عبدالرحمن مع والي البصرة في بلدة الزبير جنوب العراق. وقد قبل الملك عبدالعزيز الدعوة، وسافر والده إلى الكويت ومنها إلى الزبير يرافقه الشيخ مبارك الصباح. واجتمع الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت مع أحد المسؤولين العثمانيين في سفوان، جنوب العراق عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م لمناقشة عدد من المسائل المعلقة بين الطرفين. وقد تمخضت المحادثات عن اعتراف الدولة بعبدالعزيز آل سعود قائماً على منطقة العارض والقسم الجنوبي من نجد، على أن يكون تابعاً لها. واعترفت لابن رشيد بمنطقة جبل شمر على أن يلزم حدوده فيها، وألا يتدخل في شؤون عبدالعزيز آل سعود ومناطقه. وأن تكون منطقة القصيم منطقة محايدة بين عبدالعزيز آل سعود وابن رشيد، ويكون فيها للدولة العثمانية مركز عسكري ومستشارون عثمانيون.

ويذكر الريحاني أن الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود لم يقبل بهذه الإجراءات، لكنه قبل إكراماً للشيخ مبارك أن يعرضها على أهل نجد، لكن أهل نجد لم يقبلوا ألبتة أن تكون منطقة القصيم على الحياد، ولا أن يكون فيها حامية للدولة العثمانية. وأكد الريحاني ذلك فأورد أن أهالي بريدة وعنيزة وتوابعهما من القرى والبلدان لم يقبلوا بالسيادة العثمانية أو بشبه السيادة العثمانية عليهم عندما وصل بلادهم المشير العثماني أحمد فيضي باشا قادماً من بغداد ومعه ثلاثة طوابير من الجند العثماني النظامي وخمسة مدافع، وكذلك وصول الفريق صدقي باشا قادماً من المدينة بطابورين من الجند العثماني. وعلى أي حال فإن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة، وظلت بعيدة عن القبول والتنفيذ.

أرسل فيضي باشا رسولاً إلى الرياض يخبر الملك عبدالعزيز آل سعود أن الدولة العثمانية لا تريد محاربة أهل نجد، وأنه جاء مسالماً "إنني لا أريد إلا السلم، ولست محققاً مقاصد ابن رشيد". وطلب فيضي باشا أن يأتي الإمام عبدالرحمن إلى عنيزة لمفاوضته، فوافق الملك عبدالعزيز على إجراء المفاوضات، وفتح باب الاتصالات من جديد مع مسؤولي الدولة العثمانية. ونلاحظ هنا أن الدولة العثمانية هي البادئة في طلب المفاوضات بعد الخسائر الكبيرة التي منيت بها في تجربتها العسكرية في حروب القصيم ضد الملك عبدالعزيز وقواته.

وهكذا حدث لقاء سعودي عثماني جديد بين الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والمشير العثماني فيضي باشا في عنيزة، في شأن إيجاد نوع من المصالحة والتفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود من جهة؛ وبين الملك عبدالعزيز وابن رشيد من

جهة أخرى. وكان هدف الدولة العثمانية من وراء ذلك إيجاد نوع من التوازن السياسي في إستراتيجيتها في البلاد النجدية تجاه كل من الملك عبدالعزيز وابن رشيد، بقصد ضمان طاعتها للدولة، خاصة وأن الدولة العثمانية وقتذاك كانت تواجه ثورة عنيفة في اليمن قادها الإمام يحيى حميد الدين، وظلت الدولة تهتم بأن تبقى نجد مستقرة الأوضاع في ظل سيادتها الاسمية على الأقل.

اجتمع الإمام عبدالرحمن مع أحمد فيضي باشا في مدينة عنيزة، وطلب المشير من الإمام أن يكون للدولة العثمانية مركزان عسكريان أحدهما في بريدة والثاني في عنيزة، إجراءً مؤقتاً إلى أن يتم التفاهم والصلح بين الطرفين المتقاتلين في نجد، آل سعود وآل رشيد. وفي خضم هذه الأحداث أمرت الدولة العثمانية المشير أحمد فيضي بالتوجه إلى اليمن لحل مسألتها المستعصية. وناب عنه صدقي باشا الذي اتبع أسلوب سياسة لا حرب ولا سلم ولا مفاوضات. وظل أمر نجد على حاله ممّا أزعج الدولة العثمانية، فأرسلت سامي باشا الفاروقي إلى نجد، وعزلت صدقي باشا. فأرسل سامي باشا الفاروقي إلى الملك عبدالعزيز يطلب مقابله في البكيرية، فقابله الملك، ولم يتوصل الطرفان إلى تفاهم، بل تناقرا. وزادت حدة المواجهة عندما قال الفاروقي لعبدالعزيز آل سعود: "إن أهل القصيم يريدون أن تكون السيادة في بلادهم للدولة". فأجابه عبدالعزيز آل سعود: "ليس لأهل القصيم رأي في الأمر، فهم من أتباعي". فأجابه الفاروقي قائلاً: "التابعة تقتضي الحماية، وأنت لا تستطيع أن تحميهم، ولا ابن رشيد يستطيع ذلك". فرد عبدالعزيز آل سعود: "هل حمتهم الدولة؟ ومع ذلك فما زعماء القصيم في مجلسك، أسألهم يجيبوك. وتكلم أحد زعماء القصيم قائلاً: "إن صالح الحسن افتري عليهم (على أهل القصيم)، وأنه لا يمثلهم بشيء، وأنهم لا يرضون عن ابن سعود بديلاً". وقد لجأ الفاروقي إلى أسلوب التهديد والوعيد قائلاً: "إنكم يا أهل القصيم تجهلون صالحكم وتتوهمون حقوقاً ليست حقوقكم... ما جئنا نسترضيكم ولا نستغويكم. جئنا نعلمكم الإخلاص والطاعة للدولة العلية. ولا معلم اليوم غير السيف". فتكلم الملك عبدالعزيز قائلاً: "إني آسف على ما بدا منك، بل آسف؛ لأن الدولة تكل أمورها إلى أمثالك. ما كان العرب يا سامي ليطيعون صاغرين، لا والله، ولولا أنك ضيف عندنا لما تركناك تقوم من مكانك".

ويبدو أن الفاروقي فهم أن أسلوب القوة والعنف والتهديد لا ينفع، فأرسل رسولاً إلى الملك عبدالعزيز اسمه دياب أبو بكر يقول له: "يسلم عليك الباشا، ويقول إن الدولة تدفع لك عشرين ألف ليرة ومخصصات سنوية إذا اعترفت بسيادتها على القصيم". فأجاب الملك

عبدالعزیز آل سعود: "أتجاسر يا خبيث أن تحمل إلينا مثل هذه الرسالة؟ ألم يردك شيم العرب؟ ومتى كان ابن سعود يقبل الرشوة، فيبيع بلاده ورعيته لمن يريدون استرقاقها...".

وقد تطورت الأمور إلى الأفضل بالنسبة للملك عبدالعزیز عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، فأخذ يضغط على القوات العثمانية في القصيم ضغطاً نفسياً، خاصة وأن القوات العثمانية ملت من الحروب والانتظار، وملت من حالة لا حرب ولا سلم، في ظل أجواء مملوءة بالخوف، وعدم الاستقرار، وسوء الأحوال الجغرافية، والبعد عن مراكزهم. فقرر الملك عبدالعزیز أن يتخلص من القيادة العثمانية والجند العثماني وتدخلاته، وقرر أن يضرب ضربته الأخيرة، فأرسل إلى الفاروقي يخبره بأمرين: إما أن يرحل بجيشه خلال خمسة أيام إلى منطقة السر ليكون بعيداً عن مراكز قوة ابن رشيد، وإما أن يتولى الملك عبدالعزیز نفسه ترحيل الجيش العثماني، فيعاد من جاء منهم مع المشير أحمد فيضي إلى العراق، الذين جاءوا مع صدقي باشا إلى المدينة، وإلا الحرب. وافق الفاروقي على الأمر الثاني، فأرسل الملك عبدالعزیز الجند العثماني إلى العراق وإلى المدينة كما هي الخطة المرسومة.

ويذكر الريحاني أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني شكر للملك عبدالعزیز معاملته الطيبة للجند العثماني، وسأله إن هو يرغب في إرسال أحد رجاله لمقابلته، فلبى الملك عبدالعزیز الدعوة، وأرسل صالح العذل ومعه اثنين آخرين إلى الآستانة، فنزلوا ضيوفاً على الحضرة الشاهانية، ومنحوا الألقاب والنياشين.

ونتوصل إلى قناعة تامة أن المفاوضات والاتصالات السعودية العثمانية في حقبة ما قبل استرداد الأحساء، كانت قد اتسمت بالآتي:

- ١ - لم تكن المحادثات بين الطرفين جادة، بل هي محادثات واتصالات يغلب عليها مبدأ رفع العتب.
- ٢ - لم يكن الطرفان المتحادثان يتوقعان نتائج ترضيهما، فالدولة العثمانية تريد طاعة الملك عبدالعزیز وبلاده لها. وبالمقابل كان الملك عبدالعزیز آل سعود يخطط لإنجاز مشروع عريض يرمي إلى توحيد مناطق الجزيرة العربية التي كانت تابعة لحكم أجداده، وبشكل مستقل استقلالاً تاماً.
- ٣ - لم يكن الملك عبدالعزیز مقتنعاً من حياد الدولة العثمانية في نزاعه مع آل رشيد، وهو أمر يشككه في موقفها تجاهه.
- ٤ - ظلت الدولة العثمانية وكذلك الملك عبدالعزیز يريان في اتصالاتهما ومحادثتهما وسيلة

مؤقتة أشبه بهدنة بين الطرفين، لا بد من انفجار الموقف بينهما برمته مع الزمن.

٥ - كان الملك عبدالعزيز يعرف مدى ضعف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، حتى إن تأثيرها أخذ يضعف في المنطقة، وبخاصة في المناطق الشرقية من الجزيرة العربية تحت تأثير الضغط السعودي من جهة، وتدخلات بريطانيا وموقفها المؤثر من جهة أخرى.

٦ - يغلب على المحادثات والمفاوضات بين الطرفين أنها اتسمت بطابع الند للند، لا وسيط مباشر بينهما.

الاتصالات السعودية العثمانية بعد استعادة الأحساء:

تميزت مرحلة الاتصالات والمفاوضات السعودية العثمانية بعد استعادة الأحساء عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م عن المرحلة التي سبقتها، بأن الاتصالات السعودية العثمانية في هذه المرحلة كانت استجابة لرغبة الدولة العثمانية الملحة في جعل الباب مفتوحاً بينها وبين الملك عبدالعزيز آل سعود، في ظل فقدانها منطقتين مهمتين من الجزيرة العربية هما: نجد وسنجد الأحساء، الذي يتمتع بمركز إستراتيجي وسياسي واقتصادي. فهي الآن تفتح باب المفاوضات وقواتها مهزومة عسكرياً أمام القوة السعودية الناشئة، على حين كانت الدولة العثمانية تفاوض في المرحلة السابقة وهي قوية نسبياً، ولها قوات نظامية في منطقة القصيم، وتناصرها قوة آل رشيد.

وقد تميزت هذه المرحلة من الاتصالات والمفاوضات، بأن قوة الملك عبدالعزيز أصبحت أقوى بكثير مما كانت عليه في مرحلة المفاوضات السابقة. فهو الآن يمد نفوذه على مناطق واسعة، منها منطقة الأحساء التي قوت مركزه السياسي بفضل إطلاها على الخليج، فأصبح للملك عبدالعزيز قوة مؤثرة في الساحل الشرقي للجزيرة العربية بحسب حسابها في مسألة التوازن السياسي في الساحل، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي الفاعل في تقوية الدولة السعودية الحديثة النامية والمتطورة.

وتميزت هذه المرحلة كذلك بأن الاتصالات والمفاوضات السعودية العثمانية لم تبق محصورة في نطاق الطرفين السعودي والعثماني، وإنما لعبت قوى سياسية أخرى دوراً في هذه الاتصالات، وتأتي بريطانيا على رأس ذلك، بالإضافة إلى شيخ الكويت وشيخ المحمرة والسيد طالب النقيب، وقد شكل هؤلاء حلقة وصل رئيسية في تلك الاتصالات، وما دار من مفاوضات بين الطرفين الرئيسيين السعودي والعثماني. وكان لهذه التدخلات

أهميتها وتأثيرها على سير المفاوضات ونتائجها. كما تميزت هذه المرحلة بأنها جاءت في وقت أصبحت فيه الحرب العالمية الأولى وشيكة الوقوع، وأن بوادرها تلوح في الأفق السياسي. وأن مركز الدولة العثمانية قد ضعف في المنطقة العربية وخاصة في العراق، من خلال جهود بريطانيا الرامية إلى تقليص النفوذ العثمانية في المنطقة العربية، خاصة وأن الدولة العثمانية اتجهت صوب ألمانيا أهم دول المحور المعادية لبريطانيا والحلفاء.

ولا أحد ينكر أن مركز الدولة العثمانية في سنجق الأحساء كان قد ضعف كثيراً من جراء ظهور القوة السعودية الحديثة، وتطور نفوذها في وسط الجزيرة العربية. فتشير الوثائق العثمانية إلى حالة الفوضى والاضطراب التي سادت السنجق من جراء تمادي الموظفين العثمانيين المتأخرين في زيادة الضرائب غير المشروعة على الأهالي في السنجق، ومن جراء سوء الإدارة العثمانية والخلافات التي دبت في صفوف المسؤولين رأس الإدارة في السنجق، مما أدى إلى تملل السكان وتحركهم ضد السيادة العثمانية، واتصال بعضهم بالملك عبدالعزيز آل سعود لتخليصهم من الحكم العثماني، مما ساعد على تقوية مركز الملك عبدالعزيز، ومن ثم ساعد على نجاحه في طرد القوات العثمانية من المنطقة برمتها دون عناء، وبأقل تكلفة.

الوساطة البريطانية:

حاولت بريطانيا جس نبض كل من الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود بخصوص مسألة إقامة مصالحة، ومن ثم عقد صلح بينهما. وقد أسندت الدولة البريطانية إلى موظفيها السير برسي كوكس القيام بمهمة فتح الباب "وليعطي الدولة البريطانية فكرة ما عن الخطوة التي ستكون الحكومة التركية ميالة إلى اتباعها إذا رغبت في مصالحة مع ابن سعود إذا ما طلب الأخير مساعدتنا الحميدة أو رحب بها".

ويتبادر إلى الذهن سؤال لماذا تقوم بريطانيا بدور الوساطة هذه؟ والجواب عنه، أن بريطانيا والدولة العثمانية تسيران باتجاه طريق التفاهم بينهما بخصوص المسألة الخليجية، وخاصة مسألة الحدود، وقد تمثل هذا الاتجاه بتوقيع الاتفاقية الإنجليزية التركية عام ١٣٣١هـ/ ٢٩ يوليو ١٩١٣م. ومن جهة أخرى فإن بريطانيا والدولة العثمانية حريصتان كل الحرص في هذا الوقت بالذات على تطبيق مبدأ الوضع الراهن، خاصة وأن بريطانيا ترى في هذا المبدأ فائدة كبيرة لها؛ لأنها تحافظ على قاعدة التوازن الإستراتيجي في الخليج، ولهذا فهي تحاول جاهدة على بقاء الوضع الراهن على حاله؛ حتى لا يحدث خلل في سياسة التوازن هذه، وهي من ثم لا ترغب أن تقوم الدولة العثمانية بهجوم بحري على قوات الملك

عبد العزيز آل سعود في الأحساء؛ لأن هذا في تقديرها يخل بسياستها الخليجية.

وبالمقابل أخذت بريطانيا تشجع الملك عبد العزيز على فتح باب المفاوضات مع الدولة العثمانية حتى لا يتخلخل مبدأ الوضع الراهن. وكان الملك عبد العزيز آل سعود يرى أن فتح باب الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية فرصة له لإبقاء الأمور على حالها، وهو الآن يتمتع بمركز خليجي عال، ويكون بذلك قد أوقف خطة الدولة العثمانية الرامية إلى استرجاع الأحساء عن طريق هجوم بحري كبير ومركز قد يؤثر على مركزه العسكري والسياسي. فرأى أن من المفيد دبلوماسياً أن يقبل بالوساطة البريطانية في ظل المحافظة على الوضع الراهن، وهو أمر يخدم مصالحه ومواقفه السياسية والإستراتيجية.

وقد نالت مسألة الوساطة البريطانية في موضوع المصالحة بين الدولة العثمانية والملك عبد العزيز آل سعود قبول الدولة العثمانية ورضاهها معربة عن "شكر الباب العالي للعرض الودي من جانب حكومة صاحب الجلالة بهذا الشأن". وقد بين الباب العالي أنه يجري اتصالات ومفاوضات مع الملك عبد العزيز آل سعود "وأنه إذا دعت الضرورة إلى اللجوء إلى المساعي الحميدة لحكومة صاحب الجلالة فإن الباب العالي لن يتأخر في التماسها".

وكان التوسط البريطاني يقوم على أساس تشجيع الطرفين على إيجاد تسوية مرضية بينهما. وتشير الوثائق البريطانية أن بريطانيا لا تشجع أي منفعة سياسية ضد الدولة العثمانية، وأن كل ما تريده بريطانيا هو الحيلولة دون حدوث اضطرابات وسفك دماء؛ لأن هذا يؤثر بصورة خطيرة على السلام في منطقة الساحل العربي الخليجي، ويخل بسياسة الوضع الراهن، وسياسة التوازن التي تنشدها بريطانيا في منطقة الخليج التي تتمتع بنفوذ كبير فيها. وترى الحكومة البريطانية أنه إذا أقدمت الدولة العثمانية على عمل عسكري ضد الملك عبد العزيز في منطقة الأحساء فستقع قلاقل واسعة في مناطق شرقي الجزيرة العربية، ومن ثم هذا يؤثر على مركزها في تلك المنطقة. وقدمت الاستخبارات العسكرية البريطانية معلومات تفيد أن لنشأت ذات محركات قد سُحِنت إلى البصرة. وأن المقيم السياسي في الكويت قد أُبلغ أن قوات عثمانية عددها ٨٠٠ جندي وصلت إلى البصرة لتوها على ظهر الباخرة "ساراتوف" . .

أطراف أخرى في الوساطة:

رأت بريطانيا أن تشرك في الوساطة بين الدولة العثمانية والملك عبد العزيز آل سعود من أجل تسوية ودية بينهما كلاً من الشيخ خزعل شيخ المحمرة، والشيخ مبارك

الصباح شيخ الكويت والسيد طالب النقيب، نقيب البصرة. ووافق جميعهم على الطلب البريطاني. وكان السيد طالب النقيب من أنشطهم في هذا المجال، وكان له أثر بارز في الوساطة، وله مكانة مرموقة لدى المسؤولين العثمانيين في ولاية البصرة، وكان المسؤولون البريطانيون يقدرون مكانته، ويحترمون شخصيته.

وتشير الوثائق البريطانية أن الملك عبدالعزيز قدر للسيد طالب النقيب في نهاية الأمر وساطته هذه، فكافأه على هذا الموقف بأن قدم له مبلغاً قدره عشرون ألفاً روبية تثنياً لوساطته وتقديرًا لجهد. وكان المسؤولون العثمانيون ممثلين في ولاية البصرة مهتمين بأمر الوساطة والتسوية السلمية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فذكر طلعت باشا ناظر الداخلية أن الدولة العثمانية مهتمة بإيجاد تسوية ودية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، وأن والي البصرة يرتب هذا الأمر مع شيخي الكويت والمحمرة وكذلك مع السيد طالب النقيب ليقوموا بدور الوساطة في المساعدة في التوصل إلى صلح وسلام مع الملك عبدالعزيز آل سعود.

وأكد طالب النقيب على قبوله لتلك المهمة التي أسندت إليه، فيقول: "إنه والشيخ مبارك شيخ الكويت يسعيان إلى إيجاد نوع من التسوية بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود الذي يريد نوعاً من الزعامة المستقلة، لكنه يرفض وجود قوات عثمانية في بلاده، ومن المتوقع التوصل إلى حل سلمي". وتشير الوثائق البريطانية إلى أن ناظر الحرية العثمانية أنور باشا أرسل هدايا إلى كل من الملك عبدالعزيز آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت، لتكون دلالة واضحة على رغبة الدولة الأكيدة في معالجة الموقف بطرق سلمية وودية قدر الاستطاعة.

والواقع المائل أمام الملك عبدالعزيز أن الدولة العثمانية عازمة على الصلح معه مهما كان الثمن، وهي في الوقت نفسه لم تعر أي اهتمام متزايد في سبيل استرجاع منطقة الأحساء إلى سيادتها الحقيقية، كما كان الحال عليه قبل أن يستعيدوها الملك عبدالعزيز، وهو أمر شجع كثيراً الملك عبدالعزيز آل سعود في السير على النهج السلمي والودي تجاه الدولة العثمانية ممثلة بوالي البصرة، عداً للاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية إنما هي إجراءات عادية، وأن الوقت لصالحه. ومع أن الملك عبدالعزيز يريد التفاوض والحل السلمي مع الدولة العثمانية، إلا أنه في الوقت نفسه ظل مقتنعاً بقدرته على الاحتفاظ بمنطقة الأحساء تحت سيادته.

وبالمقابل كانت بريطانيا ترى في الدولة العثمانية بعد أن توصلت معها إلى اتفاقية بشأن الخليج عام ١٢٣١هـ/ ٢٩ يوليو ١٩١٣م، أو ما تعرف بالاتفاقية الإنجليزية التركية، وسيلة

ممتازة لمنع الدول الغربية من التدخل في شؤون الشرق، وهذا يؤمن منطقة الهند البريطانية من التدخل الغربي، ولهذا فإن بريطانيا ستكسب كثيراً من جراء علاقاتها الودية مع الدولة العثمانية. ويمكن الأخذ بهذه الإستراتيجية البريطانية في الوقت الراهن، حيث إن الوضع العالمي متأزم، وأن كلا من الدولتين البريطانية والعثمانية مشغولتان بقضايا عالمية أكثر اهتماماً وأشد إلحاحاً من قضايا فرغ من تسويتها بين الدولتين.

وتأسيساً على الإستراتيجية البريطانية القائمة في الشرق على نظرية المحافظة على المواصلات الإمبراطورية، فإن بريطانيا ترى أن من واجبها القيام بكل مجهود لتجنب أية أعمال قد تؤدي إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا، وعلى بريطانيا أن تعمل بكل طاقاتها للمحافظة على الوضع الراهن بالنسبة للدولة العثمانية.

وتفيد الوثائق البريطانية أن السيد محمد عارف بن يوسف مارديني والي البصرة العثماني السابق ووالي سورية آنذاك، كان على اتصال بالشيخ مبارك الصباح، وهو يعرف عائلته حق المعرفة، وقد أدى هذا إلى قيام علاقة وطيدة بين الشيخ مبارك والبكباشي العثماني عمر فوزي بن محمد عارف. وجرت محادثات في الكويت بين الشيخ مبارك والسيد عمر فوزي مارديني بشأن التوسط في مفاوضات السلام بين العثمانيين والملك عبدالعزيز آل سعود. وكانت ولاية البصرة قد انتدبت البكباشي عمر فوزي لإجراء اتصالات مع الملك عبدالعزيز عن طريق الشيخ مبارك. وتشير الوثائق البريطانية إلى أن الشيخ مبارك وقتذاك لم يكن متحمساً للوساطة التي يطلبها منه العثمانيون، "ولا يرى أن يساعد أيًا من الطرفين، ويرفض أن يساق إلى تلك القضية أو يعطي أية نصيحة، مع أنه يتعاطف مع الطرفين في رغبتهما في تجنب سفك الدماء أو كل ما من شأنه أن يخلف العداوة بين المسلمين، وعليه أن يبقى مخلصاً لصداقته لابن سعود".

وكان أنور باشا ناظر الحربية العثمانية قد كلف السيد محمد عارف بن يوسف مارديني والي البصرة بإرسال ابنه البكباشي عمر فوزي إلى الشيخ مبارك الصباح لكي يمكنه بوسائله الخاصة وتوصياته من الاتصال بالملك عبدالعزيز آل سعود. وتطلب رسالة محمد عارف الموجهة إلى الشيخ مبارك أن يعطي ابنه رسالة توصية إلى الملك عبدالعزيز آل سعود "وعليه نأمل أن تزود ابننا بنصيحتكم، وتعطوه رسالة إلى عبدالعزيز آل سعود، ذكراً لكم أن عمر فوزي ابني، وممثل الوزير أنور باشا، وإليه يرجع في بحث كافة المسائل المتعلقة بهذه المناطق (نجد)، وكذلك فالاجتماع معه هو كالاجتماع معي، والوثوق به كالوثوق بالحكومة وبالوزير أنور باشا، وسوف تكسبون مكافأة طيبة في المستقبل

على هذا العمل، وكذلك الشاء الشامل ورضاء السلطان".

ويشير عمر فوزي مارديني في رسالة وجهها إلى الشيخ مبارك أن مهمته الأساس هي مقابلة عبدالعزيز آل سعود، والبحث معه بشكل ودي الإجراءات والترتيبات اللازمة لإنهاء الصعوبات الراهنة بين الدولة العثمانية وعبدالعزیز آل سعود. ويطلب عمر فوزي من الشيخ مبارك أن يخبر عبدالعزيز آل سعود بأن يتوجه إلى مكان مناسب قريب من الكويت، لكي يجتمع به البكباشي عمر فوزي. ويرى عمر فوزي أن يكون المكان قريباً من الكويت حتى يتمكن من الاتصال تلغرافياً بأنور باشا ناظر الحربية العثمانية.

ولما عرفت بريطانيا أن العثمانيين يقومون بمبادرات تجاه الملك عبدالعزيز آل سعود عن طريق مبارك الصباح شيخ الكويت والشيخ خزعل شيخ المحمرة، قررت الاتصال بالملك عبدالعزيز وإبلاغه بأنها سعت لدى الباب العالي أن يقوم بمبادرات سلمية ودية تجاهه، وهو الآن حُر في التفاوض المباشر مع العثمانيين. وقد عللت بريطانيا ذلك حتى تأخذ الحكومة العثمانية انطباعاً أن الحكومة البريطانية يهتما أن تبدأ المفاوضات بين الطرفين بصورة مباشرة، وتريد أيضاً أن لا يدخل في ذهن الدولة العثمانية أن بريطانيا ترغب في الاطلاع على شروط الصلح، وأن يكون لها رأي فيه، وإنما تفضل أن تبقى الأمور بين الطرفين المتفاوضين. وأعتقد أن بريطانيا تقصد من وراء ذلك أن يتجنب كل من الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود الوساطة التي يمارسها كل من الشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل وتأثيرهما في هذا المجال.

وقد حدث اتصال عن طريق الرسائل بين الملك عبدالعزيز آل سعود والوسيط السيد طالب النقيب، فبين الملك للنقيب أنه يرجو كل الخير للدولة العثمانية المسلمة، ويرجو كذلك أن يقدم تحياته وتمنياته لأنور باشا ناظر الحربية العثمانية الذي كلف البكباشي عمر فوزي مارديني بالاتصال به من أجل إقامة علاقات ودية، وعلى الهدية التي أرسلها إليه وهي القرآن الكريم. ويقدم الملك تحياته للبكباشي عمر فوزي، وصادقته واحترامه إلى جميع المسؤولين العثمانيين. كما أنه قبل هدية أنور باشا بكل احترام وسرور، وأن غايته هي وحدة الإسلام، وجمع شمل القلوب المتفرقة من أبنائه. وفي رسالة الملك عبارات المجاملة للباب العالي كولائه للدولة العثمانية ورجائه الخير لها ولبلادها، لكنه أشار في رسالته إلى وجود أمور لا يستطيع أن يقوم بها تجاه الدولة العثمانية. ويقصد بذلك مطالبها التي تتركز على تبعيته للدولة العثمانية، وأن يكون لها جند عثماني في بلاده دلالة على الولاء والطاعة.

وهكذا فإن الدولة العثمانية وكذا الدولة البريطانية وسطاً كلاً من الشيخ مبارك والشيخ خزعل والسيد طالب النقيب لبذل جهودهما في مسألة التوسط واتخاذ الترتيبات اللازمة لإيجاد حل سلمي ترضى به الدولة العثمانية، ويرضى به الملك عبدالعزيز، كما أن الواضح من موقف الدولة العثمانية أنها لا ترغب إطلاقاً في استعمال القوة العسكرية العثمانية ضد الملك عبدالعزيز، مقتنعة أن الحل في النهاية سيكون حلاً سلمياً وودياً. كما أن السيد طالب النقيب بحكم صلته القوية مع العثمانيين يتوقع أن يكون الحل في النهاية حلاً سلمياً، على الرغم من أن الملك عبدالعزيز يشترط في المقام الأول أن يكون حاكماً مستقلاً، ويرفض قبول قوات عثمانية في بلاده.

الاتصالات السعودية العثمانية لتحديد مكان الاجتماع:

جاءت المبادرة من الدولة العثمانية يوم أن وافق أنور باشا ناظر الحرية العثمانية على اقتراح قدم من السيد طالب النقيب بشأن قيام الدولة العثمانية بفتح باب الاتصالات والمفاوضات السلمية والودية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فقبل أنور باشا اقتراح السيد طالب النقيب، وفوض السيد البكباشي عمر فوزي مارديني أحد مرافقي السلطان محمد رشاد بإجراء المفاوضات، كما أمره بالتوجه إلى البصرة، وأرسل معه رسالة إلى واليها - وكان وقتها سليمان شفيق كمال باشا - تتضمن توجيه مسألة الأحساء إليه للبت في أمرها سريعاً، ولتفادي الإطالة من جراء المراسلات مع الأستانة مما يتطلب وقتاً طويلاً في الأخذ والرد. وقد زار عمر فوزي مارديني الشيخ مبارك الصباح في الكويت بأمر من والي البصرة، وبين له ما تنوي الدولة العثمانية عمله تجاه مسألة الاتصالات والمفاوضات مع الملك عبدالعزيز آل سعود من أجل إيجاد تفاهم معه.

وزيادة في حرص الدولة العثمانية على المفاوضات وإيجاد الحل، رأت أن تفيد من وساطة الشيخ مبارك الصباح بصورة خاصة لعلاقته القوية والحميمة مع الملك عبدالعزيز، وكذلك وساطة الشيخ خزعل شيخ المحمرة. فقررت الدولة العثمانية منح كل منهما وسام العثمانية من الدرجة الأولى مكافأة لهما على قيامهما بالوساطة المطلوبة. ويبدو أن والي البصرة العثماني وبأمر من المسؤولين العثمانيين رأى أن يكون السيد طالب النقيب هو المسؤول عن المفاوضات مع الملك عبدالعزيز، لعل ذلك يقرب مسألة التفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز. وأصبح بمقدور السيد طالب النقيب ومعه البكباشي عمر فوزي بك مارديني أن يتوجها إلى الكويت ليلتقيا في مكان قريب منها الملك عبدالعزيز آل سعود، وقد وعد الشيخ مبارك السيد النقيب بإعلامه عن موعد وصول الملك عبدالعزيز إلى

الصبيحية التي تبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من الكويت، ويتوقع الشيخ مبارك أن يبقى الملك عبدالعزيز فيها مدة عشرة أيام.

وكانت الدولة العثمانية قد ألحت على شيخ الكويت أن يقدم النصيحة للملك عبدالعزيز بشأن المحادثات والمفاوضات، لكن شيخ الكويت ظل لا يريد إقحام نفسه في هذه المسألة، خاصة وأنه الآن بعيداً كل البعد عن النفوذ العثماني بعد توقيع معاهدة الحماية مع بريطانيا وظلت علاقته مع الدولة العثمانية ذات طابع يتصف بالمجاملة. فقد أصبح شيخ الكويت محمياً من بريطانيا، وهي التي تدير شؤونه الخارجية.

ومن الواضح أن الملك عبدالعزيز آل سعود استجاب للدعوة العثمانية والوساطة العربية، وقرر التوجه إلى الصبيحية القريبة من الكويت وهي الخطوة الأولى من خطوات الاجتماع بالمسؤولين العثمانيين. وتجدر الإشارة هنا أن السيد طالب النقيب ووفد المحادثات العثماني كانوا في البصرة ينتظرون باخرة الشيخ مبارك لتتقلهم إلى الكويت. وقد وصل الملك عبدالعزيز الصبيحية في ٢٧ أبريل ١٩١٤م. وكان السيد طالب النقيب ومعه الوفد العثماني قد غادروا البصرة ببخرة شيخ الكويت في ٢٨ أبريل ١٩١٤م.

اجتماع الصبيحية ومردوده:

تألف الوفد العثماني من السيد طالب بك النقيب رئيساً والبكباشي بهاء الدين بك رئيس الأركان في بغداد والبكباشي عمر فوزي بك وسامي أفندي متصرف الأحساء ويرافقه عمر بك ومحام من مدينة البصرة ومحمد النعمة من أعيان العرب ومن ذوي الأملاك وعبد الوهاب المنديل وعبد اللطيف المنديل وكلاهما من ذوي الأملاك ومن الأعيان ويمثلان الملك عبدالعزيز ويصفتها وكيلين له في البصرة.

ويبدو أن منهجية الاجتماع والمفاوضات بدأت تأخذ طابعاً مباشراً بين المسؤولين العثمانيين والملك عبدالعزيز، وأخذ الوسطاء ينحون جانباً. فأعلن الشيخ خزعل أنه رجل فارسي ولا يهتمه مثل هذه المسألة. وأما الشيخ مبارك الصباح فقرر أن لا يدخل نفسه في المحادثات، علماً بأن بريطانيا كانت ترى أنه لا مانع لديها من أن يعرض الشيخ مبارك الصباح مساعدته وتعاونها في سير المفاوضات.

وأمر مهم جداً وهو أن الدولة العثمانية كانت تفضل أن يتدخل الشيخ مبارك في سير المفاوضات، إلا أنها ظلت لا تفضل ولا تريد وساطة بريطانية بهذا الشأن. وهذا يفسره لنا تأخر الرد العثماني على عرض الوساطة البريطانية، وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تسعى

لإتمام الجهود والمساعي العربية المحلية في إيجاد تسوية ودية بينها وبين الملك عبد العزيز. ولم يكن شك الدولة العثمانية تجاه نوايا بريطانيا آتياً من فراغ، فقد تأكدت الدولة العثمانية أن هناك مطالب وشروط بريطانية تجاه التسوية، منها أن بريطانيا لا تريد أن تمس المفاوضات مراكز نفوذها في الخليج، وأن يكون لتجارها حرية الحركة التجارية في الساحل الخليجي العربي، بالإضافة إلى منع عمليات بيع الأسلحة، والعمل معاً على منع حالات القرصنة في الخليج بالمفهوم الذي تراه بريطانيا.

وعندما وصل الوفد العثماني إلى الكويت مكث فيها مدة يومين يناقش المقترحات التي يمكن طرحها على الملك عبد العزيز بناءً على مجموعة التعليمات والترتيبات الصادرة لوالي البصرة والسيد طالب النقيب من الباب العالي. وقد وصل الوفد العثماني إلى الصبيحية في ٢ مايو ١٩١٤م أي بعد وصول الملك عبد العزيز آل سعود إليها بخمسة أيام. وفي الصبيحية تقابل الوفدان ودارت المفاوضات بينهما. وقد أصر الملك عبد العزيز على نقطة مهمة جداً وهي الاستقلال، وهو أمر ظلت الدولة العثمانية ترفضه. كما أن الملك عبد العزيز ظل يرفض وبشكل مطلق إعادة تمحور القوات العثمانية وتمركزها في بلاده.

ويشير الريحاني إلى أن الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت رفض التوجه إلى الصبيحية مقر المفاوضات السعودية العثمانية، ويبدو أنه ينقم على الدولة العثمانية وعلى وفدها المفاوضات؛ لأنه لم يعين على رئاسته، بل أخذ يحذر الملك عبد العزيز من أن الدولة العثمانية ووفدها كذابين وماكرين خداعين، وعليه أن يكون صلباً معهم ولا يمكنهم من شيء ولا يصدق ما يقولونه. وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تطالب بالاحتفاظ بقوات عثمانية في مواني الأحساء كالقطيف والعقير والجبيل، وأن تكون المسؤولة الأولى عن عقد المعاهدات الدولية وتنظيمها. في حين أصر الملك عبد العزيز على أن تكون علاقته بالدولة العثمانية علاقة ذات طابع اسمي، مقابل أن تقدم له الدولة العثمانية الأسلحة والذخيرة وبعض المال.

وأمر بدهي أن يكون موقف الملك عبد العزيز آل سعود في مفاوضاته مع الوفد فيه نوع من الملائمة؛ لأنه مقتنع تماماً أن مسألة المفاوضات مسألة تكتيكية ذات طابع سياسي وإستراتيجي. وأن كل ما سيتفق عليه سيظل حبراً على ورق، ولن يخرج إلى حيز العمل والتنفيذ ليس من جانبه فقط، وإنما أيضاً من الجانب العثماني.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن الدولة العثمانية كانت دائماً تنظر إلى اتفاقياتها مع آل سعود على أنها اتفاقيات مؤقتة تفرضها ظروف ومصالح معينة. فعلى الرغم من أن الدولة

العثمانية تفاوض الملك عبدالعزيز، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تجري اتصالات مع آل رشيد في جبل شمر عن طريق واليها في البصرة سليمان شفيق كمال باشا المشرف العثماني المباشر على المفاوضات العثمانية الجارية مع الملك عبدالعزيز، ليظلوا في حال عداء مع الملك عبدالعزيز، وهي تساعدتهم بالمال والسلاح والعتاد. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان الدولة العثمانية الحرب على دول الوفاق أوقف كل المشروعات العثمانية العسكرية في الجزيرة العربية. وبالمقابل فإن الملك عبدالعزيز لا يثق بالدولة العثمانية واتفاقياتها.

وبناءً على ما سبق قرر الطرفان العثماني والسعودي التوصل إلى اتفاق بعد كثير من المداولات والاتصالات والمفاوضات. واتفق الطرفان على أن يظل هذا الاتفاق في سرية تامة وكتمان شديد إلى أن يقره الباب العالي وتصل موافقته. ويبدو أن الوفد العثماني أثناء عودته من الصبيحية إلى الكويت، لم يذكر شيئاً عن هذا الاتفاق للشيخ مبارك الصباح، مع العلم أن الشيخ مبارك سأل الوفد عن نتيجة مفاوضاته، ويبدو أن الوفد العثماني كان متأكداً من غضب الشيخ مبارك لعدم تعيينه رئيساً للوفد، ولهذا ظل الشيخ مبارك يتمنى عدم نجاح المفاوضات. ويذكر الريحاني أن الشيخ مبارك الصباح صدم عندما وصلت أخبار تفيد أن برقية من الباب العالي وصلت إلى والي البصرة سليمان شفيق كمال باشا تبين أن الباب العالي وافق على الاتفاق وصدق عليه، مقروناً ذلك بالشكر وبالوسام العثماني الأول للملك عبدالعزيز آل سعود بعد أسبوع واحد فقط من اجتماع الصبيحية.

ومن الملحوظ أن شروط الاتفاق العثماني السعودي جاءت تجمع بين مطالب الملك عبدالعزيز ومطالب الدولة العثمانية. فقد أفاد الشيخ مقبل الذكير أن اتفاقاً حدث بين الطرفين لكنه لم يطلع على نصه، غير أنه فهم من الأخبار الواردة إلى الكويت، وكان الذكير وقت المفاوضات فيها، أن الاتفاقية تسمح بوجود ما لا يزيد عن خمسة جنود من العسكر العثماني في كل من العقير والقطيف والجبيل رمزاً للمحافظة على العلم العثماني مرفوعاً، ولن تكون حاميات عثمانية أخرى في الأحساء أو في نجد. وأن يقوم الملك عبدالعزيز بتحصيل الرسوم الجمركية في الموانئ، وأن تمنحه الدولة العثمانية مخصصات شهرية تصل إلى ٢٥٠ ليرة عثمانية. بالإضافة إلى تحديد الحدود بين الملك عبدالعزيز وابن رشيد.

وثمة ملحوظة مهمة وهي أنني حاولت العثور على النص التركي للاتفاقية من خلال وثائق الباب العالي، الأرشيف العثماني، فرع رئاسة الوزراء بإستانبول، ولكنني لم أعثر عليه،

وأرجو أن يعثر عليه باحثون غيري، ولكن المسؤولين البريطانيين وعلى رأسهم السفير البريطاني في إستانبول ظلوا يبحثون بطرقهم الخاصة عن أصل الاتفاقية التي وقعها كل من الملك عبدالعزيز آل سعود وسليمان شفيق كمال باشا والي البصرة وقتذاك، وقد توصل البريطانيون إلى معرفة بنود الاتفاقية، ونحن نستقي من النص الإنجليزي بنودها وأهمها:

١ - تعترف الدولة العثمانية بسيادة الملك عبدالعزيز على ولاية نجد طيلة حياته باستثناء جبل شمر، بما في ذلك منطقة الأحساء (تعني ولاية نجد في المصطلح الإداري العثماني إقليم نجد وإقليم الأحساء معاً) على أن تكون ولاية نجد لخلفائه من بعده إذا ظلوا مطيعين للدولة العثمانية.

٢ - أن تتمركز بعض القوات العثمانية في الموانئ مثل القطيف والجبيل والعقير، ويمكن زيادة عددها طبقاً لطلب من الملك عبدالعزيز.

٣ - أن تتم كل إجراءات الجمارك والضرائب في الموانئ التابعة للملك عبدالعزيز طبقاً لأنظمة الدولة العثمانية، على أن يرسل عشرها إلى الأستانة مثل أي والٍ عثماني.

٤ - تعتمد ولاية نجد في أمورها المالية على عائدات الجمارك والبريد والبرق إلى أن تحقق الولاية كفاية ذاتية، وما يفيض عن حاجتها يرسل إلى الباب العالي مرفقاً بتقرير رسمي.

٥ - يرفع العلم العثماني على كل المباني الحكومية والمباني المهمة وعلى السفن التجارية في الولاية.

٦ - لا يحق لوالي نجد أن يتدخل في الشؤون الخارجية أو أن يمنح امتيازات لأطراف أجنبية.

٧ - يزود والي نجد الحكومة العثمانية بقدر كاف من القوات مع مؤنها وذخيرتها حين يطلب منه ذلك في حال نشوب حرب بين الدولة العثمانية وأي قوى أجنبية.

٨ - يجب أن تمر مكاتبات والي نجد مع الدول الأجنبية عن طريق الأستانة. كما أن مكاتباته مع الدولة العثمانية بشأن الأمور الداخلية تكون مباشرة عن طريق نظارة الداخلية والشؤون الحربية عن طريق نظارة الحربية دون المرور بوالي البصرة.

٩ - يحق لوالي نجد أن يشكل قوة محلية لحفظ النظام والأمن في نجد والمحافظة على سلامتها.

١٠ - على والي نجد أن يحترم جميع الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية

مع الدول الأخرى.

١١ - يحق لوالي نجد أن يتلقى طلبات التجار الأجانب فيما يتعلق بممارسة أعمالهم طبقاً لشروط الاتفاقية.

وقد صدر فرمان إمبراطوري (سلطاني) سمى عبدالعزيز آل سعود والياً عاماً على ولاية نجد وقائداً لقواتها ، وله سلطات الوالي الكاملة ، ويحق له أن يشكل وحدات عسكرية لحفظ الأمن العام والنظام في ربوع ولاية نجد ، الجزء الذي أقرتحت سيادته ، بالإضافة إلى سنجق الأحساء أو ما يعرف اليوم بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

وقد هنا أنور باشا وزير الحربية في الدولة العثمانية عبدالعزيز آل سعود حاكم نجد والقائد العام ، قائلاً: "يسعدني أن أبارك لكم وأهنئكم ، وأدعو الله أن يتوج كافة أعمالكم بالنجاح لتعزيز الدين الإسلامي ، وأن يقويكم في خدمة الدولة العثمانية المجيدة ، كما أرجو لكم السعادة والنجاح في كل أموركم ، ولكم أن تأمروني في كل شيء".

ويذكر سليمان شفيق كمال باشا والي البصرة ورئيس الجانب العثماني المفاوض أن الدولة العثمانية عينت عبدالعزيز آل سعود برتبة الوزارة السامية بفرمان سلطاني عال وولاية نجد وقيادتها وإمارتها على أن تنقل بالإرث إلى أولاده. ويقول عن الاتفاقية: "إنها الخطوة الأولى لطريقة الحكم اللامركزي التي كان يجب أن تقر في بلاد العرب...". وكان سليمان شفيق كمال باشا قد تلقى برفقة من الباب العالي تتضمن موافقة الدولة العثمانية على الاتفاقية ، وتقدم الشكر إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود ، وتمنحه الوسام العثماني الأول.

وعلى الرغم من أن الاتفاقية برمتها لم تطبق وظلت بنودها حبراً على ورق ، إلا أنها في الوقت نفسه رفعت الملك عبدالعزيز وقتذاك إلى مصاف الولاة العثمانيين المهمين ليس في الجزيرة العربية فحسب ، وإنما في الولايات العربية الأخرى ، وهي أيضاً بمثابة اعتراف عثماني رسمي بالسلفية في الجزيرة العربية. كما أن هذه الاتفاقية أعطت الملك عبدالعزيز آل سعود وقتاً لدعم السيادة السعودية على منطقة الأحساء ، وقد تلاشت فكرة الهجوم البحري العثماني على تلك المنطقة لاستعادتها إلى السيادة العثمانية. وبفضل هذه الاتفاقية الاسمية تفرغ الملك عبدالعزيز آل سعود إلى مسألة آل رشيد في جبل شمر ، وتفرغ أيضاً إلى المسائل الدبلوماسية مع القوى المهمة في منطقة الخليج ، من أجل تقوية مركزه ومكانته في الساحل الخليجي.

وتشير المصادر إلى أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم يكتف بإخراج القوات العثمانية من

منطقة الأحساء ، وإنما أخذ يقنع شيخ قطر بالتخلص من الوجود العثماني في بلاده ، لتنتهي السيادة العثمانية من على جميع الساحل الخليجي العربي ، وليريح نفسه من عناء تحرشات العثمانيين ومؤامراتهم ضده ، وهو أسلوب يركز عليه الملك عبدالعزيز آل سعود ، ويهتم به ليبعد نفسه ودولته عن التأثير العثماني الذي ما انفك يخلق الصعوبات له على الرغم من الاتفاقية الموقعة.

وكان دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، واحتلال بريطانيا للعراق قد أضعف على العثمانيين كل فرصهم في الجزيرة العربية ومنطقة الخليج. ومن الأدلة على أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم يطبق بنود الاتفاقية أنه لم يلب طلب الدولة العثمانية منه أن يدخل الحرب إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى على الرغم من إلحاحها عليه؛ لأنها كانت تقدر أهميته بالنسبة لموقعها في العراق ، محاولة بذلك المحافظة على مركزها في العراق من خلال حماية حدوده الجنوبية ، وإعاقة المشروعات البريطانية الرامية إلى احتلال العراق والضغط على القوات العثمانية لإجبارها على الانسحاب شمالاً باتجاه آسيا الصغرى.

وحاولت الدولة العثمانية أن تجند الملك عبدالعزيز ضد الشريف حسين بن علي الذي ثار عليها عام ١٩١٦م ، ولكن الملك عبدالعزيز لم يستجب لمحاولتها ، وإنما بقي مهتماً بأمور دولته مبتعداً عن المشكلات والصعوبات التي من شأنها أن تجلب له المتاعب وتشتت الهدف. وظلت الدولة العثمانية خلال مدة الحرب العالمية الأولى تحاول الاتصال بالملك عبدالعزيز ، فعندما دخلت قوات الإخوان بلدة الخرمة عام ١٩١٩م التي كانت آنذاك تتبع الشريف حسين بن علي ، أرسل القائد العثماني فخري باشا رسالة إلى الملك عبدالعزيز آل سعود جاء فيها "لقد استبشرنا بأن المطاوعين (المطاوعة) الساكنين في وادي الخورما (الخرمة) أخذلوا (خذلوا) عونهم (أعوان) العاصي حسين ، وبأن حضرتكم تعملون لأجل فتح طريق مكة للإسلام وأداء فريضة الحج. وقد وصلتكم إلى بريدة فأبارك لكم عن صميم الفؤاد باسم الإسلامية تجاه هذه الحركة الجليلة الواقعة على العاصي حسين... إنني أبين لجنابكم أنكم قبلتم معاونتنا بالأسلحة والجبخانه والمدافع والرشاشات والمصارف (النفقات) اللازمة فإننا حاضرون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

ويذكر فليبي أنه رأى بأم عينه ثلاث رسائل مرسلة من فخري باشا إلى الملك عبدالعزيز يطلب فيها منه مساعدة الدولة العثمانية بالجمال اللازمة للنقل في بلاد اليمن ، لكن الملك عبدالعزيز لم يرد على هذه الرسائل. والثابت أن الملك عبدالعزيز آل سعود انقطعت صلته بالدولة العثمانية ، ومن ثم انقطعت المراسلات بينهما في وقت الحرب العالمية الأولى ، إلا

ما كان عن طريق مكاتبات فخري باشا التي لم تلق رداً من الملك عبدالعزيز. وظل الأمر كذلك حتى اعترفت الجمهورية التركية بالمملكة الحجازية النجدية على أساس من الصداقة وحسن التفاهم بينهما.

ويمكن تتابع الأحداث في الأحساء من خلال الإستراتيجية العثمانية هناك، وذلك في النقاط الآتية:

(١) حين اتجه آل سعود نحو الأحساء، أواخر القرن الثامن عشر، وبالذات عام ١٧٩٥م كان شيوخ قبيلة بني خالد حكام الأحساء، وكانوا يمثلون إدارة وحكماً منظماً فيها قبل مجيء آل سعود، الذين نجحوا في القضاء على حكم بني خالد واحتلال جزء من الأحساء وجعلها قاعدة يمتدون منها نحو الكويت والبحرين وقطر وعمان، ثم استولى آل سعود عام ١٨٠٠م على مدينة القطيف، ولكن تقدم قوات محمد علي باشا الوالي العثماني من مصر إلى الحجاز عام ١٨١١م، أرغمت حكام الدولة السعودية على سحب قواتهم العسكرية من الهفوف والقطيف، ومع ذلك ظل نفوذ السعوديين عام ١٨١٤م ما يزال سائداً في الأحساء، وقد امتدت نفوذ حملة إبراهيم باشا من الدرعية إلى الأحساء ليظل عامي ١٨١٨ و ١٨١٩م، لتسحب تاركة "مشرف" ابن شقيق الشيخ محمد بن خالد ليحكم الأحساء، ودخلوا في صراع مع آل سعود حتى نجح الآخرون في السيطرة على الأحساء عام ١٨٣٠م^(١).

(٢) نجحت قوات محمد علي باشا الوالي العثماني من العودة للسيطرة على الأحساء في نهاية عام ١٨٣٨، وأمر خورشيد باشا القائد العام لقوات محمد علي في جزيرة العرب بوضع حامية من ٣٠٠ رجل غير نظامي في الهفوف، كما وضعت حاميات أخرى صغيرة في القطيف وسيهات والعقير على ساحل الأحساء، لكن اغتيال محمد أفندي حاكم الأحساء من قبل خورشيد باشا على يد بعض الأعراب في الهفوف، مما استدعى جلاء قوات محمد علي من الأحساء في مايو ١٨٤٠م، وكانت الأحساء بذلك أول الأقاليم التي تم جلاء القوات من جزيرة العرب.

(٣) بعد انسحاب قوات محمد علي من الأحساء، ظلت الأمور مضطربة سواء في عهد الأمير السعودي خالد ١٨٤٠ - ١٨٤٢، أو في عهد الأمير عبد الله ٤٢ - ١٨٤٣م، أو في عهد الأمير فيصل ١٨٤٣ - ١٨٦٣م وحتى ذلك اليوم ما يزال يقال أن الأمير فيصل بن تركي آل سعود هو الحاكم الوحيد من نجد الذي استطاع أن يحقق بعض

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص ١٤٢٤ - ١٨٤٨م.

النجاح في إخضاع آل مرة المتمردين الأقوياء.

المتصرفون في الأحساء ١٨٧٦ - ١٨٧٧:

عين سعيد بك في سنة ١٨٧٦ ، وظل متصرفا طوال السنة التالية ثم استدعى إلى العاصمة بعد أن ذاع صيته كإداري ناجح.

١٨٧٧ - ١٨٧٩:

وكان سعيد باشا الذي خلفه مواطنا من بغداد وليس تركيا بحكم الميلاد. وكان رجلا على شيء من الذكاء والنشاط، وخلال فترة حكمه للمرة الأولى اكتسب سمعة طيبة حبيت فيه أهل الأحساء وأكسبته رضاهم فاستطاع أن يحكم الإقليم بكفاءة. وكان عزله في سنة ١٨٧٩ نتيجة الفضيحة ثم الطرد الذين حصلوا لولى نعمته عبد الله باشا وإلى البصرة، الذي قد عينه متصرفا في الأحساء.

١٨٨٠ - ١٨٨١:

وفي ديسمبر ١٨٧٩ أعد تعيين سعيد بك متصرفا في الأحساء، وواصل سعيد سيرته الطبية حتى عزل نهائيا سنة ١٨٨٠. وفي نفس السنة تقرر ضم إقليم الأحساء وغيره من الأقاليم التابعة للبصرة إلى ولاية بغداد مرة أخرى.

وأرسل عبد الغنى باشا من القسطنطينية خلفا لسعيد بك، وقيل إنه متعصب ديني وقليل الذكاء وقد أدت ثورة قبيلة عجمان في سنة ١٨٨٠ إلى إيقاف هذا الوالى وتعزيمه من قبل قائد القوات العسكرية، ورغم أن اللجنة التي أرسلت لتحقيق الأمر جاء تقريرها في صف عبد الغنى باشا إلا أنه عزل في العام التالي.

١٨٨١ - ١٨٨٥:

وعين سعيد باشا بعده متصرفا للمرة الثانية، وظل قائما على أداء واجبات منصبه بكفاءة وروح ودية من ١٨٨١ إلى ١٨٨٥. وفي سنة ١٨٨٤ فصلت أقاليم البصرة بما فيها الأحساء فصلا نهائيا عن بغداد وأصبحت ولاية مستقلة.

١٨٨٥ - ١٨٨٦:

وجاء نظيف باشا خلفا لسعيد باشا في نوفمبر ١٨٨٥ ، لكن المدة التي قضاها متصرفا كانت مدة قصيرة انتهت في سنة ١٨٨٦.

١٨٨٧ - ١٨٩٠:

وظل خلفه محمد صالح باشا متصرفا خلال المدة من مارس ١٨٨٦ إلى أوائل ١٨٨٧. ومن ١٨٨٧ إلى يناير ١٨٩٠ كان يحكم الأحساء رفعت بك، وخلال مدة حكمه قام نافذ باشا وإلى البصرة بزيارة القطيف والعقير. ويرجع عزله في الأحساء حسب إحدى الروايات إلى خلاف بينه وبين السلطات العسكرية فيها، لكن الأكثر احتمالا هو أن عزله جاء نتيجة تغيير وإلى البصرة. ففي ذلك الوقت ترك نافذ باشا الولاية لهداية باشا. ويبدو أن رفعت بك كان رجلا إداريا ناجحا.

١٨٩٠ - ١٨٩١:

أما المدة من ١٨٩٠ إلى ١٨٩١ فقد قضاهما عاكف بك متصرفا للأحساء، وكان ضابطا عسكريا لديه برامج مستفيضة للإصلاح السياسي والتوسع، لكنه كان عاجزا عن تنفيذ معظمها، وقد ترك عاكف بك متصرفية الأحساء نتيجة اعتلال صحته في أوائل ١٨٩١ وقيل إنه مات في الطريق قبل أن يصل إلى منزله.

١٨٩١ - ١٨٩٤:

وسنشير إليها تفصيلا فيما بعد، وقد بذلت بعض الجهود - فيما يبدو - لتحسين الإدارة، ونقل قائمقام في يوليو ١٨٩٣ وعين بدله رءوف أفندي في يناير ١٨٩٤.

١٨٩٤ - ١٨٩٦:

وكان الحاكم التالي هو إبراهيم باشا - الذي كان مستؤلا من قبل عن الجديدة - وظل في عمله حتى سنة ١٨٩٦.

١٨٩٦ - ١٩٠٠:

ثم عين سعيد باشا في الأحساء للمرة الرابعة. واستدعى نهائيا في ١٩٠٠. وفي محادثة مع الوكيل السياسي البريطاني المساعد في البحرين - أثناء رحلته الأخيرة من العراق في يناير ١٩٠١ - أرجع سعيد باشا عزله إلى مؤامرات القائد العسكري في الأحساء الذي وصفه بأنه "تركي جاهل" ويبدو أن سياسة سعيد باشا الأخيرة في الأحساء كانت تعتمد على تكوين قوة عسكرية محلية من أهل البلاد، في مواجهة قوة الاحتلال التركية الموجودة بقيادة القائد العسكري، ويبدو أن هذا القائد قد استطاع إقناع السلطات العليا بأن نتيجة سياسة سعيد باشا المتسامحة مع أهل البلاد هي تصدير السلاح بكميات كبيرة إليهم مما أصبح يهدد أمن جيش الاحتلال التركي. وقد مات سعيد باشا متقاعدا في بغداد سنة ١٩٠٥.

وخلف القائد العسكري في الأحساء سعيد باشا كمتصرف للإقليم ويبدو أن مبالغة

أعدائه في وصف خلقه وشخصيته كانت تقوم على أساس أنه لم يبق في وظيفته إلا لسبتمبر ١٩٠١ حين استبعد أن ساد السخط الشامل من أعماله الاستبدادية.

١٩٠٠ - ١٩٠١:

وخلفه قائد عسكري آخر هو توفيق بك متصرفا للأحساء.

١٩٠٢ - ١٩٠٥:

وفي عام ١٩٠٢ عين مسئول مدني متصرفا للأحساء هو السيد طالب باشا ابن نقيب البصرة الذي وصل الأحساء في يونيو من هذه السنة، وأبدى السيد طالب نشاطا كبيرا في تسوية المشاكل القبلية. لكن تصرفاته غير المشروعة كانت بلا حدود، وقد بلغت قممتها في أوائل سنة ١٩٠٣ حين نهب بيت حاجي منصور باشا وهو رجل من البهرة في القطيف كان مدير أملاك الدائرة السنوية في الأحساء وأغنى تاجر في الإقليم كله. وقد اتهمه السيد طالب بعدم الولاء للحكومة التركية كما أمر بسجن شقيقه أحمد بن جمعة. وبلغت الغنائم التي نهبت من بيت حاجي منصور حمولة ثلاث سفن ورد ذكر رحيلها في تقرير ممثل بريطانيا في البحرين، وأشار القنصل البريطاني في البصرة إلى ما يؤكد وصول السفن وحمولتها إلى مقر السيد طالب في صبيحات على شط العرب. واستدعى طالب باشا مؤقتا في أكتوبر ١٩٠٣ وعين فائق باشا القائد العسكري متصرفا خلال فترة غيابه، لكنه لم ينتقل نهائيا من عمله إلا في فبراير سنة ١٩٠٥، ويبدو أن معاملته السيئة لحاجي منصور كانت هي السبب الرئيسي في عزله.

وكان الحاكم التالي هو نجيب باشا، وفي عهده ظلت المشاكل قائم بين حاجي منصور باشا جامعي العوائد في الإقليم، وقد وقف إلى جانب هؤلاء - الذين كانوا تحت حماية طالب باشا - المسئولون عن السلطة العسكرية بشكل عام وبعض المسئولين المدنيين، وكان نجيب باشا لا يزال في الحكم في أوائل سنة ١٩٠٧.

الفصل السابع

الكويت والإستراتيجية العثمانية

أولاً: التطور السياسي في الكويت:

- أصل الكويت وتأسيسها.
- عوامل نمو الكويت وتطورها.
- عوامل خليجية وإقليمية.
- حكام الكويت آل صباح.

ثانياً: تطور العلاقة بين الكويت والدولة العثمانية.

ثالثها: نهاية الوجود العثماني على سواحل الخليج العربي.

أولاً: التطور السياسي في الكويت

(١) أصل تسمية الكويت:

تعنى كلمة الكويت تصغير (الكوت) وهى تسمية منتشرة فى سواحل الخليج العربى الغربية وإقليم العراق، (الكوت) تطلق على المنزل المربع المبنى كالحصن والقلعة وغيرها وتبنى حوله منازل صغيرة، ويكون هذا المنزل المربع الشكل ميناء للسفن والبوارج وترسو عنده للتزود منه بما ينقصها من الفحم والزاد وما أشبه ذلك من حاجات السفر، ولا تطلق إلا على ما يبنى قريباً من الماء سواء كان من البحر أو النهر أو البحيرة، وقد يطلق على النهر الصغير ويسمى به بعض القرى توسعاً^(١). سميت بذلك الاسم نسبة إلى حصن صغير كان موجوداً فى أقصى الشمال الشرقى من الجزيرة العربية. قيل بناء «محمد بن نفل بن عريعر» فى نهاية القرن السابع عشر^(٢). وقد أقام فيه أحد أتباعه واتخذهُ مستودعاً للزاد والذخيرة وما يحتاجه فى رحلاته للغزو أو الصيد، ومن ذلك الحصن يتزود بما يريد^(٣). يقال أيضاً أن موضعه فى النفوذ الصغير الذى أسس فى أعلاه المستشفى الأمريكانى. وأنها كانت قبل نزول العتوب فيها أرضاً فقيرة لا يسكنها إلا لفيف من الأفراد أو العشائر من أتباع بنى خالد، وأول من بنى البيوت الحجرية فيها هم العتوب حينما سمح لهم بنو خالد بالاستقرار فيها ووهبوا لهم وسمحوا لهم أن يقيموا حكمهم تحت ظل وفى حماية بنو خالد^(٤).

(٢) ذكر الكويت فى تقرير الشركات الأجنبية قديماً:

جاء ذكر الكويت وميناءها فى العديد من تقارير وكلاء الشركات الأوروبية الرسميين التى تعمل شركاتهم فى الخليج فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك فى كتب الرحالة الأوروبيين، وكانت أول المصادر الأوروبية التى تتحدث عن الكويت كمركز تجارى هى المصادر الهولندية فى عام ١٧٥٠م وذلك فى رسالة فرانس كانتر (FRANS CANTER) وهو رومانى كان مسئولاً عن شركة الهند الشرقية الهولندية فى البصرة عام ١٧٤٧م وهذه الرسالة كتبها وهو فى «القرين» أو الكويت، وكذلك فى خطاب (بولار) المؤرخ فى الأول من يونيو ١٧٥٠م الذى يذكر فيه أن «القرين» فى عام ١٧٥٠م كانت تسير

(١) يعقوب الغنيم: الكويت عبر القرون، مكتبة الأمل، الكويت، ٢٠٠١، ص ٢٤.

(٢) شريف شرف الدين: الكويت بين أمس واليوم - بيروت، ١٩٥٩، ص ١٣.

(٣) عبد العزيز الصرعاوي: الدستور الكويتي مع تمهيد نشأة الكويت، مكتبة الربيعان، الطبعة الأولى الكويت، ١٩٩٨، ص ١٢.

(٤) محمد حسن العيدروس: تاريخ الكويت الحديث والمعاصر، ص ١١.

قوافل مباشرة إلى سوريا دون أن تمر بطريق البصرة، وهذا يعنى أن ميناء "القرين" كان من قبل ذا أهمية جعلت القبائل والبضائع تمر منه^(١)، ثم جاء بعده (كنيب هاوزن) مستئول وكالة شركة الهند الشرقية الهولندية خلفاً في سنة ١٧٥٤م. حيث ذكر في تقريره لعام ١٧٥٦م تفصيلاً لتاريخ الكويت القديم إذ يقول: «تقع القرين في المقابل من جهة البر، وتسكن فيها قبيلة عربية تدعى العتوب يعتمد أفرادها على شيخ الصحراء حيث يدفعون له ضريبة صغيرة، ولديه ثلاثمائة مركب صغير جداً، فهم يستخدمونها فقط في صيد اللؤلؤ وهي تجارتهم الوحيدة بالإضافة إلى صيد السمك، ويبلغ عددهم أربعة آلاف رجل^(٢)، وفي ذلك الوقت كان الاقتصاد الكويتي كذلك يتجه وجهه أخرى، فقد أصبحت الكويت مركزاً لرحلات القوافل التي تتجه من الخليج إلى البحر المتوسط^(٣).

(٣) تأسيس الكويت :

نزل العتوب بالأحساء قبل نزولهم في قطر، وكانت هذه بداية العلاقة الطيبة بين العتوب وبنى خالد، ثم توجه العتوب من الأحساء إلى قطر واستقروا في قرية الفريجة قرب (الزيارة) وكانت قطر تخضع لنفوذ بنى خالد في ذلك الوقت مما مكنهم من الاستقرار بها لبعض الوقت فاستوطنها تحت إمرة حاكمها آنذاك (أل مسلم) وبعد مضي فترة على استقرار العتوب في قطر^(٤).

قتل أحدهم رجلاً من أهلها، مما أثار حكامها الذين أوجسوا خيفة من العتوب فأمرهم بمغادرة البلاد، وقد لبى العتوب وهاجروا من قطر بواسطة البحر، إلا أن أل مسلم جهزوا بعد ذلك سفناً وساروا خلفهم ودار قتال شديد في (رأس تنورة) كان النصر فيه حليف العتوب إلا أن هذا النصر لم يحملهم على العودة إلى قطر للاستقرار فيها، بل واصلوا مسيرتهم البحرية وتوجهوا إلى (المنحراق) بالقرب من (الفاو)، ولم يطيب لهم المقام فتحولوا إلى الصبية شمال شرق الكويت^(٥)، غير أن السلطة العثمانية لم تسمح لهم بالإقامة في تلك المنطقة وذلك نتيجة لحدوث اعتداءات على بعض القوافل المارة هناك وخشية قيام القلاقل والاضطرابات^(٦).

(١) سلوت ب.ج.: نشأة الكويت - مركز البحوث والدراسات الكويتية - الكويت - ٢٠٠٣ - ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) سلوت ب.ج.: عرب الخليج - ص ٢٤٠.

(3) B.J.Solt. Mubarak Al-Sabah-Founder of Modern Kuwait, 1896-1915, P. 11.

(٤) د / أحمد الرشيد وآخرون: الكويت من الإمارة إلى الدولة - مركز البحوث والدراسات الكويتية - الكويت - ١٩٩٢ - ص ١٢١.

(٥) د / عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨-١٩١٦ - الطبعة الأولى - الكويت - ١٩٧٥ - ص ١٥٨-١٥٩.

(٦) غانم يوسف الشاهين الغانم: كويتنا جوهرتنا، ص ٩.

لاسيما عندما علمت تلك السلطات باعترام أفراد من قبائل عديدة شن هجمات على العتوب مما اضطرت جماعات العتوب إلى ترك الصبية والاتجاه جنوب (الكويت).

بسبب الفوضى والقلق نزل العتوب الكويت بحثاً عن مكان أمين لإقامة مركز استقرار من عدم وإدارة شئونه^(١). بنى خالد الذين رحبوا بهم وسمحوا لهم بالاستقرار هناك ومنحهم تلك المنطقة^(٢).

عوامل نمو الكويت وتطورها :

(١) القوة البحرية الكويتية :

أن البحرية التي أسسها العتوب للنقل والغوص والتجارة كانت مزودة بأدوات عسكرية كالمدافع والبنادق وغيرها ، مما جعلها قوة بحرية كان لها أثرها على مياه الخليج وسواحلها في ذلك الوقت ولاسيما وأنهم وصلوا الكويت وهم محافظون على قوتهم البحرية لأنهم من أهم العشائر التي أبدعت في ركوب البحر، وتعززت تلك القوة في الربع الأخير للقرن الثامن عشر حين تأسست البحرية الكويتية. فنتيجة نمو تجارة الكويت وزيادة عدد السفن التجارية وكبر حجمها مما أدى إلى تشكيل الأسطول التجاري وحمايته وأصبحت الكويت ذات قوة عسكرية بحرية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر^(٣).

(٢) حماية بني خالد:

نشأت الكويت في أول عهدها في ظل حكم بني خالد وتحت حمايتهم مما أعطاها الفرصة للنمو والازدهار دون خشية الهجمات والغارات والاعتداءات الخارجية ، مما أدى إلى استتباب الأمن في ديارهم حتى تكون الطرق الأمنية آمنة ، أدى سيطرة العتوب تدريجياً على الكويت بعد ضعف بني خالد أوائل العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي^(٤).

(٣) نظام الحكم في الكويت :

تميز نظام الحكم في الكويت بكونه نظاماً أبوياً ، يعتمد على التشاور والتراحم والتعاون في كافة صورته ، فلم تشهد الكويت منذ تأسيسها تعقيداً في أنظمة الحكم فيها. وذلك نتيجة الظروف التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانت البساطة هي الطابع المميز للنظام في الكويت. فإذا أخذنا في الاعتبار حجم السكان

(١) يوسف جعفر: الكويت قرنان ونصف من الاستقلال - مطبعة الدار الشرقية - ص ٣٣.

(٢) محمد حسن العيدروس: مصدر سابق، ص ١١.

(٣) ميمونة الصباح: الكويت حضارة وتاريخ، ص ١٠٢.

(٤) أحمد الرشيد وآخرون: مصدر سابق، ص ٢٨.

للكويت، والظروف التي نعيشها فأنتنا نستطيع القول بأن نظام الحكم كان أقرب إلى نظام الشورى في الإسلام^(١).

عوامل خليجية وإقليمية :

(١) ضعف بلاد فارس :

ساعد اضطراب أحوال بلاد فارس وعدم استقرارها الكويت الناشئة على النمو والتطور أن تتعرض لخطر جشع حكام فارس واعتداءاتهم ودون أن تقع تحت تأثيرهم أو سيطرتهم، فحين استقرار العتوب في الكويت في مطلع القرن الثامن عشر كانت الإمبراطورية الصفوية قد دب فيها الهرم نتيجة الفوضى والاضطراب التي سادتها. مما دفع الشعوب الواقعة تحت نفوذها إلى محاولة الاستقلال، فقامت بحركات عسكرية للتخلص من سيطرة الفرس، ثم تعرضت بلاد فارس للغزو الأفغاني ثم العثماني والروسي على التوالي مما أتاح الفرصة للدول الناشئة في الخليج العربي ومنها الكويت إلى التحرر من أي نفوذ فارسي قد يحاول حكام إيران فرضه عليهم^(٢)، وعندما آل الحكم إلى نادر شاه عام ١٧٢٦ سيطر على فارس وامتدت أطماعه إلى الخليج العربي وتبنى سياسته البحرية في الشمال والجنوب أي بحر قزوين والخليج العربي، إلا أن هذه السياسة باءت بالفشل لعدم توفر البحارة الفرس اللازمين لمواكبة الطموح السياسي^(٣).

(٢) أوضاع العراق العثماني :

عملت الأوضاع السياسية المهلهلة السائدة في العراق العثماني على أن تحتل الكويت مكانة مرموقة في الخليج العربي، فقد شهدت البصرة من أواخر القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر فترة اضطراب وانتشار وباء الطاعون الذي أفنى البصرة وخرابها خراباً أدى إلى هجرة بعض أهاليها إلى الكويت والزيارة من علمائها وتجارها؛ وأن البصرة خلت من السكان بسبب الطاعون والمجاعة واضطهاد حكامها العثمانيين وتسلطهم^(٤).

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الطاعون تدمير تجارة البصرة تدميراً يكاد أن يكون كاملاً، وقد أفادت من ذلك الموانئ الناشئة على شاطئ الخليج العربي واثم أدى إلى انتقال الوكالة الانجليزية إلى الكويت مؤقثاً عام ١٧٧٠^(٥).

(١) ميمونة الصباح: مصدر سابق - ص ١٠٣-١٠٦.

(٢) أحمد الرشيد وآخرون: مصدر سابق - ص ٢٩.

(٣) ميمونة الصباح: مصدر سابق - ص ١٠٧-١٠٨.

(٤) أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية ١٧٥٠-١٨٠٠ - دار مكتبة الحياة - ص ١١٨-١١٩.

(٥) أحمد مصطفى أبو حاكمة: تاريخ الكويت الحديث، ص ٧٤.

احتلال الفرس للبصرة (١٧٧٦-١٧٧٩م):

كان لاحتلال الفرس للبصرة تأثير سياسى واقتصادى، أما بالنسبة للتأثير السياسى نجد أن احتلال الفرس للبصرة دفع بكثير من أهلها ولاسيما من كان من أصول نجدية وعربية إلى الكويت فزاد ذلك من سكان الكويت بشكل ملحوظ، مما زاد من مسئولياتها السياسية تجاه القادمين الجدد وترتيب أمورهم واستقرارهم، واتخاذ ترتيبات أمنية لمواجهة أى محاولة فارسية للهجوم على الكويت، ومن ناحية أخرى فإن الاحتلال الفارسى للبصرة حول الأنظار إلى الكويت مما دعم مركزها السياسى لدى القوة المحلية (العربية) والقوى الأجنبية المتمثلة بالشركات التجارية مثل (شركة الهند الشرقية الهولندية) و (شركة الهند الشرقية الانجليزية) فقد اتبعت الكويت سياسة ذات حدين فى إرضاء الطرفين، فساعدوا (كريم خان) أرسلوا إليه مائتى رجل لمساعدته وحيث استقبلوا السفن العثمانية فى ميناء الكويت، قامت العلاقات المباشرة بين ممثلى شركة الهند الشرقية الانجليزية فى الخليج والكويت، ثم أصبحت الكويت كذلك محطة رئيسية للقوافل الناقلة للبضائع من البصرة إلى حلب طوال فترة الحصار والاحتلال ما بين عام ١٧٧٥م إلى ١٧٧٩م مما أدى إلى تكوّن ثروات طائلة فى الكويت والزبارة. ونظرا لهذه الظروف الجديدة تقرر جعل الكويت نقطة انطلاق البريد الهندى للخليج العربى وبالفعل بدأ «البريد الهندى» اعتبارا من سنة ١٧٧٥م ينقل من الكويت على الجمال السريعة إلى حلب بمرافقة حراسة كبيرة من رجال الشيخ عبد الله الصباح، الأمر الذى حقق للإمارة فوائد اقتصادية وسياسية ضخمة^(١).

حكام الكويت:

الحاكم صباح الأول:

هو أول حاكم فى الكويت وزعيم أسرة الصباح التى تنسب إليه، وفى عهده تأسست الكويت ولما تكاثرت الناس فكروا فى اختيار أمير عليهم، فوقع الاختيار على صباح الأول لما يتمتع به من صفات الأمير وحسن السيرة والطباع الحميدة^(٢).

عهد (عبد الله بن صباح الأول):

بعد وفاة الحاكم الأول الشيخ صباح الأول تولى ابنه عبد الله الأول وكان شجاعا وحكيما، وقد استمر فى الإمارة قرابة سبعين عاما، وقد نشطت تجارة الكويت فى عهده

(١) ميمونة الصباح: مصدر سابق، ص ١٠٩.

(٢) أحمد الشرياصي: أيام الكويت، ص ١١.

مع العراق والهند واليمن^(١)، وفي عهده حدثت نشوب أول معركة في تاريخ الكويت عام ١٧٨٣م وهي المعركة التي دارت رحاها بين الكويتيين وبنى كعب وهم عرب الجزيرة العربية وتعود أصولها إلى نجد، وكانت هجرتهم للساحل الشرقي للخليج العربي أثر الازدهار التجاري الذي شهدته الكويت حينئذ حفيظة بنو كعب عندما قامت بريطانيا بنقل البريد البريطاني إلى الكويت عام ١٧٧٥م أثناء حصار الفرس للبصرة فأصبحت الكويت بذلك مركزاً لتصريف المنتجات البريطانية في الخليج العربي وحلب^(٢)، وكان هذا اهتمام وطمع من بنى كعب باتجاه الكويت متعللين بخطبة مريم بنت الشيخ عبد الله بن صباح الأول، وكان الشيخ عبد الله استشار أهل الكويت الذين رفضوا الطلب مما دفع بنى كعب إلى إعداد العدة لاحتلال الكويت. ثم أدت معركة الرقة إلى انتصار الكويت على بنى كعب^(٣).

علاقة الكويت بالحركة الوهابية في نجد:

في عهد عبد الله بن صباح الأول تعرضت الكويت إلى خطر الحركة الوهابية عام ١٧٩٣م مرات كثيرة والتي كانت الكويت قد عانت من الغارات الوهابية ولم تخضع الكويت إلى الحكم الوهابي^(٤)، وقد تصادفت وقوع هذه الغارات على الكويت بعد انتقال الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت، وقد اتخذت الوكالة البريطانية موقف الحياد في صراع الكويت مع الوهابيين خوفاً على البريد البريطاني الذي يصل إلى الكويت عن طريق الصحراء وصادقت بريطانيا آل سعود^(٥) ثم ساعد الشيخ عبد الله بن صباح الأول الدولة العثمانية على القضاء على الدولة السعودية، حيث قام والي بغداد سليمان باشا بإرسال الحملة إلى نجد والقضاء عليها، فقد ساعدت الكويت الدولة العثمانية في نقل المؤن والأسلحة ونقل الجنود^(٦).

الشيخ جابر الأول بن عبد الله الأول (١٨١٣-١٨٥٩) علاقته مع بريطانيا :

بعد وفاة حاكم الكويت عبد الله بن صباح، كان نجله جابر متواجداً آنذاك في البحرين، ولكي لا يحدث فراغاً في السلطة وكان من الأهمية بمكان العمل على ملء

(١) زيد الدبي: إنجازات حكام الكويت، ص ٢٦.

(٢) صبري فالح الحمدي: الكويت، نشأتها وتطورها، ص ٥٦.

(٣) عبد الله الهاجري ومحمد نايف العنزي: مدخل إلى تاريخ الكويت الحديث والمعاصر، ص ٥١-٩٠.

(٤) نجاة الحاسم: قضايا التطور السياسي والاجتماعي لدولة الكويت، ص ١٥.

(٥) نورية محمد الصالح: علاقات الكويت السياسية بشرق الجزيرة العربية والعراق العثماني، ص ١٢٧-١٢٨.

(٦) ميمونة الصباح: مصدر سابق، ص ١٤٢-١٤٣.

هذا الفراغ بالسرعة الممكنة، تم اختيار على محمد السلطان ليكون حاكماً عليهم، راعياً لشؤونهم ريثما عودة نجل جابر الذي فى البحرين، الذى عاد وتولى الحكم^(١)، وقد عرف عن جابر الأول بن عبد الله امتلاكه لزمّام الحكمة والأريحية، فضلاً عن كرم مشهود وجد صداه فى نفوس وقلوب أهل الكويت الذين لقبوه جابر العيش بجوده وكرمه وقد خصص محلاً فى منزله ليرتاده الفقراء والمساكين^(٢).

حاول البريطانيون التقرب من الشيخ جابر الأول لإقناعه فى رفع العلم البريطانى على ساريات قصره ثم رفض^(٣) الطلب البريطانى، وفى عهده تم انتقال الوكالة الانجليزية بكاملها من البصرة وإقامتها فى الكويت فى الفترة ١٨٢١-١٨٢٢م، أدى إلى تحسين العلاقة مع بريطانيا مما أثبت استقلال الكويت عن الدولة العثمانية^(٤).

ومن الأمثلة على استقلال الكويت عن الدولة العثمانية لجوء كلا من الشيخ ثوينى (شيخ قبيلة المنتفق) ومصطفى أغا (متسلم البصرة) إلى شيخ الكويت على أثر تمردهم ضد سليمان باشا والى بغداد وهروبهم إلى الكويت، وقد حاول سليمان باشا طلب من السيد صموئيل مانيسى المسئول عن الوكالة التجارية البريطانية فى البصرة المساعدة فى الهجوم على الكويت، لكنه رفض بسبب العلاقة الودية بين شيخ الكويت والمسئولين فى وكالة البصرة، ولكن شيخ الكويت رفض تسليم الهاربين وأوعز إليهم مغادرة الكويت إلى نجد^(٥).

حاكم الكويت الشيخ صباح الثانى بن جابر الأول ١٨٥٩-١٨٦٦م :

ازدهرت فى عهده التجارة فحاول أن يفرض رسوماً على البضائع الواردة إلى الكويت، ولكن رفض التجار هذه الزيادة وتم إلغائها وهذه دلالة تماسك الحاكم والرعية عن طريق الشورى بينهم^(٦)، دون الحاجة إلى مجالس الشورى أو التشريع فى بدأ النشأة، بل كان مجلس الحاكم بمثابة البرلمان الذى يلتقى فيه أفراد الشعب.

عندما قدم الوكيل السياسى البريطانى لويس بيللى إلى الكويت عام ١٨٦٣م استقبل الشيخ صباح الثانى ضيفه البريطانى استقبالاً حميماً، وأشاد الوكيل السياسى بالتطور الاقتصادى والسياسى للكويت، وحسن علاقته بالشيخ صباح الثانى وفى إدارته وأسلوب

(١) أحمد الرشيدى وآخرون: مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

(٢) شريف شرف الدين: مرجع سابق، ص ٩١.

(٣) عبد الله الهاجرى - محمد نايف العنزى: مرجع سابق، ص ٥٦.

(٤) فتوح الخترش: التاريخ السياسى للكويت فى عهد مبارك، ١٩٩١م، ص ١٠.

(٥) عبد الله يوسف الغنيم وآخرون: الكويت وجوداً وحدوداً، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٥٣-٥٤.

(٦) محمد حسن العيدروسى: المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨.

حكيم للإمارة^(١).

حاكم الكويت عبد الله بن صباح الثاني (١٨٦٦-١٨٩٢م) :

كان الشيخ عبد الله واسع الحكم محبا للإصلاح مكرها لسفك الدماء ميالا للجد والإخلاص غير مخادع ولا موارى ومن دهائه أنه إذا ما وقع في مأزق حرج لا يلبث أن يتخلص منه تخلصا حسنا مما يثير إعجاب الناس به^(٢)، وحدث في عهده مجاعة سميت عام (البؤس والجوع) على الكويت عام ١٨٦٧م، قام الشيخ عبد الله بفتح خزائنه أمام الكويتيين ليرفع عنهم الضائقة ولم يترك وسيلة ولا طريقة للتخفيف عن سكانه في هذه الأزمة من إطعام الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاجين^(٣). وكانت علاقة الشيخ عبد الله الثاني بالدولة العثمانية عندما اشتدت الخلافات بين الأخوين الأمير سعود وعبد الله آل سعود، مما اضطر الأمير عبد الله وكثير من رجاله إلى النزوح إلى الكويت ثم طلب الأمير عبد الله آل سعود من الدولة العثمانية لمساعدته على أخيه، وأرسلت الدولة العثمانية حملة على الإحساء عام ١٨٧١م، وقدم الشيخ عبد الله حاكم الكويت في تلك الحملة دعماً مباشراً للدولة العثمانية عبر قوة بحرية بقيادة الحاكم نفسه وقوة برية بقيادة شقيق الحاكم الشيخ مبارك الصباح وقد نال الدعم الكويتي ثناء الحكومة العثمانية^(٤)، وعلى الصعيد المحلي للكويت في عهده غرقت السفن الكويتية بسبب الأحوال الجوية السيئة وسميت سنة (الطبعة)^(٥).

الشيخ محمد بن صباح (١٨٩٢-١٨٩٦):

عندما تولى الحكم بعد وفاة شقيقه الشيخ عبد الله كان الشيخ محمد بن صباح ضعيفاً ومسالماً في إدارة الحكم، وكانت أول عقبة له تجدد اضطراب الأحوال في الإحساء ١٨٩٢م، وكلف أخوه الشيخ مبارك بن صباح بالتوجه إلى الإحساء، فسار على رأس قوة كبيرة من عربان بادية الكويت زاحفاً بالطريق البري^(٦)، واصل دعم العثمانيين في حملاتهم المتكررة على الإحساء ١٨٩٢-١٨٩٣-١٨٩٤م و ضد الشيخ قاسم آل ثاني حاكم قطر وتم في عهده فرض ضريبة عرفت بضريبة (الوادي) على البضائع الواردة إلى الكويت والمصدرة خارجها يدفعها البدو القادمون إلى المدينة و حدد نسبتها ١٠٪^(٧). وقد شاركه في الحكم شقيقاه

(١) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص ٥٨-٥٩.

(٢) فاضل سعيد عقل: معلومات ومشاهدة الكويت الحديثة، ١٩٥٢، ص ١٤.

(٣) محمد حسن العيدروسي: المرجع السابق، ص ٦٠-٦١.

(٤) خالد عبد المنعم العاني: الكويت والصراع العثماني البريطاني (١٨٩٦-١٩١٥)، ص ٣٠-٣١.

(٥) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: المرجع السابق، ص ٦١-٦٢.

(٦) أحمد مصطفى أبو حاكمة: مرجع سابق، ص ١٦٢.

(٧) عبد الله الهاجري ومحمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص ٦١-٦٣.

جراح ومبارك مما أدى إلى قيام الشيخ محمد بإبعاد الشيخ مبارك عن الحكم بإرساله إلى البادية لحل مشاكلها ، غير أن محصلة تصرفات الشيخ محمد ، وبالتضامن مع الشيخ جراح ، قد أوقعت القطيعة بينهما وبين أخيهما الشيخ مبارك^(١) ، وفي نهاية ١٨٩٦م قام الشيخ مبارك الصباح بقتل أخويه واستلام الحكم والسيطرة على الكويت^(٢).

مبارك الصباح (الكبير) ١٨٩٦-١٩١٥م :

ولد الشيخ مبارك في الكويت عام ١٨٤٤م وتعلم وتأدب ببعض علوم الدين وكما تعلم فن الفروسية ، ثم تمرن على الحكم في حياة جده ووالده وأخيه ، وكان صلب الأرادة طموحاً إلى نشر سلطانه ونفوذه على المناطق المجاورة ، وتولى الحكم بعد أن قتل أخوية محمد وجراح عام ١٨٩٦م وهو يعتبر سابع حكام الكويت. وقد أرسى في عهده العدل وسعاه في الإصلاح ، وطبقاً لرؤية الكثير من المؤرخين كان مبارك الصباح الذي عرف أيضاً باسم (مبارك الكبير) يعد مؤسس الكويت الحديثة^(٣) ، وفي عهد مبارك الصباح تعرضت الكويت للخطر العثماني بعد أن قام يوسف الإبراهيم وأولاد محمد وجراح الصباح بطلب المساعدة من والى البصرة حمدي باشا الذي كان ألد أعداء الشيخ مبارك لتحريض الدولة العثمانية والقضاء على حكم الشيخ مبارك^(٤) ، ولكن الشيخ مبارك له علاقة طيبة مع والى بغداد رجب باشا فقد أرسل الهدايا والأموال إلى والى لكى يقف إلى جانبه ضد والى البصرة. وقد استطاع والى بغداد رجب باشا إقناع الدولة العثمانية بأن الأمور التي حدثت في الكويت^(٥) . والمتمثلة في الحادثة التي جرت بين الشيخ مبارك مع أخويه من الحوادث المألوفة والتي مازالت تقع بين الأعراب أنها من الأمور العامة ، ومن الجدير بالدولة العثمانية أن تعير هذه المسألة الأهمية والانتباه الزائد. ونشر نفوذها على الإمارات العربية في الخليج ، وقد أصدرت الدولة العثمانية قراراً إلى والى البصرة حمدي باشا بعدم التدخل في شئون الكويت^(٦).

وفي بداية عهد الشيخ مبارك تعرض إلى الكثير من المشاكل الخارجية فقد نشب صراع مرير بين الكويتيين من جهة وابن رشيد من جهة أخرى أدى إلى وقوع معركة الصريف ١٩٠١م انهزم فيها الكويتيين ، أما بريطانيا فقد نجحت في توقيع اتفاقية حماية مع الكويت في

(1) Dickson HRM: The Arab of Desert, P. 266.

(2) راشد عبد الله الفرحان مختصر تاريخ الكويت وعلاقتها بالحكومة البريطانية والدولة العربية، ص ٦٨.

(3) زيد الدبي، مرجع سابق، ص ٤٤-٤٦.

(4) نفسه.

(5) فؤاد سعيد العابد: سياسة بريطانيا في الخليج العربي، ج ٢، الكويت، ص ١٦٦.

(6) محمد حسن العيدروسي: المرجع السابق، ص ١١٧-١١٨.

٢٣ يناير ١٨٩٩م، وقد أحيطت هذه الاتفاقية بالسرية من الطرفين في البداية ثم انكشفت هذه الاتفاقية وأعلنت بريطانيا الحماية على الكويت ويعتبر الشيخ مبارك عملياً مؤسس العلاقات الكويتية البريطانية^(١)، وكانت الكويت في عهد مبارك الصباح قد تعرضت إلى التنافس الألماني والروسي والبريطاني للسيطرة، وهو صراع سياسي واقتصادي وكان في أوجه التنافس الاقتصادي هو بناء سكة حديد بغداد ومنافسة الشركات الألمانية لتجارة الشحن البريطانية على الموانئ في الخليج العربي وخاصة الكويت^(٢).

شهدت الكويت في عهد مبارك بداية الخدمات البريدية العصرية، وكذلك التلغراف اللاسلكي، وأيضاً في عهده تم إنشاء المدرسة المباركية حيث سارت فيها الدراسة على طريقة عصرية حديثة في عام ١٩١١م^(٣)، وشهد عام ١٩٠٩م إنشاء فرع في الكويت للإرسالية الأمريكية العربية التابعة للكنيسة الهولندية الإصلاحية، هدف إنشاء هذه الإرسالية هو إنشاء مستشفى ومدرسة، وكان يمارس الدكتور «هاريسون» والدكتور «كالفرلي» عملهم في المستشفى، ولكن في النهاية أغلقت هذه الإرسالية بسبب معارضة الأهالي لهذه الإرسالية خوفاً من حركة التبشير المسيحي^(٤).

وشهد عهد الشيخ مبارك زيارة بعض العلماء والأدباء إلى الكويت، واستفادة الكويت من هؤلاء العلماء والأدباء في تطور الثقافة والنهضة الفكرية في الكويت^(٥). وكان الشيخ مبارك قد أولى عناية خاصة لخلق علاقات مباشرة مع الصحافة العربية وتشجيع الكويتيين للكتابة فيها، كما دفع الاشتراكات المجزية للصحف العربية التي تناصره حتى لو كانت ممنوعة من جانب السلطات العثمانية^(٦).

الشيخ جابر مبارك الصباح :

تولى الشيخ جابر مبارك الصباح الحكم في عام ١٩١٥-١٩١٧م وقد عرف عنه دماثة خلقه وتواضعه وسعة صدره فضلاً عن سماحته وعفوه وعدله، وكانت فترة حكمه صغيرة لم تتجاوز العامين، وقد حضر مؤتمراً لدعم بريطانيا ضد الدولة العثمانية ١٩١٦م وقد دعم المدرسة المباركية دعماً مادياً^(٧)، فقد تم إلغاء ضرائب أبيه المتعددة المتعلقة بالأموال

(١) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص ٦٧.

(٢) نجاة عبد القادر الجاسم: التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين ١٩١٤-١٩٣٩م، ص ٢٤.

(٣) Peter Lienhardt: Dispensation a society in flux - Kuwait.

(٤) Dickson HPR: Kuwait and her neighbors

(٥) أحمد أبو حاكمة: المرجع السابق، ص ٣٢٥.

(٦) عبد العزيز المنصور: الكويت وعلاقاتها بعريستان والبصرة (١٨٩٦-١٩١٥)، ص ٥٨.

(٧) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

والعقار، وكان مبارك فرض ضريبتين على كل عقار يباع أو يأجر^(١)، وقد انتعشت في عهده التجارة بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى^(٢).

الشيخ سالم بن مبارك الصباح ١٩١٧-١٩٢١ :

تولى الحكم بعد وفاة أخيه الشيخ جابر، وقد عرف عن الشيخ سالم بن مبارك الصباح بالتدين وشغفه بمطالعة المصنفات الدينية ومجبا للقراءات الأدبية، حفيا بأهل الأدب والشعر وقد قرب منه شاعر الكويت المعروف صقر بن سالم الشبيب واتخاذه من خاصته^(٣)، وقد تعرضت الكويت للهجوم من قبل المحاربين الأخوان الذي أرسل منهم عبدالعزيز آل سعود قوة قوامها حوالي ٥٠٠٠ من المقاتلين، لمهاجمة الكويت مما دفع الشيخ سالم ليستغيث ببريطانيا، وقامت بريطانيا بإرسال سفينة حربية نحو ميناء الكويت^(٤)، وقد اعتبر مستر «مور» أن قصف جموع الأخوان بقنابل الطائرات سيزيد من هيبة البريطانيين في الكويت بدرجة كبيرة للغاية، وسيزيد الشعور بالمرارة السائدة في الكويت تجاه البريطانيين، ولكن المندوب السامي في العراق رفض هذه الفكرة، وقد قامت الطائرات البريطانية بإلقاء منشورات فوق معسكر الأخوان تحذرهم من الهجوم على الكويت، وقد انتصرت الكويت في معركة الجهراء على الأخوان في القصر الأحمر مما أدى إلى انسحاب قوات الأخوان إلى نجد.

الشيخ أحمد الجابر الصباح ١٩٢١-١٩٥٠ م :

يعتبر الشيخ أحمد الجابر الصباح هو مؤسس النهضة العلمية والفكرية في الكويت. وكان محبا للعلم والأدب، وكان مبادرا إلى الاشتراك في الصحف والمجلات لحبه وشوقه إلى العلم والأدب والمعرفة وتتبع أحوال العصر، وفي عهده أصبح الجهل هو العيب وهو المعرقل لمسيرة التقدم، وقد تأسست في عهده المدرسة الأحمدية ١٩٢١م التي استطاعت أن تخرج رجالاً كان لهم دورا في بناء الكويت الحديثة وجيل متعلم ومنتقف^(٥)، وفرض ضريبة على التجار للإنفاق على التعليم، وفي عهده تم تأليف أول مجلس للمعارف ١٩٣٦م^(٦)، وتأسيس أول مجلس الشورى وتأسيس المجلس التشريعي الأول ١٩٣٨م، وتم استقدام أول بعثة عربية

(١) أمين الريحاني: ملوك العرب ج ١، بيروت، ص ٦٦٣.

(٢) بدر خالد البدر: معركة الجهراء وما قبلها وما بعدها، ص ٣٤.

(٣) عبد العزيز الرشيد: تاريخ الكويت، ١٩٢٦م، ص ١٦٠-١٦١.

(٤) بدر الدين الخصوصي: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر.

(٥) محمد الفرحاتي: الكويت بين أمس واليوم، مرفق ص ٤٨.

(٦) عبد الرحمن أحمد الأحمد - على عبد الله الشمالان: تطوير نظام التعليم في دولة الكويت، ١٩٨٦، ص ٢٦.

للتعليم من فلسطين، وتأسست مدرسة السعادة لتعليم اليتامى أبناء الفقراء فى عام ١٩٢٤ م، وتم إيفاد أول بعثة للدراسة إلى بغداد من الطلاب الكويتيين لكي يتعلموا العلوم الحديثة، ومن ثم التوسع فى المدراس فى الكويت فى ازدياد عامًا بعد عام وكان عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح ملتقى زوار الكويت متمثلين فى عدد من المفكرين والشخصيات المرموقة فى العالم العربى من أمثال رشيد رضا والشيخ عبدالعزيز الثعالبي وحافظ وهبة وغيرهم من المثقفين العرب، وقد استفاد الكويتيون من خبرات هؤلاء العلماء العرب استفادة كاملة، وتم إنشاء المكتبة الأهلية فى عهده والنادى الأدبى وتم إرسال البعثات إلى مصر، وفى عهده تم اكتشاف البترول عام ١٩٣٩م فى الكويت، وفى عام ١٩٤٦م صدرت أول شحنة نفطية إلى الخارج فى احتفال مهيب.

الشيخ عبدالله السالم الصباح ١٩٥٠- ١٩٦٥ م :

تولى الشيخ عبدالله السالم الحكم بعد وفاة الشيخ أحمد الجابر الصباح فى سنة ١٩٥٠ م وكان الشيخ عبدالله السالم يلقب أبو الاستقلال الذى كان فى عهده الاستقلال عن بريطانيا ١٩٦١م، بعد إلغاء اتفاقية الحماية المعقودة بين الكويت وبريطانيا فى عام ١٨٩٩م وذلك فى عام ١٩٦١م، وكان محبا للديمقراطية وداعما لها فى الكويت ومؤمنا بها، وكان الشيخ عبدالله السالم محبا للتعليم والثقافة وقد أنشئ فى عهده النادى الثقافى القومى، وتأسيس المدارس فى الكويت فى عهده وشجع الكويتيين على الدراسة فى التعليم الذى تطور فى عهده كثيرا وخاصة بعد الاستفادة من عائدات النفط فى تطوير التعليم وأساليبه، وفى عهده أعلن الدستور وتم وضع مادة فى الدستور بأن التعليم إجبارى للشعب، وكان محبا للشعر فحفظ الكثير من الشعر العربى، وكان الشيخ عبدالله أمر بإنشاء مدرستين لتعليم اللغة العربية للأبناء العرب المقيمين فى الهند وباكستان وأهل البلاد المذكورة فى تعلم اللغة العربية وأدابها فى مدينتى بومبى وكراشى، وإنشاء الأندية الثقافية والرياضية والسياسية مثل نادى المعلمين ١٩٥١م، والنادى الأهلى ١٩٥٢م وجمعية الإرشاد الإسلامية عام ١٩٥٢م وظهور المجالات مثلا الرائد والايمان والإرشاد، وكان الهدف من إنشاء هذه الأندية والمجلات يتمثل فى السعى للنهوض بالوعى الاجتماعى والثقافى فى المقام الأول وكذلك الوعى السياسى.

ثانياً: تطور العلاقة بين الكويت والدولة العثمانية:

كانت أهم العلاقات بين إمارة الكويت والدولة العثمانية طوال القرن التاسع عشر، وخاصة بعد رحيل قوات محمد علي باشا الوالى العثماني على مصر، كانت أهم تلك

العلاقات السياسية بين الكويت هي تلك القائمة بين الكويت والعراق التركي، الخاضع للدولة العثمانية بوجود باشا في بغداد، وحتى مع وجود باشوية في البصرة، صارت أمور مشيخات الخليج العربية من اختصاص باشا بغداد.

وكانت علاقة الكويت الودية قائمة مع وسط جزيرة العرب، إلى جانب علاقة الكويتيين الودية بأقربائهم في البحرين، وكان حاكم الكويت خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة -النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي- هو الشيخ جابر الصباح إلى أن مات في سنة ١٨٥٩م، وخلفه ابن الشيخ صباح الذي كان يحكم الكويت كأب ينظر في شئون أبنائه، ولم يكن المسئولون في الكويت يتدخلون كثيراً في شئون رعاياهم، ونادراً ما كانت توقع عقوبات بأحد، وكان الشيخ يحتفظ بالسلطة السياسية لكن السلطة القضائية كانت في يد القاضي وحده، وكان التسامح الديني من جانب الشيخ الحاكم يمتد ليشمل حتى اليهود، وحين مات الشيخ صباح في سنة ١٨٦٦م خلفه أكبر أبنائه الشيخ عبد الله^(١).

وفي عهد الشيخ عبد الله بدأت بواخر شركة الهند البريطانية للملاحة التجارية تتردد على الكويت، نتيجة لزيارة الكولونيل بيللي المقيم العام البريطاني في الخليج، وفي إطار العلاقة الطيبة التي حرص عليها حكام الكويت في مواجهة بعض المشكلات التي تثار من جانب الولاة العثمانيين في العراق، وفي مواجهة الاضطرابات بين بعض مشيخات الخليج العربية والصراع بين آل سعود وآل رشيد في نجد.

وكانت الكويت تعترف للدولة العثمانية بمكانة خاصة باعتبارها دولة إسلامية وفي إطار الجامعة الإسلامية التي تتزعمها الدولة العثمانية في مواجهة العدوان الاستعماري الأوروبي، وجاء هذا الاعتراف متمثلاً في رفع العلم العثماني على قصر الحكم، وعلى السفن الكويتية المبحرة في مياه الخليج العربي حتى مياه المحيط الهندي، ويتمثل هذا الاعتراف كذلك في وضع الكويت تحت الحماية العثمانية وفي دفع أموال الزكاة للدولة العثمانية. وعندما أراد نامق باشا الوالي العثماني للعراق في عام ١٨٦٦م أن يحول تبعية الكويت الاسمية للدولة العثمانية إلى تبعية فعلية، وطلب إرسال سفينتين مسلحتين من استانبول، تشاور الشيخ عبد الله الصباح مع المقيم البريطاني في بغداد الكولونيل «كيمبول» الذي أكد للشيخ أن حرية الكويت المكتسبة منذ زمن بعيد ستصبح بهذه الخطوة العثمانية مجرد أثرًا من آثار الماضي، ومن ثم التمس الشيخ عبد الله من السلطات البريطانية ألا تقف السفن البريطانية بميناء الكويت حتى لا يكون هذا التوقف للسفن

(١) لويمر (ج.ج): دليل الخليج، القسم التاريخ، ج٢، ص ١٥١٦م.

البريطانية ذريعة عند نامق باشا، الذي كان ينظر بحسد وغيره من زيارة السفن البريطانية لميناء الكويت، خاصة أن رخاء الكويت التجاري أمر يضر بمصالح البصرة العراقي.

ومع ذلك فإن الشيخ عبد الله بن صباح ظل على علاقة وثيقة بالحكومة العثمانية في استانبول طوال مدة حكمه (١٨٦٦-١٨٩٢م)، وليس أدل على ذلك من قيامه بدور الوسيط عند الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود وعونه لحملة مدحت باشا على الأحساء، كما قدم الشيخ عبد الله الصباح نفسه عام ١٨٧٠م وسائل النقل البحري المؤلفة من ٣٠٠ سفينة أهلية لنقل القوات التركية المتجهة لفتح الأحساء، وقد صعب الحملة بنفسه، وعن طريقه تم إقناع شيخ الدوحة في قطر الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني برفع العلم التركي، وكانت مكافأة العثمانيين في المقابل تعيين الشيخ عبد الله الصباح في منصب قائم مقام تركي في الكويت، والشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في منصب قائم مقام تركي في الدوحة^(١).

ولم تكن بريطانيا في ذلك الوقت على استعداد لمنافسة الدولة العثمانية في الكويت نظراً لقرب الكويت من الولاية العثمانية في العراق، ولأن بريطانيا كانوا يهتمون فقط بالبحرين والساحل العربي الجنوبي القطيف حتى عمان ومدخل الخليج العربي عند هرمز، وأنهم - أي البريطانيين - على استعداد للاعتراف بتبعية الكويت وساحل الأحساء وخاصة مواني القطيف والعقير للدولة العثمانية، في مقابل ألا يتقدم الأتراك جنوب القطيف استمرت العلاقات طيبة حتى عندما طلب الأتراك من الشيخ محمد الصباح مساعدة القوات العثمانية في القضاء على الاضطرابات في إقليم الأحساء العثماني بادر الشيخ محمد (١٨٩٢-١٨٩٦م) بقيادة حملة عسكرية كبيرة من البدو في مارس ١٨٩٣م سارت عن طريق البر إلى الأحساء، حتى نجحت هذه القوات مع القوات التركية في إخماد الاضطرابات بالأحساء.

وعندما أصبح الشيخ مبارك الصباح حاكماً للكويت عام ١٨٩٦م، أرسل حمدي باشا والي البصرة آنذاك إلى الأستانة يصف حكم الشيخ مبارك بأنه فرصة لإقامة علاقات تركية وثيقة بالكويت خاصة أن الشيخ مبارك اعترف بولائه للباب العالي، ورفع العلم التركي على قصر الحكم، بل وعدم الاحتجاج في عام ١٨٩٧م على وصول مسئول تركي عن الحجر الصحي وأقام في الكويت، وفي ديسمبر من ذلك العام قام محسن باشا والي البصرة - الذي خلف حمدي باشا - بإبلاغ الشيخ مبارك الصباح بأن إرادة سلطانية صدرت بتعيين الشيخ مبارك قائم مقام للكويت بمرتب ٣٠٠ جنيه سنوياً^(٢).

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص ١٥٢٧.

كان الاعتقاد السائد عند البريطانيين أنه رغم منصب القائم مقام التركي للشيخ مبارك، ورفع العلم التركي على قصر الحكم في الكويت، واعتراف الشيخ مبارك الصباح بسيادة الباب العالي، فإنه - أي الشيخ مبارك - حاكم مستقل في الحقيقة ولا يخضع للسلطات إلا خضوعاً اسمياً فقط، وأن الكويت - في رأي البريطانيين - تعترف بالنفوذ التركي فيها منذ تولى الشيخ مبارك الحكم، ومن ثم رحب البريطانيون بطلب الشيخ مبارك في فبراير ١٨٩٧م مقابلة الرائد ويلسون المقيم السياسي في الخليج أو وكيلاً عنه، وكان الهدف كما كشفت المصادر البريطانية من هذه المقابلة طلب الشيخ مبارك الحماية البريطانية، الذي أبدى قلقه من تصرف الأتراك بإيفاد مستول صحنى إلى الكويت دون استشارة الشيخ، وكان الطلب بوضع الكويت تحت الحماية البريطانية أسوة بشيخ البحرين وشيوخ الساحل العمانى المتصالح.

وقد ظهرت عوامل جعلت تحقيق طلب الشيخ مبارك بالحماية البريطانية على الكويت، من هذه العوامل ما أشيع من رغبة الحكومة الروسية في إقامة مستودع للفحم بالكويت، وكانت هناك جهود للحصول على امتياز من الباب العالي لمواطن روسي لمد خط حديدي من البحر المتوسط إلى الخليج، مما يهدد المصالح البريطانية في الخليج، وأيضاً ما أشيع عن احتمال إرسال قوات تركية من البصرة إلى الكويت.

عقدت اتفاقية الحماية البريطانية على الكويت بمدينة الكويت في ٢٣ يناير ١٨٩٩م وقع عليها الرائد المقيم السياسي في الخليج العربى، والشيخ مبارك الصباح الذى يتعهد هو وخلفاؤه وأبناؤه بعدم السماح لممثلى أية دولة أو حكومة أجنبية بالإقامة فى الكويت أو سواها من الأرض التابعة له دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية، وألا يبيع أو يرهن أو يعطى أو يتنازل - بغرض الاحتلال أو أى غرض آخر - عن أى جزء من أرضه لدولة أجنبية أو رعايا دولة أجنبية دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية، وبعد التوقيع سلم الرائد ويلسون للشيخ مبارك الصباح خطاً يؤكد له فيه باسم الحكومة البريطانية نواياها الطيبة نحوه ونحو ورثته وخلفائه ما ظلوا على التزامهم بنصوص هذه الاتفاقية^(١).

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية حتى تم إلغاؤها فى عام ١٩٦١م بإعلان استقلال الكويت، ورغم هذه الاتفاقية فإن علاقات الشيخ مبارك بالدولة العثمانية استمرت ودية فى أغلب الأوقات رغم احتجاج السلطات العثمانية على الاتفاقية، ومحاولات باشا البصرة العثمانى التدخل فى شئون الكويت، وبعض المشكلات الأخرى التى هدف منها العثمانيون إثبات

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص ١٥٢٢.

سيادتهم على الكويت، مما جعل البريطانيين يعلنون صراحة حمايتهم للكويت ضد أية محاولات للتدخل في شئون الكويت عام ١٩٠٢م وتعيين وكيل سياسي بريطاني في الكويت عام ١٩٠٤م.

ومع ذلك فهناك محاولات من الشيخ مبارك الصباح لتأكيد مودته للدولة العثمانية من بينها وساطته بين السلطات التركية في المنطقة وعبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود في فبراير ١٩٠٥م ومنها مساهمة الشيخ بمبلغ ٤٥٠ ليرة عثمانية لبناء ثكنات تركية جديدة في البصرة، وحين قبلت هذه العطية من جانبه أعلن الشيخ مبارك ولاءه للسلطان العثماني، ووعد بدفع مبلغ ٢٠٠ ليرة عثمانية أخرى، ومنها مساعدة الجنود الأتراك المنسحبين من نجد بالغذاء والرعاية حتى سفرهم إلى البصرة، ومنها السماح للبريد التركي الرسمي بين العراق والاحساء بالانتقال عن طريق البر عبر الكويت بدلا من نقله بواسطة سفينة بريطانية عبر البحرين، ومنها تبرع الشيخ مبارك بمبلغ ٥٠٠ ليرة عثمانية لميزانية سكة حديد الحجاز، كما كان قد تسلم في يناير ١٩٠٤م الوسام الذي يمنحه السلطان العثماني لكبار المتبرعين للمشروع.

ثالثاً: نهاية الوجود العثماني على سواحل الخليج العربي

كان قدر الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ مبارك الصباح يقضي على كليهما التعاون الوثيق مع الآخر مهما بلغ التنافر بينهما. رغب مبارك في أن يدحض عنه عبد العزيز خطر آل رشيد حين أقحمت تلك الأسرة نفسها في النزاع الحادث في أسرة آل صباح حيث ناصرت تلك الأسرة الأطراف المناوئة لمبارك، وكان لابن سعود مع ابن رشيد حق يطلبه، ولهذا التقت المصالح السعودية المباركية. ودفع القدر بالرجلين ابن سعود وابن الصباح لدفع دورة التاريخ في المنطقة، يدعم عبد العزيز في ذلك تاريخ حافل لأسرته ثم نضاله وكفاحه ومقدرته في المجال العسكري والدبلوماسي. وكان مبارك طموحه الكبير يعمل على مد تأثيره ونفوذه داخل الجزيرة العربية فيعين عبد العزيز بن سعود بالمال والسلاح. وحين أصاب الضعف أسرة آل رشيد تحقق لعبد العزيز بعض ما كان يصبو إليه وتحقق لمبارك الكثير مما كان يصبو إليه.

وبالرغم من اختلاف الظروف التي أدت إلى توثيق التعاون بين الرجلين إلا أن القدر أيضاً كان يدفعهما دفعا في اتجاه التعاون. لم يكن لابن سعود وأرضه التي حازها منفذا للعالم الخارجي يمكن أن يخدم كل أغراضه سوى الكويت. وعلى هذا كان على ابن سعود أن يحقق علاقات طيبة أو رديئة مع الكويت ليحتفظ باتصاله مع العالم الخارجي عن طريق

مينااء الكويت المنفتح على ذلك العالم، وأن يحافظ على الكويت بعيدة عن كل تأثير لأية قوة قبلية مناهضة له، وأن يبعد عن أطراف الكويت كل خطر يقطع خطوط إمدادات نجد. أمّا مبارك فقد وجد نفسه متّصلاً بالعالم الخارجي الذي انفتحت مساراته كلّها أمام الكويت بفضل علاقته بالبريطانيين المسيطرين على الدروب البحرية في هذه الفترة على امتداد الشرق. كان العالم الخارجي للخليج العربي في تلك الايام ضيقاً، على اتّساعه، بالنسبة إلى القوى المحلية حيث جهد البريطانيون في شبه القارة الهندية على قصره على الهند والمصالح البريطانية فيها وفي مساراتها. ولم يكن ابن سعود بمستطيع أن يتّصل بالهند، ذلك العالم الخارجي، إلاّ من خلال مبارك وكويته.

انفتح مبارك على العالم الخارجي وأرتجت دونه دروب "العالم المحلي" بحكم الوجود العثماني الذي بات لا يثق في مبارك، وبحكم بداية الاستقرار السعودي في المنطقة، سيطرت قوة آل سعود، سلماً وحرماً على القبائل النازلة على تخوم الكويت. وكان على هذه القوة الناشئة أن تتعامل بوضوح في مسألة السيادة على تلك القبائل التي أراد مبارك أن يساوم فيها ليمدّ في حدود الكويت ونفوذ شيخها. وقد حاولت سلطات الهند البريطانية في الخليج أن تقصر نفوذ شيخ الكويت إلى الداخل على المدى الذي يمكن أن تصل إليه حدود مدافع الأسطول البريطاني. والتقت المصالح البريطانية والعثمانية والسعودية في تحجيم نفوذ مبارك. وبالرغم من هذا قضى ارتباط مبارك الحيوي "بالداخل"، وارتباط ابن سعود الحيوي بالخارج، أن تُكْمَل القوتان السعودية والكويتية بعضهما بعضاً. وزاد هذا التكامل الواجب في حدّة التناقض القائم.

لم يكن مبارك يريد لعبد العزيز أن يتّصل بالعثمانيين أو البريطانيين ليفاوضهم إلاّ عن طريقه لأنه يخشى أن يضعف وضع الكويت أو يزداد ضعفها في الظهير إذا انحاز عبد العزيز إلى العثمانيين أو ارتبط بالبريطانيين. فإذا لم يكن هناك بدّ من تعامل عبد العزيز مع هاتين القوتين أو إحداهما فليس أقل من أن يتولى الوصاية على السعوديين الذين انطلقوا من أرضه وبدعمه لتحقيق أهدافهم. ولم يكن عبد العزيز، مع اعترافه بالدعم الكويتي، يرضى الوصاية في مسألة حيوية كهذه ولهذا اشتدّ التناقض. أراد مبارك أن يكسب القصيم لنفسه ليحقّق بها التوازن الذي يريده وليشكّل كتلة ثالثة تحكّم المقدرات السياسية في المنطقة تنحاز لإحدى القوتين السعودية أو الرشيدية حين يحقّق الانحياز لمبارك هدفاً. وكانت هذه رغبة مستحيلة لا يرجى أن يحققها له العثمانيون حتى على حساب ابن سعود المناوئ لهم في هذه الجماعة في صفوف الحملة التي جهّزت للسير إلى السعودون.

بالرغم من أن الحملة كما قيل كانت موجّهة ضدّهم في الأصل، وإلى شيوخ الظفير الذين كانوا يناصرون المنتفق على الكويت في الاضطرابات التي أحدثها السعدون سالفاً في المنطقة. وحين تقوّت الكويت بهذه المجموعة بالإضافة إلى الجماعة التي كانت مع ابن سعود، رأى الشيخ مبارك أن يوجّه هذه الحملة إلى السعدون رأساً. يشير الوكيل البريطاني في الكويت في خطابه بتاريخ ٩ مارس بأن هناك إشاعات تشير إلى أن هذه الحملة قد تمّت بإيعاز من والي البصرة الذي التقى بالشيخ مبارك في الفاو أخيراً. وعبر المقيم البريطاني عن شكّه في هذه الإشاعة الرائجة التي ربّما أحدثت لتغطية أمراً ما. اشتركت في هذه الحملة إلى جانب ابن سعود ومبارك قبائل. عجمان، ومطير، والعوازم، وبني هاجر، وبني خالد، وآل مرة، وعتيبة، وقحطان، وسبيع الطواطة، وعريدار الكويت. تراوح عدد فرسان الحملة في تقدير الوكيل البريطاني في الكويت بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠. أمّا راكبو الهجن "فعددهم كذرات الرمل" حيث يتراوح بين ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ رجل. وأحدثت الحملة في الكويت أثراً كبيراً حيث زاد سعر الذلول ٢٥٪، وارتفعت أسعار السلع بنسب متفاوتة خاصة ما يتصل منها بالهجن وتهيئتها للحرب، بالإضافة إلى أسعار الأرز والبن. وتدفقت القبائل من شمال الأحساء لتشارك في الحملة.

ويقول الوكيل البريطاني إن الكويت لم تشهد تجمّعاً كهذا منذ عام ١٣١٩هـ / ١٩٠١م على أيام حملة الصريف، أصبح عبد العزيز القائد الأعلى لهذه القوة و"بما أن الظروف قد هيّأت له هذه القوة الضاربة فإنّه لن يتهاون في انتزاع النصر انتزاعاً". ونعتقد من جانبنا أن تعيين عبد العزيز قائداً أعلى لهذه القوة لم يجرى اعتباطاً إذ إنّ أغلب القبائل التي ستسير إلى الحرب هي قبائل نجدية، وعليه فلا يعقل أن تناط قيادة قوة كهذه برجل غيره. ويشير تقرير الوكيل البريطاني بأن عبد العزيز قد ثبّط همة مبارك عن الخروج بنفسه مع الحملة مراعاة لسنّه، وحرصاً على صحّته. وأن مبارك قد استجاب لذلك تقديراً منه لعبد العزيز، وثقة منه في حنكته، ومقدرته العسكرية. ويضيف الوكيل البريطاني بأن مبارك لم تكن له مثل هذه الثقة في ابنه جابر الذي خرج أيضاً مع الحملة.

ولربّما تذرّع عبد العزيز بهذه الحجج حتى لا يخرج مبارك مع الحملة هذه الفترة لأنهم يخشون من امتداد النفوذ البريطاني إلى داخل شبه الجزيرة العربية، ولن يحققها له البريطانيون الذين اقتصرتهم مصالحهم بصفة عامة على السواحل وبصفة خاصة في هذه الفترة وفي هذه المنطقة على الكويت، النهاية المقترحة لخط حديد برلين بغداد. ولم يسع البريطانيون في هذه الفترة للتدخل في السياسة القبلية وتعقيداتهما في منطقة لن تخدم لهم

مصالح استراتيجية ولا اقتصادية. ولن يحقق عبد العزيز بن سعود بالطبع، لمبارك رغبته هذه لأنه حمل رأسه على كفه وخرج ليرد المنطقة لطاعة السعوديين، ولم يكن مبارك سعودياً. ولن يحققها له ابن رشيد الذي خرجت القصيم من يده لعبد العزيز ولكنه كان يتطلع إليها مرة أخرى. ولن تحققها له القبائل التي ما كانت تعرف لذلك الشيخ حقاً تاريخياً على أراضيها، ولهذا كان التناقض الكبير. ولعله من أجل هذا كانت أنظار عبد العزيز تتجه إلى الأحساء حتى يستغني بها عن الكويت ويجد منفذاً لا ينازعه فيه أحد.

كان الخليج في تلك الأيام يعيش السلام البريطاني، وبنوء باستعمار السفن البريطانية لمياهه. ولم يكن ظهور القوة السعودية الناشئة على سواحل الخليج ممكناً إلا بالتفاهم مع الحكومة البريطانية في الهند، وكانت علاقة الشيخ مبارك بالهند وثيقة. وعلى هذا تبدأ دورة أخرى في سلسلة التطابق والتناظر بين السياستين السعودية والكويتية. أراد مبارك أن يحقق أمن الكويت في ظهيرها ضد القوة القبلية الأخرى في العراق العثماني، وكان أمن الكويت لازماً لاستراتيجية عبد العزيز الذي لم يضم الأحساء بعد، وعلى ذلك قام عبد العزيز لمناصرة الشيخ مبارك ضد المنتفق في عام ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م.

التعاون القلق.

زار عبد العزيز الكويت في ١٦ صفر ١٣٢٨ هـ ٢٦ فبراير ١٩١٠ م في وقت تزايدت فيه الخلافات بين سعدون المنصور شيخ المنتفق، وبين شيخ الكويت. وكانت خلافتهما حول مسائل مالية وتجارية. وقدمت جماعة من العجمان في فترة وجود عبد العزيز في الكويت اعتذارها لما سبق أن قامت به من إغارات على الكويت كان مبارك يُحمّل وزرها لعبد العزيز، وعفا مبارك عنها. وانتظمت هذه ويدخل في حرج تولي القيادة في حملة يكون فيها مبارك الذي رغم كل ما يمكن أن يقال عنه له فضل لا يمكن جحوده، وله في نفس عبد العزيز التقدير والعرفان.

تكاملت هذه القوات في الجهرة وخرجت الجموع في ٢ ربيع الأول ١٣٢٨ هـ ١٣ مارس ١٩١٠ م تزحف إلى أرض المنتفق، والتقت بقوات سعدون في يوم ١٦ مارس بين الرحيمية والوقبا والضريبيات في منطقة تسمى جريبيات الطوال. هاجمت القوات المشتركة قوة سعدون عند الفجر، وتراجعت المنتفق دون خسارة تذكر واستجمعت قواها، وأغارت فجأة على الجناح الأيمن المشكّل من عربيدار الكويت وبدو مطير. ولم يكن أمام جابر بن مبارك إلا أن ينسحب من أرض المعركة تاركاً ابن سعود وجماعته تناوش جماعات السعودون. وقام عبد العزيز وأخوته ومن معهم من العجمان خاصة بمحاولات يائسة حتى لا

تكون الهزيمة ساحقة. تقول المصادر البريطانية أن عبد العزيز قد تراجع بجماعاته تراجعاً تكتيكياً مدروساً، وقاوم بثبات ولكنه لم يستطع أن يستخلص النصر من براثن الهزيمة، فقد فرّت جماعات الكويت ومجموعات أخرى من البدو. ولم تكن قوة السعدون ضعيفة أو قليلة العدد فقد كانت المنتفق كلها وراء السعدون، كما شاركته جماعات من الظفير، وعاضدته شمر حيث اشترك ٥٠٠ من فرسانها في المعركة. كما اشترك معه الكثير من القبائل والعشائر مثل زايد، وسميت، والصفاء، والمجايد، وبني مالك والشريفات، وبني حسين، والفضول، والخزاعل، وبني يهشم، وبني لامي، وبني خاقان وبني سعيد، وكثير غير هؤلاء من عشائر العراق العثمانية. ويقول الوكيل البريطاني نقلاً عن أحد شيوخ العجمان الذين فرّوا من المعركة طلباً للنجاة بأنه كان للسعدون ٤٠٠٠ فارس كانوا أكبر أثراً وأكثر قوة ونفراً من فوارس ابن الصباح وابن سعود. وشهد العجمي بأن هذه الحملة الكويتية السعودية كان يمكن أن تصل إلى دمار شامل لولا وجود عبد العزيز وتمرسه في الحرب، وتهاون السعدون في قتل الأسرى، فقد طلب أن يجردوا من السلاح ويتركوا إلى حال سبيلهم.

لم ترض الحكومة البريطانية قيام هذه الحملة وطلبت في ٢٠ مارس إلى وكيلها في الكويت أن يحذر مبارك من التدخل في "شؤون نجد" وذلك حتى لا يعطي للدولة العثمانية الذريعة للتدخل بشكل فعّال في السياسة الكويتية لأن هذه الأمور "ستجعله يصطدم بالدولة التركية وسيحتج مبارك بأن حملته ضد المنتفق هذه تظفر برضاء الأتراك، ولكن يجب عليه أن يفهم بوضوح أن سياسة المغامرات في الداخل هو أمر لا تستسيغه هذه الحكومة". ولم يصل التحذير لمبارك في وقته حيث كانت الحملة قد حاربت معركتها في هذه الأثناء، وانتهى أمرها بالتراجع إلى الجهراء.

سار ابن سعود إلى الحالبية (Haleeba) على مسيرة يوم غرب الجفريسي و وراء مطير لتأديبها. ويبدو أن لحملة ابن سعود على مطير هذه سبباً يتصل بالحملة على المنتفق التي كانت مطير أول المنسحبين منها، ولا يخفي ما يعنيه انسحاب البدو من فوضى ونهب وسلب. نستطيع أن نقول بهذا اعتماداً على أن ابن سعود قد قام بحملته هذه على مطير في الفترة الواقعة بين ٢٠ مارس، حين وصلت القوة المنسحبة إلى الجهراء، وبين ٢٤ مارس، حيث تفيد التقارير رجوع ابن سعود إلى الجهراء مرة أخرى. كما قام السبهان وابن رشيد بعد هذا بهجوم على مطير في ٢٧ ربيع الأول / ٧ أبريل عقاباً لها فيما يبدو على انخراطها في صف ابن سعود ومبارك في الحملة المذكورة وارتد ابن رشيد عنها بعد أن خسر ٩٠ حصاناً.

لم يقنع مبارك بالهزيمة حين انكسرت قواته والقوات السعودية المشتركة أمام سعدون، وراح يجهز للحرب، ويطلب إلى أهل مدينة الكويت أن يزيدوا في مساهمتهم المادية والعينية استعداداً "لجولة أخرى" واشتركت كل الفئات في المجهود الحربي بالرجال وبالجمال وبالمال، . أعد مبارك لحملة خطط أن تكون قوتها ١٥٠٠٠ رجل. وكّرر المقيم البريطاني للشيخ مبارك تحذير الحكومة البريطانية بعدم التدخل في هذه المسائل، إلا أن مباركاً ثبت على رأيه من أنه يجب أن يؤكّد سلطته في المنطقة ويعمل على حماية أتباعه، وأكّد مبارك للوكيل السياسي البريطاني شكسبير بأن الحكومة العثمانية لن تعترض على أعماله هذه، وأن الوالي العثماني في البصرة قد سبق أن تمنى له النجاح في مهمته حين التقى به في الفاو. تطلّع مبارك إلى تحييد ابن السبهان وابن رشيد من ورائه فأرسل إليهما ليتحالفا معه إلا أنهما اعتذرا، حيث إن منطلق الأحداث يضع آل رشيد في ركاب السعودون. وجاءت الأخبار بعد هذا بأن الحملة المزمعة قد أرجئت لعدة أشهر.

ويعبر شكسبير بأنه قد استخلص من الإشاعات أن الحملة ربّما تكون قد ألغيت تماماً. قال الشيخ إنّه أرجأ الحملة حتى حلول الصيف حيث ستتشغل المنتفق عن سعدون بجني التمر في موسمه. كما أشار مبارك إلى أن رجال سعدون يحاربون فرساناً على الخيل وبينما ستقوم حملة مبارك على الهجن، ولن تصبر الخيل صبر الإبل على عطش الصيف وستنهدك. ويفيد تقرير شكسبير هذا بأن الشيخ مبارك طلب إلى عبد العزيز أن يرجع إلى الرياض حيث إن غيابه قد أحدث مشاكل في المناطق الخاضعة له، وأن عبد العزيز لا يريد أن يفادر حتى يدرك ثأر هزيمته من السعودون. طلب شكسبير إلى الشيخ مبارك أن يسرّح تلك القوة التي كلفت أهل الكويت الكثير من الجهد والمال، وتعتت الشيخ وقال بأن أمن الكويت يقضي باستمرار التعبئة وذلك للحفاظ على الكويت من إغارات البدو.

وأشار الشيخ محتجاً بأن نعمات السلام التي ترسلها المنتفق والظفير خادعة لا يوثق بها، وأنه قد أصمّ أذنيه عنها، ولن يصغي إليها ما لم ترد له الأسلاب التي غنموها. ونلاحظ هنا خروجاً عن المألوف عند شيخ الكويت في عدم تنفيذ الفوري لأوامر الحكومة البريطانية، وربّما يعود السبب في هذا إلى تحسّن علاقته بالعثمانيين إلى الحد الذي أثار الشائعات بأن والي البصرة سيرسل فيلقاً من الجنود العثمانيين ليعسكروا في الكويت مع ضباط ثلاثة وأنه قد وعده بأن يحصل له على فرمان بتعيينه حاكماً على نجد والإحساء والقطيف وقطر.

تقرير معشوق باشا متصرف البصرة عام ١٨٦٦م^(١):

بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر أخذ العثمانيون يبدون اهتماماً، وإن كان سطحياً، بشئون الخليج العربي، ويرقبون تطورات الأحداث فيه، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والأجنبية الموجودة في هذه المنطقة الحساسة من العالم في القرن التاسع عشر، فشرعوا في إرسال المبعوثين إلى مشايخ العشائر العربية المتنفذة لجس نبضهم، ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم، ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو اسمياً، أو التعاون مع الدولة العثمانية، على أقل تقدير بصفتها دولة إسلامية، وانطلاقاً من هذا الملف الجديد في السياسة العثمانية كلف الباب العالي متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة، فبادر الأخير إلى إرسال عدة أشخاص إلى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط، واتصل بعدد من التجار وذوي المصالح مع البلدان المذكورة، بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الأمراء والمشايخ العرب. فورد في تقرير معشوق باشا، المرفوع إلى الصدارة في أواخر عام ١٨٥٠م، معلومات مبتسرة عن كيفية نشأة إمارة الكويت، حيث يشير إلى أن بعض عربان نجد كانوا يأتون إلى الكويت لأجل صيد الأسماك، وأثناء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة، شيدوا لهم بيوتاً صغيرة من القصب، تحولت بمرور الزمن إلى بيوت مبنية باللبن، وكان منشأ هذه الإمارة في أواخر القرن الثامن عشر، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد أصبحت ملجأً ومسكناً آمناً للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت، وكان أهالي الإمارة غير مكلفين بدفع أي نوع من الضرائب، عدا الجمرك المفروض على الأمتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر، وبمعدل ريالين عن كل نوع، وبلغ وارد الجمرك منه ألف ريال سنوياً، ونظراً لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة في ميناء الكويت تعد خفيفة نسبياً، لذا كان أغلب التجار يفضلون إنزال تجارتهم في الميناء المذكور، ونقلها براً إلى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها، «الشيخ جابر» يبادر إلى تقديم الإمدادات والمساعدات إلى أهالي البصرة، براً وبحراً، عندما يحل الخطب بهم وتتعرض مدينتهم لحصار العمانيين أو تسلط الكعبيين، ومقابل هذه الخدمة كان أمير الكويت يحصل على مئة و أربعين كارة من التمور سنوياً من حكومة البصرة. وذكر معشوق باشا أن مسألة ربط الكويت بإدارة البصرة، واستثمار موارده الاقتصادية لحساب مدينة البصرة،

(١) مصطفى زهران: مقال بعنوان: البصرة والخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة المؤرخ العربي، يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد ١٩ - أكتوبر ٢٠١١م.

وقطع عطية التمور السنوية، رهين بتقوية أسطول البصرة، وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على أقل تقدير، وأضاف أن أهالي الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة، إلا أن موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع إلى مشايخه، الذين لا يراجعون إدارة البصرة فى أى موضوع أو مادة، وإذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية - على الرغم من إظهارهم الميل إلى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافى والدينى لكون السلطان العثمانى خليفة المسلمين وحامى حمى الحرمين - فى واقع الحال يقتضى إظهار سطوة السلطة السنية وجانب من قدراتها العسكرية لكى لا يعطوا أذنا صاغية لدسائس بعض الأطراف الدولية والمحلية. وبخصوص مقاطعتى الحسا والقطيف، اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود، تشير معلومات معشوق باشا إلى أن الأمير السعودى يستوفى منها سنويا مائة ألف ريال (أربعة آلاف) باسم بدل جمرك وميرى، قابل مبلغ زهيد يدفعه إلى خزينة جدة، وأنه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمئتى عسكرى فى كل منهم، واستناداً إلى إفادة عدد من أبناء الحسا والقطيف القادمين إلى البصرة، فإن الأهالى هناك مستاءون ومتنفرون، وراغبون فى الانضواء تحت الحكم العثمانى، ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على أهمية وضرورة بناء الأسطول، وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة، حتى يتسنى لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات^(١).

الكويت واتفاقية عام ١٩١٣م بين الدولة العثمانية وبريطانيا

نتيجة تعرض تركيا لمتاعب فى البلقان ومع روسيا، رأى حكام الدولة ضرورة تسوية المشكلات المثارة مع بريطانيا فى منطقة الخليج العربى على أمل أن تحصل تركيا على تأييد الحكومة البريطانية إزاء ما تواجهه الدولة العثمانية من مشكلات ومن ثم دارت مفاوضات بين المسئولين الأتراك والمسئولين البريطانيين والتي استمرت سنتين ١٩١١-١٩١٣م، حيث تساهل العثمانيون فى التنازل عن قطر وعن البحرين، ووافقت بريطانيا على بقاء الكويت تحت السيادة العثمانية التى تمتد حتى ميناء العقير بالاحساء ولا تمتد أبعد منه.

وقد شهد شهرى أبريل ومايو عام ١٩١٣م مواقف حاسمة فى المفاوضات التركية البريطانية بشأن تقسيم مناطق النفوذ بين الجانبين فى منطقة الخليج العربى وتم التوقيع على اتفاقية عام ١٩١٣م فى آخر شهر مايو، واحتوت الاتفاقية على عدة مبادئ تتعلق بخط حديدى فى آسيا الصغرى، ومشروع اتفاق يتعلق بمشيخات الخليج العربية: الكويت، قطر، البحرين، كما احتوى على أربعة ملاحق تتصل باتفاقات بريطانيا مع الكويت

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٦.

أعوام: ١٨٩٩م، ١٩٠٠م، ١٩٠٤م^(١).

وقد اعترفت بريطانيا في هذه الاتفاقية- في المادة الأولى منها- بأن الأراضي الكويتية، طبقاً للمواد أرقام ٥ و ٧ من هذه الاتفاقية، تخضع للسيادة العثمانية، على أن تعترف الحكومة العثمانية- كما جاء في المادة الثالثة من هذه الاتفاقية- بالاتفاقيات الموقعة بين بريطانيا وشيخ الكويت في أعوام ١٨٩٩م- ١٩٠٠م- ١٩٠٤م: وعدم الانتقاص من أراضي الكويت والاعتراف بالوضع القائم في الكويت دون تغيير.

وتتألف المواد ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ من الاتفاقية لتعالج قضايا حدود الكويت البرية والبحرية- حيث يستقر شيخ الكويت بمدينة الكويت ولكن سلطانه تمتد إلى خور الزبير، وجزر، وربة، وفيلكة، وأمنها، وكوبرا، وكارو، وماكتا، وأم المارديني، إلى جانب أم قصر، وصفوان، وجبيل^(٢).

(1) F.O. Enclosure in no. 144: Draft convention Respecting the Persian Gulf.

(2) op.cit.

الفصل الثامن

قطر والإستراتيجية العثمانية

- كتاب قطر في العصر العثماني للمؤلف التركي زكريا قورشون.
- الوحدة الوطنية القطرية.
- قطر قبيل الحرب العالمية الأولى.

عقب التاريخ الحديث تأملات في كتاب "قطر في العصر العثماني"

زكريا قورشون باحث من تركيا ومن المهتمين بتاريخ تركيا في منطقة الخليج العربي أستاذًا بجامعة الأستانة، له العديد من المؤلفات أبرزها: الحكم العثماني في نجد والأحساء، والحركة الوهابية وظهور الدولة السعودية، والعثمانيون وآل سعود في الأرشييف العثماني (١٧٤٥ - ١٨٢٤)، وتاريخ قبيلة العجمان، وسواحل نجد (الأحساء) في الأرشييف العثماني. وي طرح المؤلف من خلال هذا الكتاب الأبعاد الجديدة للصراع العثماني - الإنجليزي على قطر والبحرين. مع بداية عام ١٨٧٢م صارت ساحات النفوذ ما بين القوتين الكبيرتين بالمنطقة محل نزاع بمختلف الوسائل مع عدم التوصل إلى نتيجة حاسمة.

يستعرض كتاب "قطر تحت الحكم العثماني" لمؤلفه زكريا قورشون مسألة الحكم التركي لمنطقة خليج البصرة حيث تقع قطر في موقع إستراتيجي مهم، وهو الأمر الذي جذب اهتمام كل من البرتغاليين في القرن السادس عشر والهولنديين في القرن السابع عشر والإنجليز في القرن الثامن عشر لوجودها على الطريق الذي يربط أوروبا بالمياه الدافئة، وامتداد طرق تجارة الهند إلى تلك الأماكن. طريق الحرير. يستهل قورشون الكتاب بتمهيد تاريخي للتوسع العثماني إلى ساحل الخليج في عصر السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م)، لكن الحكم الفعلي تأسس في عهد السلطان سليمان القانوني حسب قوله وذلك في إطار السعي لتأمين حكمه لبغداد والبصرة حيث وقفت الدولة العثمانية في وجه البرتغاليين الذين شكلوا خطرًا كبيرًا على العالم الإسلامي، وعلى طريق الحرير. ويذكر المؤلف أن مدحت باشا والي بغداد قرر الذهاب إلى الأحساء، ومر في طريقه بموانئ الكويت ورأس التنورة والقطيف وقطر ونجد، حيث ضمها تحت اسم "متصرفية نجد" (لواء نجد) واعتبر كل من القطيف وقطر ساحات النفوذ. يشير المؤلف إلى الأبعاد الجديدة للصراع العثماني - الإنجليزي على قطر والبحرين. مع بداية عام ١٨٧٢ صارت ساحات النفوذ ما بين القوتين الكبيرتين في المنطقة محل نزاع بمختلف الوسائل مع عدم التوصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الصدد، لأن الدولة العثمانية جعلت من قطر قضاءً تابعًا للأحساء وأظهرت حكمها الفعلي فيها^(١).

كما بذل الإنجليز في المقابل جهودًا كبيرة لإثبات النفوذ في البحرين لمنع جهود الدولة العثمانية من بسط نفوذها على البحرين، حتى لا ينسحب هذا الإجراء على مناطق أخرى

(١) زكريا قورشون: قطر في العصر العثماني.

بالخليج. فى الوقت نفسه سعي الإنجليز إلى الحصول على نتائج سياسية بحجة الاضطرابات الموجودة بالمنطقة والقرصنة البحرية، لاسيما بعد حادث سرقة بعض البضائع التابعة لرعايا من الإنجليز عام ١٨٨٧م الأمر الذى على إثره أرسلت البحرية البريطانية بعض القطع الحربية للمنطقة، فى استعراض للقوة، لاسترجاع تلك البضائع. كما رفضت بريطانيا معاملة موظفي الدولة العثمانية لأهالي البحرين على أنهم من المواطنين العثمانيين مثل ما هو متبع فى نجد والبصرة وباقي الولايات العثمانية. رد الفعل كما كانت الدولة العثمانية ترفض وساطة القناصل الإنجليز فى أى دعاوى تنشأ ما بين البحرينيين والمواطنين العثمانيين الآخرين، على اعتبار أن الطرفين من رعايا الدولة العثمانية، وهو الأمر الذى كان دائماً ما يرفع من مستوى رد الفعل البريطاني. ويذكر المؤلف أنه فى ٢٠ فبراير ١٨٨٨ قرر مجلس الوزراء العثماني ضرورة بحث الطريقة المثلى لإدارة منطقة نجد والأحساء (بما فيها قضاء قطر) بشكل يمنع التدخل الأجنبي. إن الدولة العثمانية التى أرادت وضع سواحل البحرين وقطر تحت سيطرتها سعت إلى إعداد البنية السياسية والإدارية اللازمة لذلك وتجنب الأحداث التى من الممكن أن تعيق ذلك بقدر المستطاع. وبالتالي وقفت ضد المساعي الإنجليزية لتوسيع النفوذ، ومنعت على أى من الموظفين الإداريين أو الحكام المحليين القيام بأى عمل يعطي الفرصة للتدخل الإنجليزي. كما يستعرض الكتاب علاقة قضاء قطر بالمشايخ الأخرى المجاورة له حيث يرى أن التقاليد وصراعات فرض النفوذ على القبائل والعلاقات الاقتصادية بين القبائل والمناطق، كانت هي العوامل الواضحة فى العلاقات الموجودة بالمناطق ذات الثقافة القبلية مثل قطر.

التوازن الحساس رفضت بريطانيا معاملة موظفي الدولة العثمانية لأهالي البحرين على أنهم من المواطنين العثمانيين مثلما هو متبع فى نجد والبصرة وباقي الولايات العثمانية. كما كانت الدولة العثمانية ترفض وساطة القناصل الإنجليز فى أى دعاوى تنشأ ما بين البحرينيين والمواطنين العثمانيين الآخرين، على اعتبار أن الطرفين من رعايا الدولة العثمانية، وهو الأمر الذى كان دائماً ما يرفع من مستوى رد الفعل البريطاني.

مقدمة الكتاب: قطر في العهد العثماني.

بدأت قطر كإمارة ذات كيان سياسي يحكمها أمراء (شيوخ) من آل ثاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت هناك ارتباطات سياسية واقتصادية بين حكام قطر وكل من حكام نجد آل سعود، وحكام البحرين آل خليفة، بحكم ارتباط شبه جزيرة قطر برياً بأرض الجزيرة العربية حيث يحكم آل سعود، وارتباطها بحراً بمواجهة جزر البحرين، إلى جانب ترحيب القطريين، وفي مقدمتهم آل ثاني، بدعوة التوحيد السلفية (الوهابية) بالإضافة إلى الارتباط بين القبائل العربية، في شبه الجزيرة القطرية وفي جزر البحرين ارتباط قري وتعاون في مجالات صيد اللؤلؤ والتجارة فيه وفي غيره من السلع.

ظهرت قطر كوحدة وطنية سياسية في عهد الشيخ محمد آل ثاني حيث نقلت من النظام القبلي إلى نظام الدولة ذات المفهوم الجغرافي والسيادة على أرض معينة ويمكن اعتبار ظهور قطر كوحدة سياسية في الستينات من القرن التاسع عشر بداية لتاريخ قطر الحديث، فقد كانت شبه الجزيرة القطرية قبل هذا الزمن تعيش كغيرها من أجزاء ومناطق في شبه جزيرة العرب، سواء على سواحل الخليج أو في الداخل في ظل، تنظيمات قبلية تتخذ لها مضارب في مواطن متفرقة من شبه جزيرة العرب.

وهذا يعني أن شبه جزيرة قطر لم يكن لها كيان سياسي ذاتي قبل الشيخ محمد آل ثاني، وليس هذا بغريب أو بشي غير منطقي، فإقليم نجد على سبيل المثال لم يعش وحدة سياسية ولم يظهر بشكل كيان سياسي مستقل قبل آل سعود، وإن كان يجب أن ندرك أن وحدة قطر السياسية في عهد الشيخ محمد بن ثاني لم تكن كاملة أي أننا لا نستطيع أن نقارنها بالوحدات السياسية التي تقوم في زمننا المعاصر كقيام دولة قطر المستقلة ذاتها في أول السبعينات من القرن العشرين وغيرها أمثلة كثيرة.

إذا نظرنا إلى الشيخ محمد بن ثاني باعتباره صاحب الأساس في ظهور قطر كوحدة سياسية. فإننا نجد ابنه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قد حقق الوحدة الوطنية في شبه الجزيرة قطر، بعد أن عاشت قطر في ظل انقسامات قبلية تخضع بعض القبائل القطرية للبحرين، والبعض الآخر يخضع لآل سعود، وغير هؤلاء وهؤلاء القبائل لا تدين بالولاء لأحد^(١).

ولرب قائل أن الوحدة الوطنية التي عمل على تحقيقها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني

(١) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي صفحة ١٥٥.

لم تكن شاملة وان بعض القبائل القطرية خرجت عن الوحدة الوطنية وهذا حقيقي ولكنه في نظرنا لا يقلل من جهود الشيخ قاسم في سبيل إرساء قواعد الوحدة الوطنية وتدعيمها والمحافظة على بقائها واستمرارها ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الظروف غير العادية التي تحيط بقطر سواء في الداخل أو في الخارج.

ويمكن للباحث ملاحظة أنه في الوقت الذي لم يكن من السهل فيه انضواء جميع قبائل قطر في ظل وحدة وطنية وتحت راية كيان سياسي ذاتي واحد - ونحن نعلم أن القبائل لم تتعود مثل هذه التنظيمات ولا ترضى بغير التحرر من أية سلطة بديلا- كانت قطر هدفا لمؤامرات وتدخلات خارجية ، أي من خارج شبه جزيرة قطر، سواء كانت من البحرين أو من الساحل العماني أو من الإنجليز أو من الأتراك.

ومهما يكن من شيء فإن الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر قد تحققت إلى حد كبير على يد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ، ويجب أن ننتبه إلى أن كل شيء في أوله يبدأ صغيرا ، وكما يذكر المؤرخون بأن لكل حدث تاريخي بداية وذروة ونهاية ، وأن نهاية الحدث بداية لحدث تاريخي آخر وهكذا ، فإن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني كان بداية لا بأس بها على طريق تحقيق وحدة وطنية شاملة وقوية في شبه جزيرة قطر، وليس هذا مما يقلل من جهد الشيخ قاسم في هذا السبيل بقدر ما يعطيه حقه من التقدير في ظل الظروف التي تحيط بشبه جزيرة قطر والتي ذكرناها.

صروح الوحدة الوطنية

تسليم قبائل قطر بزعامة آل ثاني:

لعل أول صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر والتي جاهد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني من أجل تحقيقها ، هو تسليم قبائل قطر بزعامة الشيخ قاسم وبالتالي بزعامة قبيلة آل ثاني على شبه جزيرة قطر. وهذا التسليم يثير تساؤلات عن أسبابه وطبيعته ، ولعلنا لا نجافي الصواب إذا ذكرنا أن سبب تسليم القبائل العربية القطرية بزعامة آل ثاني كان بسبب حاجة هذه القبائل إلى من يجمع شملهم وينهي خلافاتهم مع بعضهم البعض ، بل وإلى من يقودهم في الدفاع عن أراضيهم وأموالهم وأرواحهم ضد اعتداءات المغيرين على شبه جزيرة قطر.

وكان آل ثاني هم الذين تتحقق فيهم هذه المواصفات رغم عدم كونهم أكبر القبائل القطرية عددا ، إذ ليست العبرة بكثرة أفراد القبيلة وإنما العبرة بما تمتاز به القبيلة من

سرعة الحركة والوحدة الداخلية والزعامة الواعية والثروة حتى ولو كانت القبيلة التي تمتاز بكل ذلك أقل في عدد أفرادها من غيرها من القبائل، ويجب أن نلاحظ أن الثروة التي تمتع بها آل ثاني منذ عهد الشيخ محمد بن ثاني قد أوصلت الشيخ محمد نفسه إلى مركز الزعامة على شبه جزيرة قطر كما عُرف لدى المؤرخين الأجانب باسم شيخ الدوحة^(١) كما أن تلك الثروة مكنت آل ثاني من تأليف القبائل القطرية معهم، ومنحتهم مركزا مميزا بالنسبة للقبائل الأخرى. كما يجب أن ندرك أن قبيلة المعاضيد التي ينتسب لها آل ثاني من القبائل المتحضرة في منطقة شرق الجزيرة العربية^(٢) وهذا سبب آخر يدعو القبائل القطرية إلى التسليم بزعامة آل ثاني على شبه جزيرة قطر ويمكن أن نضيف سببا آخر لتسليم القبائل القطرية بزعامة آل ثاني على شبه الجزيرة القطرية، هذا السبب يتمثل في أن آل ثاني راعوا كيانات القبائل الأخرى في شبه الجزيرة^(٣).

وأما عن طبيعة تسليم قبائل قطر بزعامة آل ثاني على شبه الجزيرة القطرية فإنه وأن لم يكن قد نضج بعد بين هذه القبائل الوعي السياسي وتقدير أهمية الوحدة السياسية لشبه جزيرة قطر ذات الوحدة الطبيعية، إلا أن إحساسهم بها سوف تحققه الوحدة الوطنية من خير لهم دفعهم إلى الانتظام في الإطار الوطني لشبه جزيرة قطر كاملة بعد أن كان مفهومهم عن الوطن لا يتعدى حدود مضارب القبيلة من الأرض. ومن ثم فإنه ما أن عاد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني إلى قطر ضمن التسويات التي تمت في نهاية عام ١٨٦٨م بين قطر والبحرين وبريطانيا كان أول عمل أقدم عليه أن أمسك بزمام السلطة في شبه جزيرة قطر وقام يدعو العشائر كلها إلى الاستقلال فلبت دعوته^(٤)، من خلال إحساسها - أي القبائل القطرية - بما سيتحقق لهم في ظل الوحدة الوطنية.

إحساس القبائل القطرية بالانتماء

للعروبة والإسلام

وثاني صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر يتمثل في إحساس أهلها بالانتماء للعروبة والإسلام، فإن العروبة في قطر قديمة قدم وجود الإنسان بشبه الجزيرة القطرية، والإسلام دخلها على يد الصحابي "العلاء بن الحضرمي" في العام السادس للهجرة المحمدية

(١) عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر (١٨٦٨ - ١٩١٦) صفحة ٢٣.

(٢) نفس المصدر : صفحة ٢٤.

(٣) د. صلاح العقاد : المرجع السابق صفحة ١٥٦.

(٤) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي (١٨٤٠ - ١٩١٤) صفحة ٢٣٥.

ومن ثم كان أثر العروبة والإسلام عند قبائل قطر دافعا إلى الانضواء في إطار وحدة وطنية هويتها العروبة وعقيدتها الإسلام، وبالتالي وجدنا معظم هذه القبائل وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني يرحب بدعوة التوحيد التي انبعثت في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحملها إلى قطر آل سعود، لأن هذه الدعوة جددت في نفوس قبائل قطر - كما جددت في نفوس كل العرب والمسلمين أينما كانوا - الانتماء العربي الإسلامي في إطاره الصحيح.

ويمكن أن نحدد بدء دخول الدعوة الوهابية إلى شبه جزيرة قطر حين سار إبراهيم بن عفيصان القائد السعودي في عام ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م) إلى قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والفرع^(١)، فيما عدا الزيارة التي تحصن بها العتوب، ولكن إبراهيم بن عفيصان شدد هجماته على الزيارة فعول العتوب على الرحيل من الزيارة وساروا إلى البحرين وأخضعوها لحكمهم^(٢). وبهذا صارت الزكاة تحصل لحساب السعوديين من جميع القبائل تقريبا التي تنزل بين قطر وعمان ومعظم قبائل قطر وصار آل ثاني يدفعون هذه الزكاة نيابة عن القبائل القطرية التي تسلم بالولاء لهم^(٣).

وعمل الشيخ محمد بن ثاني - الذي اعتنق الوهابية - وكيلاً للسعوديين في قطر فكان مسئولا عن جمع الضريبة - الزكاة - من القبائل القطرية ويسلمها بعد ذلك إلى إمام السعوديين في نجد - الإمام فيصل بن تركي - وذلك في الفترة من عام ١٨٥١م إلى عام ١٨٦٦م ومن المعلوم أن الدولة السعودية الثانية التي أقامها فيصل بن تركي قد انتهت عام ١٨٦٦م^(٤). وأن ظل القطريون يشايعون السعوديين ويؤيدون حكمهم بل انخرطوا في اعتناقهم للطريقة السلفية^(٥).

تقدير الشيخ قاسم للطبيعة القبلية

وثالث صروح الوحدة الوطنية في قطر تقدير الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لطبيعة القبائل العربية عامة بما فيها القبائل القطرية بطبيعة الحال من حب الثورة على السلطة والظلم، ومن هذا التقدير عمل على امتصاص كل محاولة تحدث من بعض القبائل القطرية للخروج على الوحدة الوطنية بالترضية المعنوية أو المادية تارة وبشدة تارة أخرى، مع العفو عن الخارجين

(١) حسين بن غانم: تاريخ نجد - صفحة ١٨٠.

(٢) حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين، صفحة ١٠٢.

(٣) مركز أبحاث شركة أرامكو: عمان والساحل الجنوبي الخليج الفارسي صفحة ٢٨٠.

(٤) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ٢٤.

(٥) لوريمر: دليل الخليج - القسم التاريخي ج ٣ صفحة ١٢١٤.

أكثر من مرة حتى يتعود الخارجون على احترام السلطة والتمسك بالوحدة الوطنية.

ومن الأمثلة على الترضية التي لجأ إليها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني مع القبائل القطرية ما ترويه الوثائق عن ترضية لقبيلة البوعيين عام ١٩٠٨م ذلك أن السفير البريطاني بالآستانة أبلغ السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية بفحوى رسالة وصلت إليه من القنصل البريطاني بالبصرة تفيد أن القائم بعمل والي البصرة العثماني قد أخبره أي أخبر القنصل البريطاني - أن الشيخ عبد الرحمن البوعيين قد تخلى عن منصب مدير "الوكرة" إحدى مدن شبه جزيرة قطر جنوب الدوحة، وأن قبيلة البوعيين قد بعثت وفداً من رجالها إلى والي البصرة يطلب إقامة مركز عسكري تركي بالوكرة^(١).

وقد أوضح القنصل البريطاني في البصرة أن المقيم البريطاني في (بوشهر) بالخليج يخشى من أن بعثة قبيلة بوعيين قد تؤدي إلى مزيد من التدخل التركي في شبه جزيرة قطر خاصة والخليج العربي بصفة عامة استناداً إلى السيادة التركية على هذه الأجزاء، وعليه فإن القنصل البريطاني سيوضح للوالي العثماني بالبصرة خطأ الاستماع إلى أي طلبات تطلبها قبيلة البوعيين^(٢) ولا يخفي علينا هذا الموقف البريطاني الذي يسعى إلى منع الأتراك من اتخاذ أية خطوات إجرائية نحو قطر يكون من شأنها تأكيد السيطرة التركية في الوقت الذي تحاول فيه السلطات البريطانية إبعاد اليد التركية عن شبه جزيرة قطر بل وعن بقية مناطق الخليج التي للأتراك ادعاءات عليها، ومما لا شك فيه أن هذا الموقف البريطاني قد أفاد الوحدة الوطنية القطرية ولو بطريقة غير مباشرة وغير مقصودة.

كما أن المقيم العام البريطاني في الخليج قد كتب من "بوشهر" إلى القنصل البريطاني بالبصرة من أجل توجيه نظر الوالي التركي بالبصرة لكي لا يشجع مطالب وفد قبيلة البوعيين ويبلغهم باستعداد الممثل البريطاني بالبحرين للذهاب إلى قطر وإزالة سوء التفاعم بين قبيلة البوعيين والشيخ قاسم بن محمد آل ثاني^(٣).

ولكن الشيخ قاسم أتخذ خطوة ايجابية من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية القطرية وجاءت هذه الخطوة ترضية لقبيلة البوعيين، وتفصيل ذلك أن الشيخ قاسم توجه من "لوسيل" إلى الدوحة، وبعث ابن أخيه خالد بن محمد آل ثاني إلى الوكرة حيث طلب من

(1) F.O. 424, Confidential (9482): Further correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia, 217: Sir G. Lowther to Sir Edward Grey, pero, December 15, 1908, piece 68.

(2) bid, Inclosure 1 in No, 68 consul Crow to Sir Gerald Lowther, Bussorah, November 20, 1908.

(3) bid, Inclosure 2 in No, 68 British Resident, Bushire (M) E. Raejto consul Grow. Bushire, November 17, 1908.

قبيلة البوعيين عقد لقاء مع الشيخ قاسم، وقد لبي زعماء البوعيين الدعوة وقد حرص الشيخ قاسم في هذا اللقاء على تذكير البوعيين بالصدقة القديمة المستقرة والمحبة الدائمة بين المعاضيد - قبيلة الشيخ قاسم - والبوعيين، ووعدهم بأنه سيعمل هو وأبناؤه من بعده على عدم اللجوء إلى أية إجراءات قد تشوب العلاقات الودية بين البوعيين وآل ثاني. وقد تقبل زعماء البوعيين هذه التأكيدات بالرضا والقبول وقرروا البقاء في الوكرة كما كانوا قبلاً. ومن ثم زار الشيخ عبد الرحمن - زعيم البوعيين - رؤساء عشائر وأسر البوعيين وطمأنهم وهذا يعني نجاح الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في ترضية قبيلة البوعيين ترضية معنوية^(١).

كما تروى المصادر عن كيفية معالجة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لفتنة محمد بن عبد الوهاب الذي ينتمي إلى الرعوية التركية والذي كان زعيماً للغارية وتآمر ضد الشيخ قاسم في عامي ١٨٨٦م و ١٨٨٧م، على أمل أن يتزعم هو - أي محمد بن عبد الوهاب - شبه جزيرة قطر، ومحمد بن عبد الوهاب آل فيحان من قبيلة سبيع كانت تربطه علاقة مصاهرة مع آل ثاني، كما كان تاجراً للؤلؤ ومستشاراً للشيخ محمد بن ثاني بالإضافة إلى تزعمه قبيلة آل كواره بسبب مصاهرته لهم وأقام في بلدة - "الغارية" وهي من أهم قرى قطر، وقد حاول الأتراك الاعتماد عليه كمنافس للشيخ قاسم بن محمد آل ثاني الذي رفض المشاريع التركية لتقوية السلطة التركية على قطر^(٢).

وبدأت تحرشات محمد بن عبد الوهاب عندما اقترح ضباط البحرية التركية المسئول عن سواحل قطر أن يسمح لأهل الغارية بالإقامة في سلام تحت حكم محمد بن عبد الوهاب، وسافر محمد بن عبد الوهاب إلى الأحساء - بعد أن أقترح إقامة دار تركية، ولقد اثار هذه الإجراءات غضب الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وهدد بالانسحاب من الدوحة.

واستناداً إلى المساعدات والمساندة التركية بنى محمد بن عبد الوهاب في الغارية قلعة كبيرة محصنة ودعا جميع أثرياء البلد إلى سكنها، وأخذ يجمع الناس والقبائل حوله ويبدل الأموال في سبيل ذلك وهو لا يدري أنه يهدم الوحدة الوطنية القطرية أو يدري ولكنه في سبيل زعامة قطر لا يبالي، وأخذ يستثير الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني بتصرفات غير مسئولة، مما دفع الشيخ قاسم إلى التصميم على تخليص قطر من هذه الفتنة واستعادة

(1) bid, Inclosure 3 in No, 68 : Extracat form the Diary of the Bahrein political Agency for the week Kending, No- vember 13, 1908, Item 354, November 7.

(٢) عبد العزيز المنصور: المرجع صفحة ٢٨.

الوحدة الوطنية القطرية لقوتها ، فجمع قواته والمتحالفين معه وأتجه إلى حيث تجمع محمد بن عبد الوهاب والملتفين حوله ، ولما حل الشيخ قاسم بساحتهم قتل بعضهم وصادر أموالهم ثم عفا عنهم واستقل بالإمارة^(١) ، أما محمد بن عبد الوهاب فقد انتقل بعد هذه المعركة إلى بلدة دارين على ساحل الأحساء هو وجماعته حيث استوطنها^(٢).

ويبدو أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قد حزن لهذا الخروج على الوحدة الوطنية القطرية ، وأن بذل في سبيل إنهاء هذا الخروج جهدا كبيرا ، فعبر عن كل ذلك بشعر مرهف أختتمه بإبراز فضل الله عليه الذي نصره ودعا ابنه ، الشيخ علي بن قاسم ، إلى التمسك بحبل الله المتين لكي يحوز النصر دائماً.

ومن هذا الشعر نسوق الأبيات الآتية:

أرى الجفن والنوم ما يألف الكرى	إذا هم في بعض الهمم والمطالب
قمم يانديبي وارتحل عيد هية ^(٣)	عمانية من ساس هجن نجايب
فأنالى على كل البوادي قدايم ^(٤)	أذا نابهم سنة الغلا والحرايب ^(٥)
أبذل لهم نفسى ومالى وعصبتى	وحصن لهم موجبات النوايب

ويقول:

فلا خير فيمن يتبع الهون والردى	ورزقه سؤال بين معطي وطالب
يلومنى العزال في مطلب العلا	يقولون يسلك بك دورب صعايب
فلولا ركوب الصعب في كل شدة	وصبر على شداتها والكرايب
مالذ في الدنيا لذيذ ومطعم	ولا لذ لي فيها لذيذ المشارب

ويقول :

ولينا وعفينا وجدنا بعقتهم وجدنا لهم بأموالهم والريايب
ويقول لأبنه:

تمسك بتقوى الله وأخلص له العمل بعلم على حق صواب وصايب

(١) ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني صفحة ١٦.

(٢) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ١٤٧.

(٣) عيد هية: من صفت الناقة الطيبة.

(٤) قدايم : يعنى معروف سابق.

(٥) الحرايب: الحروب وما يتبعها من تلف وشدة.

ترى من أطاع الله طاعت له الملا
 وأجابه ابنه الشيخ علي بن قاسم بقوله:
 لك الحمد يا من هو لنا في النوايب
 فقد رابنى من يمة الغرب دولة
 وقد رابنى من يمة الشرق دولة
 ونادى لهم من يمة العجم شوشة
 وثوب لهم^(٣) من يمة الجدى^(٤) دولة
 ومع ذا وفي الشيخ اليماني^(٥) عصابة
 تعاطوا علينا بالعداوة جميعهم
 فما نجد الوالي واسع العطا
 وذلت له رقاب الملوك الصعايب
 معين على شداتها بالوهايب
 طوابير روم^(١) مخنتين غضايب
 نصارى يدورون^(٢) الحجج والسبايب
 تحامو علينا مدعين طلايب
 خاليط فيها من بعيد وقرايب
 أهناوية فينا تدور الضرايب
 ولا ثمنوا دوراتها والعقايب
 بحيث أن يجعل فينا عطيب الضرايب^(٦)

(١) طوابير روم: يعنى عسكر الدولة العثمانية.

(٢) النصارى: يقصد بهم الإنجليز الذين يثيرون الفتنة ويبحثون عن أسبابها.

(٣) ثوب لهم: استجاب لهم.

(٤) من يمة الجدى: من جهة الشمال.

(٥) الشيخ اليماني: يقصد الشيخ زايد حاكم عمان حين ذلك.

(٦) عطيب الضرايب: الذي اذا سدد الضرب أصاب هدفه مقتل. والأبيات والتوضيحات من كتاب ديوان الشيخ قاسم

بن محمد آل ثاني صفحة ١٦ - ٢٠.

المحافظة على استمرار الوحدة الوطنية

القطرية في مواجهة التنافس التركي الإنجليزي

ورابع صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر يتمثل في المحافظة على استمرار هذه الوحدة أمام تنافس انجليزي عثماني حول السيطرة على شبه الجزيرة القطرية وسلبها كيانها الذاتي وشخصيتها السياسية، ذلك أن الإنجليز كان لهم نشاط بحري في الخليج تزايد منذ أن قضاوا على النفوذ البرتغالي الهولندي هناك، وانفردوا هم بالنفوذ من أجل إحكام سيطرتهم على الهند المستعمرة البريطانية الكبرى.

وكانت إنجلترا قد لجأت من أجل فرض نفوذها في الأقطار العربية الخليجية إلى عقد معاهدات مع حكام هذه الأقطار تعطي لانجلترا نفوذا كبيرا بوضع أقطار الخليج العربية تحت الحماية البريطانية، وذلك منذ أوائل القرن التاسع عشر وتمثل معاهدة عام ١٨٦٨م التي وقعها الشيخ محمد بن ثاني والد الشيخ قاسم أول اتصال رسمي بين قطر وبريطانيا تعهدت فيها قطر بالألا تخرق السلم البحري وأُعترف فيها الشيخ محمد بن ثاني بسلطة المقيم البريطاني بالخليج في فض المنازعات والخلافات الناجمة عن تطبيق المعاهدة^(١).

واعتمدت السياسة البريطانية اعتمادا كبيرا في تنفيذ خططها وسيطرتها على قطر بتعميق الخلافات الشخصية بين شيخ الدوحة - الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني - ورؤساء القبائل والعشائر القطرية وشيوخ البحرين، وتثير المشكلة لتو المشكلة لتتمكن من إحكام سيطرتها وإجبار الأطراف المتنازعة على طلب مساعدتها سواء بالسلاح أو التأييد المادي والمعنوي^(٢)، ولكن ظهور الأتراك في الخليج العربي واحتلالهم لقطر قد أضر بتنفيذ مخططات إنجلترا الاستعمارية لظهور قوة كبيرة في المنطقة^(٣).

وكان العثمانيون الذين فرضوا سلطاتهم على العراق منذ عام ١٥١٤م ومصر والحجاز منذ عام ١٥١٧م قد تطلعوا إلى الخليج، فقام جيش عثماني بالاستيلاء على الأحساء عام ٩٦٣هـ الموافق ١٥٥٥م وظلوا بها حتى أستخلصها منهم براك بن غرير من بنى خالد عام ١٠٨١هـ الموافق ١٦٨٣م تقريباً^(٤) ثم عادوا مرة أخرى إلى الخليج بعد أن استقر الأمر لهم

(١) د. جمال الدين قاسم: الخليج العربي (١٨٤٠ - ١٩١٤) صفحة ٤٧٢.

(٢) نفس المرجع صفحة ٢٣٦.

(٣) د. سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة صفحة ٦٣.

(٤) أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته صفحة ٧٣.

في العراق، ومن ثم رأيناهم في أقطار الخليج العربي ابتداء من أوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر.

ومع وجود الأتراك في الدوحة منذ عام ١٨٧١م الذي يمكن وصفه بالاحتلال المباشر أطلقوا يدي آل ثاني في مزاوله السلطة وإدارة شئون قطر، ومن ثم قامت سياسة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في الفترة من ١٨٧١ إلى ١٨٩٣م على التحالف مع الأتراك، ولكن تلك السياسة تحولت من عام ١٨٩٣ إلى ١٩١٣م في اتجاه التحالف والاعتماد على بريطانيا، وكان السبب المباشر لهذا التحول هو محاولة الأتراك تقوية قبضتهم على قطر من خلال مشروع عاكف بك متصرف الأحساء في إقامة إدارة تركية مباشرة في قطر وإنشاء إدارة للعوائد الجمركية^(١)، ولا شك أن كل ذلك يضاعف من الوحدة الوطنية القطرية ذات الكيان السياسي الذي يريعه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، والذي اعتبر مشروع "عاكف بك" تدخلا مباشرا في سلطاته وحدا من الاستقلال الذي تمتعت به قطر منذ عام ١٨٦٨م، وبالتالي تعود قطر إلى عهد ما قبل الوحدة الوطنية، ولعل هذا يفسر لنا بحث الشيخ قاسم عن حليف آخر للمحافظة على الوحدة الوطنية القطرية.

وأمام أطماع كل من انجلترا وتركيا في قطر، ونظرا لتفوق القوتين أمام قوة قطر العسكرية، فقد قبل الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني رفع العلم التركي في الدوحة منذ عام ١٨٧١م رغم معارضة الشيخ محمد الذي يرفع العلم العربي على بيته^(٢)، وكان الأتراك قد أرسلوا قوة عسكرية إلى شبه جزيرة قطر في ذلك العام بأمر "مدحت باشا" والي العراق التركي بعد أن احتلت القوات التركية ميناء القطيف بالأحساء.

ويبدو أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قبل التعاون مع الأتراك بحكم أنهم القوة البرية الإسلامية التي تعاون معها من قبل آل الصباح بالكويت، وأنه قبل بالوجود التركي من أجل مناوأة سيطرة بريطانيا البحرية في الخليج، ويدل على ذلك التحركات المحمومة للمقيم العام البريطاني ومساعدته في الخليج عقب نزول قوات العثمانيين ورفع علمهم في قطر، وقد استطاع الشيخ قاسم تهدئة ثائرة الإنجليز دون أن يستجلب عداءهم.

وكان النفوذ التركي لا يتعدى حدود مدينة الدوحة وضواحيها القريبة، وسحبت تركيا عام ١٨٧٢م قواتها النظامية التي كانت في مدينة الدوحة وأبدلتها بثلاثين رجلاً من رجال

(١) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق ٢٦-٢٧.

(٢) العلم العربي هو علم الهدنة الذي قبل حكام الإمارات العربية الخليجية رفعه على بلادهم احتراماً لتسلم البحري مع بريطانيا. عبد العزيز المنصور. المرجع السابق صفحة ١٤.

الضبطية أى الشرطة ، وأصبحت قطر قائممقامية تتبع لواء الأحساء الذي يحكمه متصرف يخضع لوالي ولاية البصرة ، ويتبع قائممقامية قطر بعض القرى الصغيرة على رأس كل منها مدير يخضع إلى قائممقام قطر وكان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني أول قائممقام لقطر^(١).

ولم يكن الشيخ قاسم ليقبل بوجود الأتراك في الدوحة على حساب الوحدة الوطنية في قطر، ولذلك رأيناه يقبل من الأتراك منصب قائممقام لحكم قطر عام ١٨٧٦م، في الوقت الذي بدأت فيه تركيا تروج لفكرة الجامعة الإسلامية، ولم يجد الشيخ قاسم غضاضة في أن يقبل هذا المنصب في هذا الإطار الإسلامي الذي وجد صدي كبير بين الزعماء العرب والمسلمين، وطالما لم يتدخل الأتراك في زعامته الداخلية ركيزة الوحدة الوطنية.

إلا أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني كان على استعداد لاتخاذ موقف العداء من الأتراك إذا شعر بمؤامرات يحيكونها ضد وحدة قطر الوطنية ، ومن ثم نجد له مواقف وطنية أمام محاولات الأتراك إحكام قبضتهم على قطر خلال أعوام ١٨٨٩ / ١٨٩١م، خاصة عندما أصرت تركيا على إقامة إدارة تركية مباشرة في قطر، وفرض التنظيمات التي رأت السلطات التركية تنفيذها بسبب وقف الامتداد المالية غير المحسوبة التي يحصل عليها الشيخ قاسم من خلال فرض الضرائب^(٢) ومحاولة الوالي التركي في البصرة إحكام السيطرة التركية على قطر بتعيين مساعد لقائمقام قطر الشيخ قاسم دون موافقة الأخير، وتعيين مديرين للزبارة والعديد وتجهيز تركيا قوة قوامها أربعمئة جندي لتقوية الحامية التركية في قطر^(٣).

ولم يكن الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ليقبل تلك الإجراءات التي تنتقض من سلطته وتهدد الوحدة الوطنية القطرية ، ولذلك حدث الصدام بين قطر والأتراك بدأ بإذاعة الشيخ قاسم عن عزمه في الاستقالة من منصب القائمقام على قبائل شبه جزيرة قطر، وأن الأتراك تسلطوا على البلاد ، وهذا الإعلان كان بمثابة إنذار بالحرب لأن القبائل القطرية التي قبلت بزعامة الشيخ قاسم لم تكن على استعداد لأن تخضع للحكم التركي المباشر بما يحمله لهم من احتلال واستغلال.

وتطورت الأمور بين الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني والأتراك إلى الحرب بعد أن أيقن من مؤامرات الأتراك وخيانتهم له عام ١٨٩٢م، وجعل من إنشاء دار للعوائد الجمركية في

(١) نفس المرجع؛ صفحة ١٤١.

(٢) لوريمر: المرجع السابق صفحة ١٢٢٤.

(٣) سالدانا : الشئون القطرية صفحة ١٦٤.

مدينة الدوحة سببا رئيسا للجهر بعدائه متذراعا بأن الضرائب على التجارة والسفن الوطنية ودخل اللؤلؤ سيترتب عليها هجرة السكان بمجرد تطبيق هذا الإجراء، كذلك علل الشيخ قاسم عدم موافقته على تعيين مساعد له بأنه سيتدخل في الشئون القطرية الخاصة دون مراعاة للروح البدوية والنظام القبلي السائد في التعامل بين الشعب القطري^(١).

وبدأت تركيا العداء بإحضار قوة تركية برية قوامها ١٥٠ جنديا وسفينة حربية وجهت نيرانها للدوحة في الوقت الذي لقيت فيه القوة التركية البرية هزيمة منكرة أمام قوات قطر بقيادة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في ٢٦ مارس ١٨٩٣م، كان من نتائجها إطلاق سراح الشيخ أحمد بن محمد آل ثاني شقيق الشيخ قاسم و ١٢ من أعيان الدوحة الذين احتجزهم الأتراك رهائن قبل المعركة، كما كان من نتيجة المعركة عزل والي البصرة الذي دبر الهجوم على قطر وأدار المعركة بنفسه وهو محمد حافظ باشا.

ونتيجة للسياسة التركية نحو الوحدة الوطنية في قطر، فقد بدأت سياسة التقارب بين قطر والإنجليز، وذلك للأسباب التالية:

(١) عجز الأتراك عن التعاون مع الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني من أجل المحافظة على استقلال قطر ووحدتها الوطنية في مواجهة طلبات البحرين المالية والإقليمية.

(٢) الاعتداء المستمر للمأمورين والمديرين الذين كانت تعينهم السلطات التركية المسئولة للعمل في قطر علي رعايتهم إلى جانب وقوع منازعات كثيرة بين العسكريين من رجال الحامية العثمانية والقبائل البدوية الضاربة على حدود قطر والتي كانت تدين للشيخ قاسم بالولاء^(٢). في إطار الوحدة الوطنية القطرية.

(٣) ظهور ضعف الدولة العثمانية بعد هزيمتها أمام الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني، تلك الهزيمة التي تؤدي بالتالي إلى القضاء على مركز الدولة في أعين العشائر البدوية لذا فقد أعلن الباب العالي أن ما فعله والي البصرة كان دون علم منه، فاتجهت الدولة العثمانية إلى التفاوض مع قاسم^(٣).

لكن أخطر نتائج الصدام بين قطر والأتراك كان إدراك الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني لخطر الوجود التركي، وأنه لا بد من عمل توازن في العلاقة مع الأتراك بتحسين علاقته بالإنجليز، ورفض التعاون مع الأتراك على النحو الذي كان قبل معركة ٢٦ مارس

(١) نفس المرجع صفحة ١٦٤.

(٢) الألوسي: تاريخ نجد صفحة ٣٨.

(٣) د. جمال زكريا: المرجع السابق صفحة ٢٤٦.

١٨٩٣م، ففي عام ١٨٩٧م رفض الشيخ قاسم باسم قطر المساهمة في الحرب الدائرة بين تركيا واليونان آنذاك، ورفض الشيخ قاسم قبول دعوة من متصرف الأحساء التركي لزيارة المتصرفية ومعه شقيقه الشيخ أحمد.

وقد ظل الأتراك موجودين بقطر حتى جلوا عنها أثناء الحرب العالمية الأولى ولكن مع اعترافهم بآل ثاني كزعماء لقطر الموحدة، وإذا كان الشيخ قاسم قد اعتزل منصب القائم مقام بعد معاركه مع الأتراك فإن الأتراك لم يعترفوا إلا بزعامته وعهدوا إلى شقيقه أحمد بمنصب مساعد القائم مقام مع استشارة الشيخ قاسم في كل الأمور، رغم ما ذكره متصرف نجد من أن الشيخ قاسم تغلب عليه الطبيعة البدوية من خشونة مما أدى إلى عدم تأثير نصائحي ونصائح أسلافي بحسب المناسبات الملائمة من حيث المكان والزمان، وينصح المتصرف بإبقاء الشيخ قاسم في منصب القائم مقام والعمل الملح لإقناعه لآخر نفس بأخذ موافقته لتنفيذ الإجراءات المتصورة^(١).

وأما اتجاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني إلى الإنجليز لعمل توازن في علاقته مع الأتراك فإن ذلك يعطي دليلاً على زعامة هذا الرجل وشخصيته، وحرصه على الوحدة الوطنية لقطر، ففي الوقت الذي كان يحمل فيه رتبة القائم مقام العثمانية اتصل بالسلطات البريطانية مباشرة، وهذا أمر لم يكن مسموحاً به للولاة العثمانيين ناهيك عن المتصرفين والقائمين.

تقدير الدولة العثمانية لزعامة آل ثاني

وخامس صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر تقدير الدولة السعودية لزعامة آل ثاني، ذلك التقدير الذي تجلي في مواقف كثيرة، كترحيب الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني بالدعوة الوهابية، وترحيبه بقيام الدولة السعودية الحديثة على يد "الأمير" عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، لأن في وجود هذه الدولة العربية الإسلامية الكبرى وقوتها في شبه الجزيرة العربية، وعلى الجانب الآخر من حدود قطر، قوة لوحدة شبه جزيرة قطر الوطنية في مواجهة الأخطار الخارجية.

وكان انتشار الدعوة السلفية في قطر مما يقرب بين آل ثاني وآل سعود، ومن ثم لم يكن غريباً أن نجد الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني يذهب للترحيب بعبد العزيز آل سعود حينما ظهر قرب ساحل السلام أواخر سنة ١٩٠٥م^(٢).

(١) إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ، صورة التحريرات الواردة من متصرفيه نجد.

(٢) د. صلاح العقاد: المرجع السابق صفحة ١٩٢.

وفي مقابل المساعدات التي تلقاها عبد العزيز آل سعود من الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني خلال سنوات حرب ابن سعود مع ابن الرشيد ، وهي المساعدات التي شددت من أزره في وقت المحنة ، فقد وجد ابن سعود في الفترة من ٥ يونيو حتى أغسطس عام ١٩٠٥م أنه من الواجب عليه تقديم المساعدة والعون لشيخ قطر أثناء الفتنة الأهلية في إمارته ، تلك الفتنة التي كان يقودها أخو الشيخ أحمد بن ثاني والتي كان هدفها انتزاع الإمارة من قاسم^(١).

وقد تمثل تقدير آل سعود لزعامه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في قبول شفاعته الأخير في آل بسام من عنيزة الذين كانوا من أعداء "الإمام" عبد العزيز آل سعود وغلبهم وأخذ زعماءهم إلى الرياض عام ١٩٠٤م أكثر من عام ، ولم يقبل شفاعته أشرف مكة المكرمة وزعماء البصرة حتى تشفع فيهم الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني فقبل "الإمام" عبد العزيز آل سعود شفاعته ، وأرسل زعماء آل بسام مع أخيه وخدمه إلى قطر عام ١٣٢٢هـ^(٢).

كما تمثل تقدير آل سعود لزعامه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني أيضاً ، في قبول عبد العزيز آل سعود شفاعته الشيخ قاسم في أمير بلاد الحريق - في نجد - المسمى "راشد الهزاني" وجماعته لما شق عصا الطاعة ونقض بيعة الإمام وصار جريرة سوء ، أسره الإمام وحبسه في بلاده الرياض ولم يظن أحد أنه يفك أسره أبداً لأنه أجرم جرماً كبيراً في الولاية للمسلمين فتشفع فيهم الشيخ قاسم ، فأطلعه له الإمام وأرسله مع عبد الرحمن بن سويلم بقطر^(٣).

كانت تلك أذن صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر التي عمل لها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني طوال حكمه وزعامته لشبه الجزيرة القطرية ، وهي جميعاً توضح الجهود المضنية والطويلة التي بذلها الشيخ قاسم في سبيل تحقيق وتثبيت الوحدة الوطنية القطرية أمام قوى أكثر نفوذاً وأوضح أطماعاً ، وظروفاً أكثر صعوبة وذلك على المستويين الخارجي والداخلي. وعندما خلفه في زعامه قطر ابنه الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني كانت الوحدة الوطنية القطرية مستقرة اعترفت بها الأقطار العربية في شبه الجزيرة واعترفت بها إنجلترا بتوقيع معاهدة بين الطرفين كانت أول اعتراف دولي باستقلال قطر.

(١) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ٢٠٠.

(٢) ديوان الشيخ قاسم محمد آل ثاني صفحة ٢٦.

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة.

قطر قبيل الحرب العالمية الأولى^(١)

مقدمة

تحتفل قطر كل عام بعيد استقلالها في الأول من سبتمبر ١٩٧١، عندما وجه الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر، وكان وقتها وليا للعهد ورئيسا لمجلس الوزراء - خطابا إلى شعب قطر أعلن فيه استقلال قطر منهيًا بذلك علاقاتها التعاهدية مع بريطانيا وملغيا معاهدة سنة ١٩١٦م، ومبشرا بقيام دولة قطر ذات السيادة التامة والسلطان الكامل على كل مقدراتها في الداخل والخارج على السواء.

وقبل هذا الإعلان كانت هناك أحداث أوصلت قطر إلى الاستقلال، من هذه الأحداث بدء ظهور قطر كإمارة ذات كيان سياسي يحكمها أمراء من آل ثاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت هناك ارتباطات سياسية واقتصادية بين حكام قطر وكل حكام نجد آل سعود وحكام البحرين آل خليفة بحكم ارتباط قطر بريا بالأرض السعودية وبحريا بمواجهة جزر البحرين، إلى جانب ترحيب القطريين - وفي مقدمتهم آل ثاني - بالدعوة الوهابية، بالإضافة إلى ارتباط القبائل العربية في شبه جزيرة قطر وفي جزر البحرين ارتباطا قريبا وتعاون في مجالات صيد اللؤلؤ والتجارة فيه وفي غيره من السلع.

وفي ظل آل ثاني اتجهت قطر في سياستها الخارجية - خاصة في عهد الشيخ محمد بن ثاني وأبنة الشيخ قاسم - إلى النزوع إلى الاستقلال من كل من حكومة الرياض وحكومة المنامة في الوقت الذي أخذ فيه الصراع الإنجليزي التركي يشتد حول النفوذ في مناطق الخليج العربي، فكان على آل ثاني إذن عمل التوازن المطلوب بين هذه القوى المختلفة سواء كان الخليجية أو الخارجية من أجل تأكيد استقلال قطر.

ونتيجة لهذا التوازن، فقد حصلت قطر بموجب اتفاقية ١٢ سبتمبر ١٨٦٨م مع بريطانيا على اعتراف باستقلال قطر، وإن وجدت روابط اقتصادية جمعت القطريين العربيين، قطر والبحرين، بضمان بريطانيا، وهو استقلال مبكر يتناسب في شروطه مع ظروف ذلك العصر، ويضع الأساس لإرساء قواعد الأمن والاستقرار ليس في قطر وحدها بل وفي كل الخليج العربي كله.

كما أن نتيجة لهذا التوازن أيضا فقد حصلت قطر بموجب الاتفاقية التركية البريطانية

(١) نشر هذا البحث بالمجلة التاريخية المصرية التي تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة العدد ٢٧ لسنة ١٩٨٠م.

الموقعة بين الطرفين عام ١٩١٣م على اعتراف القوتين المتنافستين على النفوذ في منطقة الخليج العربي آنذاك باستقلال قطر تحت حكم آل ثاني، ورغم أنه وقعت بعد ذلك بريطانيا في معاهدة ١٩١٦م مع تركيا باستقلال قطر بزعامة آل ثاني كانت نقطة كسبتها قطر وسبقت بها إعلان الاستقلال التام وإنهاء معاهدة الحماية مع بريطانيا في سبتمبر ١٩٧١م.

وفي الصفحات التالية نسجل كيف أدى التوازن الذي عمل له الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني على الاعتراف باستقلال قطر من جانب أكبر قوتين متنافستين على النفوذ في منطقة الخليج العربي وأعني كلا من إنجلترا وتركيا. وهو الاستقلال الذي دفعنا إلى إبراز دوره ودور صانعه في تاريخ قطر الحديث والمعاصر.

استقلال قطر ومعاهدة ١٨٦٨م

استفاد الشيخ محمد بن ثاني من الظروف المحيطة بقطر والأحداث العربية التي تعرضت لها منطقة الخليج، وأعني بها الحرب بين القطريين من ناحية وكل من حكام البحرين وأبو ظبي من ناحية أخرى عام ١٨٦٨م، فانضم إلى السعوديين الذين ناصرهم، وفاوض المقيم البريطاني في الخليج الكالونيل بيلي Billey باسم القطريين في اجتماع عقد بمدينة الوكرة القطرية.

وقد تمت هذه المفاوضات بتدخل من الكولونيل بيلي، وبموجب الصلاحيات المتعلقة بالأمن البحري، ومن ثم أنشئت عبر هذا التدخل أول علاقة رسمية على شكل اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثاني في ١٢ سبتمبر ١٨٦٨م، كانت بمثابة اعتراف بريطاني بالشيخ محمد بن ثاني كحاكم يمثل قطر^(١).

وقد أدخلت هذه المعاهدة قطر عضوا في معاهدات الهدنة البحرية، وكانت تقضي في مجملها على ألا يرتكب أهالي قطر أعمالاً عدوانية على البحر، وأعطت شخصيتها الكاملة، واعترف بعدها بآل ثاني حكاما لقطر حتى اليوم^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن قطر دخلت متأخرة في معاهدات الهدنة البحرية عن غيرها من إمارات الخليج العربي التي دخلت في هذه المعاهدات منذ عام ١٨٢٠م، تلك المعاهدات التي التزمت فيها هذه الإمارات العربية الخليجية - بعد معركة بريطانيا مع القواسم في رأس الخيمة عام ١٨٢٠م، بنبذ الأعمال العدائية ضد بعضها البعض أو ضد الغير في مياه الخليج وقبول وساطة المقيم العام البريطاني في الخليج في أي نزاع يتعارض مع هذه المعاهدات.

(١) إبراهيم أبو نواب: قطر قصة بناء دولة صفحة ٧١.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر (١٩١٦-١٩٤٩م) صفحة ١٢٨.

وهذا التأخير في الانضمام لمعاهدات السلم البحري قد جعل لقطر وضعاً متميزاً حتى عن البحرين التي وقعت معاهدة مماثلة مع بريطانيا عام ١٨٦١م.

وقد تضمنت المعاهدة بين الشيخ محمد بن ثاني والكولونيل بيللي على وثيقتين: الوثيقة الأولى تعهد من الشيخ محمد بعدم خرق المعاهدة البحرية، وهذا التعهد يتضمن خمسة بنود أهمها عودة الشيخ محمد وبقية القبائل القطرية المتحالفة إلى سكن مدينة الدوحة وتعميرها بعد أن تركوها أثناء هجوم حكام البحرين وأبو ظبي عليها، وعدم القيام بأي أعمال حربية في مياه الخليج، ورفع أمر أي نزاع ينشأ بين قطر وأية إمارة خليجية أخرى إلى المقيم البريطاني، وأن تكون علاقة قطر بالبحرين علاقة طيبة وأن يدفع الشيخ محمد بن ثاني قدرًا من المال وقدره ١٥٠٠٠ ران (١) لحاكم البحرين كل سنة وذلك عن طريق المقيم البريطاني، ووقع هذا التعهد كل من الشيخ محمد بن ثاني والكولونيل س. لويس بيللي في ٢٤ جمادى الأولى ١٢٨٥ هـ الموافق سبتمبر ١٨٦٨م. (٢)

وأما الوثيقة الثانية التي اشتملت عليها معاهدة ١٨٦٨م بين قطر ويمثلها حاكمها الشيخ محمد بن ثاني والمقيم السياسي البريطاني العام في الخليج العربي الكولونيل بيللي فهي عبارة عن تعهد القبائل القطرية بدفع مبلغ ١٥٠٠٠ ران سنوي متضامنين وعن طريق حاكم قطر الشيخ محمد بن ثاني الذي يسلمها للمقيم البريطاني الذي يسلمها بدوره لحاكم البحرين من آل خليفة.

وقد نصت هذه الوثيقة على ما يلي:

نقر نحن شيوخ القبائل الموقعين على هذا والمقيمين مع قبائلنا في الأرض القطرية ونوافق على أن ندفع للشيخ علي بن خليفة حاكم البحرين المبالغ المالية التي كنا ندفعها سنويًا من قبل لحكام البحرين وهذه المبالغ كلها نسلمها للشيخ محمد بن ثاني شيخ الدوحة الذي يقوم بتسليمها للمقيم العام البريطاني الذي يقوم بدوره بتسليمها لوكيل حاكم البحرين في بوشهر وهذه المبالغ موزعة على النحو التالي حسب نصيب كل قبيلة:

- قبيلة المهاندة تدفع ١٧٠٠ ران.
- قبيلتي البوعينين والنعيم تدفع ١٥٠٠ ران.
- قبيلة سميسمة (قبيلة البوكوارة التي تسكن في سميسمة) وتدفع ٥٠٠ ران.

(١) يذكر د. أحمد أبو حاكمة في كتابه: تاريخ شرقي الجزيرة العربية نقلًا عن تقرير وarden أن "القران" عملة ضربت في فارس وهي تعادل في قيمتها الريال الحجازي.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر (١٨٦٨-١٩١٦) صفحة ٢١١.

- قبيلة كيليب وتدفع ٥٠٠ قران.
- قبيلة السودان وتدفع ١٥٠٠ قران.
- محمد بن ثاني (زعيم قبائل المعزيد والمسلم) ويدفع ٢,٥٠٠.
- قبيلة العمامرة وتدفع ٨٠٠ قران.
- الجملة ٩٠٠٠ قران

وإذ ندرك نحن الشيوخ المذكورين بأن ما يطالبنا به حاكم البحرين هو ١٥٠٠ قران سنويا وليس ٩٠٠٠ المتوزعين على القبائل أعلاه، فأنا نوافق على دفع أي مبلغ إضافي بحيث لا يتجاوز مجموعة ما ندفعه ١٥٠٠ قران والذي يجب أن يصدر به المقيم السياسي البريطاني بعد دراسة الموضوع دراسة قانونية.

وقد تحرر هذا التعهد في ٢٥ جمادى الأولى ١٢٨٥ هـ الموافق ١٣ سبتمبر ١٨٦٨ م، أي في اليوم التالي لتوقيع الوثيقة الأولى^(١).

ولم يكن هذا التساهل من جانب الشيخ محمد بن ثاني حاكم قطر إلا تحقيقا لهدف أكبر وهو نيل الاستقلال، وإبعاد النفوذ التركي عن شبه جزيرة قطر وهو النفوذ الذي ظهر فجأة في الأحساء والبحرين حتى يبعد وطنه عن الصراع الأكبر بين القوتين المتنافستين إنجلترا وتركيا، وهو يدرك أن قطر لا قبل لها بهذا الصراع، ومن الخير لها عمل التوازن بين القوتين. ومن ثم لا نعجب أن نجد بريطانيا عن طريق معاهدة ١٨٦٨ م تسهم في تأسيس مركز مستقل لقطر عن البحرين لأول مرة في تاريخ شبه جزيرة قطر^(٢).

ولكن إنجلترا رغم توقيعها معاهدة ١٨٦٨ م مع قطر فإنها لم تتجح في فرض نفوذها كاملا بالسرعة التي نجحت فيها في البحرين بسبب امسك الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني زمام الأمور في شبه الجزيرة القطرية من والده الذي بلغ الثمانين من عمره، وكان الشيخ قاسم في الرابعة والأربعين من عمره عندما تسلم زعامة قطر عقب توقيع اتفاقية عام ١٨٦٨ م مع البريطانيين، وقد عمل الشيخ قاسم على الاستفادة من مزايا تلك الاتفاقية والتخلص من مضارها عند أول فرصة سانحة. وقد سنحت الفرصة بحدوث غزو تركي لشبه جزيرة قطر عام ١٨٧١ م بعد توقيع الاتفاقية القطرية البريطانية لعام ١٨٦٨ م بثلاث سنوات حيث اعتبرت تركيا قطر قائممقامية

(1) F.O.424, Confidential (10376) , part X, : NO. 238, piece NO.492: India Office, to foreign Office, India Office, June 28, 1913. Incolosure 2 in NO.492: Extract form "Aitchison's Treaties" 4th edition, vol, XII, P. 148.

(٢) د. جمال زكريا : الخليج العربي (١٨٤٠ - ١٩١٤) صفحة ١٦٠.

عثمانية، واختارت الشيخ قاسم بن محمد آل ثان قائمقام لحكم قطر.

جاء تعيين الشيخ قاسم في منصب القائمقام لحكم قطر اعتراف من تركيا بسلطة آل ثاني على قطر ذات الكيان السياسي، وكان البريطانيون يعترفون بموجب معاهدة ١٨٦٨م بسلطة آل ثاني على قطر المستقلة، وهنا وجد الشيخ قاسم الفرصة سانحة لكي يحقق استقلال شبه جزيرة قطر على طريقته وهو عن طريق الاستفادة من القوتين المتنافستين في التقرب إلى قطر، وذلك بعمل توازن في علاقة قطر بين كل من إنجلترا وتركيا. وفي ظل هذا التوازن بين الدولتين الكبيرتين في المنطقة أخذ الشيخ قاسم يعمل على جمع سكان قطر جميعهم على هدف واحد وإشاعة السلام بينهم وتوحيدهم^(١)، أي تحقيق الوحدة الوطنية القطرية ركيزة الاستقلال الكامل المنشود والمحقة لاستمرار المحافظة على الاستقلال. ولكن يبدو أن كلا من تركيا وبريطانيا لم تقبل بسياسة التوازن بين القوى التي لجأ إليها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في تعامله معها. فرغم أن بريطانيا سلمت منذ البداية بامتداد السيادة العثمانية إلى بعض أجزاء من شبه جزيرة قطر إلا أنها لم تلبث أن فطنت إلى أغراض الأتراك التوسعية في الخليج العربي فصارت تعارض في امتداد النفوذ العثماني إلى قطر وتعمل في نفس الوقت على تقوية علاقاتها بشيخ البحرين ومساندته في مواجهة الأخطار التي تحدق به^(٢).

وتعرض استقلال قطر الذي يحاول الشيخ قاسم صيانتة لمؤامرات من قبل الإنجليز والأتراك فبالنسبة للإنجليز فقد انتهزوا تعاون الشيخ قاسم مع العثمانيين بقبول منصب قائمقام قطر وحرضت البحرين لإثارة المشاكل مع قطر بخصوص مسألة السيادة على مدينة الزبارة وعلى قطر بأكملها استنادا إلى أن مدينة الزبارة هي الأرض التي خرج منها آل خليفة وفتحوا جزر البحرين فهي موطن أجدادهم وقد نسوا أن الشيخ ثاني قد ولد في الزبارة واشتغل بالتجارة هناك وعن طريقه وصلت تلك الأسرة إلى ما وصلت إليه الآن، كما أن قطر توقفت عن دفع الأموال السنوية التي كانت تدفعها للبحرين بموجب معاهدة ١٨٦٨م والتي كانت تنتقص من استقلال قطر الكامل، توقفت دفع هذه الأموال عقب ظهور الأتراك في المنطقة أي عام ١٨٧٠م^(٣).

واستطاع الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني المحافظة على استقلال قطر باستمرار تقوية

(١) إبراهيم أبو ناب : المرجع السابق صفحة ٧٢.

(٢) محمود شكري الالوسي: تاريخ نجد صفحة ٣٩.

(٣) د. عبد العزيز المنصور : التطور السياسي لقطر (١٨٦٨-١٩١٦) صفحة ٤٩.

علاقته بالأتراك، ولكن الأتراك ما لبثوا أن راوا في رفضه لبسط سيطرتهم على قطر نزعة استقلالية منه، ومن ثم عولوا على محاربتة، ولم تفلح الحرب التي وقعت عام ١٨٩٢م لأن الأتراك هزموا فيها على الأرض القطرية، مما دفع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني إلى الكتابة إلى الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني برسالة يطلب منه تسوية الأمور بين الطرفين وإطلاق سراح الأسرى الأتراك والاعتذار عن أن والي البصرة محمد حافظ باشا دبر هذا الهجوم دون علم السلطان، ومن ثم عزله السلطان من ولاية البصرة إرضاءً للشيخ قاسم، ولا شك أن هذا تعزيز لاستقلال قطر.

ولكن أخطر نتائج هذا الصدام بين قطر وتركيا كان اتجاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني إلى التعاون مع الإنجليز الذين أبدوا استعدادهم بعد صدام الشيخ قاسم مع الأتراك لعقد معاهدة حماية مع الشيخ قاسم ولكنه رفض هذا العرض^(١)، وعندما عقدت بريطانيا معاهدات محلية في الخليج لتجريم تجارة الأسلحة عام ١٨٨١م مع شاه إيران وعام ١٨٩٨م مع حاكم البحرين، لم يستثن من مثل هذه المعاهدات سوى قطر في عهد الشيخ قاسم التي استطاعت أن تحتفظ بحريتها في هذا المجال إلى ما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وهذا مظهر آخر لاستقلال قطر^(٢).

الصراع التركي الإنجليزي واستقلال قطر

أثارت محاولات الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر توطيد سيطرتها في الخليج العربي معارضة عند الحكومة البريطانية، ورغم تعدد هذه المحاولات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٨م) إلا أنها لم تعد ذات تأثير كبير نظرا لانشغال الدولة بأمور أخرى داخل اسطنبول وفي أجنحة الدولة أوروبا وأفريقيا كثورات اليونانيين وتوسيع الاستعمار الفرنسي من الجزائر إلى تونس عام ١٨٨١م، والاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م.

ولكن الدولة العثمانية عادت في السنوات الأولى من القرن العشرين إلى الاهتمام بأقطار الخليج العربي، ولعل هذا مرده في الدرجة الأولى إلى الانقلاب الذي حدث عام ١٩٠٨م ضد السلطان عبد الحميد، والذي تزعمه ضباط يتشيعون إلى الأفكار الألمانية وينتمون لما عرف بجماعة الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة ذات الاتجاه التعصبي باعتبار الأتراك جنسا أرقى وأعلى من بقية الأجناس الداخلة تحت السيادة العثمانية ومنها العرب، وقامت

(١) إبراهيم أبو ناب : المرجع السابق صفحة ٧٣.

(٢) نفس المرجع صفحة ٧٤.

سيادة جماعة الاتحاد والترقي بالنسبة لمنطقة الخليج على تقوية السيطرة العثمانية هناك، وكانت خططها في العمل تقوم على إضعاف سلطة حكام إمارات الخليج وانضوائهم إلى فكرة الجامعة الإسلامية التي أخذوها عن السلطان عبد الحميد، كما تقوم على استعمال الشدة والعنف ضد القبائل العربية الخليجية، وإرغام شيوخ المنطقة بالقوة على إعلان ولائهم للدولة العثمانية عن طريق فرض الضرائب عليهم وتجنيدهم في الجيش العثماني^(١).

وكان حماس المواطنين الأتراك في تحقيق مخططات الحكومة العثمانية في منطقة الخليج العربي يعني من ناحية أخرى تجديد الصراع بين الحكومتين البريطانية والعثمانية، على أن الخلاف بين الطرفين لم يتخذ صورة إجرائية إلا في شهر يوليو ١٩٠٨م حينما أرسلت السلطات العثمانية في البصرة فرقة من الجنود لاحتلال جزيرة "الزخونية" وهي جزيرة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من ميناء العقير على مسافة عشرة أميال من الساحل الغربي لخليج سلوي.

وعندما وصلت الفرقة العثمانية إلى جزيرة "الزخونية" قامت برفع الراية العثمانية على الجزيرة، وإزاء ذلك سارع المسئولون البريطانيون في الخليج بالاحتجاج استناداً إلى أنهم رأوا في احتلال الأتراك للجزيرة خطوة لفرض السيطرة التركية على ساحل شبه جزيرة قطر الغربي وربما على إمارات الساحل العماني المهادن. وقد أكد السفير البريطاني في احتجاج حكومته إلى الحكومة التركية بأن جزيرة الزخونية تقع إلى ميناء جنوب العقير الذي يعتبر الحد الأقصى للسيادة العثمانية في الأحساء طبقاً لاعتراف الحكومة البريطانية بموجب التفاهم بين الطرفين البريطاني والعثماني على النفوذ في الخليج، وأضاف لوثر Lowther السفير البريطاني في الآستانة في احتجاجه إلى الحكومة التركية، بأن محاولة الدولة العثمانية التقدم فيما وراء هذه المناطق يؤدي إلى تأزم الموقف بين الدولتين^(٢).

ولكن الدولة العثمانية لم تعبأ باعتراضات الحكومة البريطانية إذ استمر والي البصرة بفرز الحامية العسكرية بجزيرة الزخونية باعتبارها أرضاً عثمانية، أنكر على القنصل البريطاني في البصرة حقه في أن يناقش معه هذه المشكلة رسمياً أو شخصياً. وأن كانت الحكومة العثمانية قد ردت مذكرة الاحتجاج البريطانية بأن وجود الجند العثمانيين في جزيرة الزخونية أمر ضروري لحفظ الأمن بين قبائل الدواسر الذين يترددون على الجزيرة. ولكن يبدو أن الحكومة التركية قد استجابت للضغط البريطاني، خاصة أن تركيا

(١) د. جمال زكريا : المرجع السابق صفحة ٢٢٤.

(2) F.O.424, Confidential (9482), NO. 217 Further correspondence respecting the Affairs of turkey and Arabia, Piecec NO. 68 Sir Gerald Lowther, to Sir Edward Grey, Constantintinople, November 20, 1908.

كانت تعاني متاعب في البلقان ومع روسيا ، فرأى رجال الدولة العثمانية ضرورة أن تسوى الدولة العثمانية مشاكلها مع بريطانيا أملاً في الحصول على تأييد الحكومة البريطانية إزاء ما تصادفه الدولة العثمانية من مشكلات. وأن حقي باشا وزير الخارجية العثمانية على رأس القائلين بضرورة التسوية السلمية للخلافات القائمة للوصول إلى اتفاق مع بريطانيا وغيرها من الدول^(١) ، ومن ثم يبرق وكيل الوزارة لشئون نائب الملك لشئون الهند إلى زميله وكيل وزارة الخارجية البريطانية بنص برقية نائب الملك في الهند التي تضمنت أن الوكيل السياسي البريطاني في البحرين أبلغه بجلاء القوات العسكرية التركية من جزيرة "الزخنونية" ولم يعد هناك جند عثمانيون في الجزيرة^(٢).

وكان جلاء الأتراك من جزيرة الزخنونية كسب لوجهة النظر البريطانية التي كسبت هذه الجولة في صراعها على النفوذ مع الدولة العثمانية في الخليج العربي وهي في نفس الوقت كسب لقطر إذ في هذا الجلاء اعتراف ضمني من جانب الأتراك بوجهة النظر القائلة بأن جزيرة الزخنونية جزء من قطر التي يحكمها آل ثاني.

ولكن هل ينتهي الصراع العثماني البريطاني في قطر وفي الخليج عامة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تبدأ من اقتناع الطرفين بضرورة التوصل إلى اتفاق يحدد مناطق النفوذ السياسي لكل منهما في الخليج منعا للتصادم ، مع هذا الاقتناع كانت هناك تصريحات وإجراءات اعتبرت عراقيل في سبيل التفاهم ، من ذلك ما صرح به اللورد هاردنج الحاكم العام البريطاني للهند من أن وجود العثمانيين في الخليج أشد خطورة من روسيا أو فرنسا لأن لهم - العثمانيين - تأثير على بعض الحكام العرب تحت ستار الجامعة الإسلامية ، ولذلك ذهب إلى المطالبة بإسقاط سيادتهم عن الكويت^(٣).

وفي نفس الوقت الذي جرت فيه المفاوضات بين بريطانيا والدولة العثمانية والتي استمرت سنتين (١٩١١-١٩١٣م) فقد ظهرت مواقف تفاهم ومواقف تصادم ، إذ بينما تساهل العثمانيون في التنازل عن قطر وعن البحرين ، وموافقة بريطانيا على بقاء الكويت تحت السيادة العثمانية التي تمتد حتى ميناء العقير بالأحساء ولا تمتد أبعد منه ، وحتى بعد توقيع الاتفاقية في ٢٩ مايو ١٩١٣م سعت تركيا إلى التمسك باحتلال شبه جزيرة قطر

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية صفحة ٢٠١.

(2) F.O.424, NO. 221 Further correspondence respecting the Affairs of Asiatic turkey and Arabia Piecec 97 of India office to Foregin office;97 Government of India to viscount Morley (telegrafic), November 26, 1909.

(٣) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي صفحة ١٩٥.

خلال شهر يونيو ١٩١٣م رغم ما نصت عليه الاتفاقية من إقرار تركيا بالتخلي عن قطر. وتقصيل ذلك أن السفير البريطاني في اسطنبول بعث إلى السير إدورد جراي وزير الخارجية البريطانية في ١٦ يونيو ١٩١٣م بأنهم أرسلوا إلى قطر ٧٥ جنديا على رأسهم ضابط تركي واحد يستقلون سفينة تجارية عربية تسمى "بدر"^(١).

وعندما أبلغت الحكومة البريطانية حكومة الهند لمتابعة موضوع نزول القوات التركية التي خرجت من البصرة إلى قطر، ردت حكومة الهند على وزارة الخارجية البريطانية في ٢٤ يونيو ١٩١٣م، بأن هذا الإجراء التركي مثير للاضطراب ويدعو إلى القلق ومن ثم فلا يمكن احتمالته^(٢). لأنه في رأي تلك الحكومة يخالف ما تعهدت به الدولة العثمانية في الاتفاقية التي وقعتها مع بريطانيا قبل أقل من شهر واحد.

ولعل هذه العقبات هي التي - إلى جانب عوامل أخرى - كانت سببا في عدم التصديق على المعاهدة العثمانية البريطانية رغم التوقيع عليها من ممثلي الطرفين. وما يهمننا هنا هو مناقشة ما نصت عليه تلك الاتفاقية من بنود قرارات استقلال قطر باعتراف كل من تركيا وإنجلترا اعترافاً رسمياً.

وقد شهد شهرى إبريل ومايو ١٩١٣م مواقف حاسمة في المفاوضات العثمانية البريطانية حتى تم التوقيع على الاتفاقية بين الطرفين في أواخر شهر مايو لأن المفاوضات تناولت عددا من موضوعات الخلاف بين البلدين منها مسألة الرسوم الجمركية، وخط حديد بغداد، ومناطق النفوذ في الخليج العربي، ومسألة شط العرب^(٣).

وفي هذا المقام بعثت حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٧ إبريل ١٩١٣م برسالة تعبر عن رأي حكومة الهند بشأن مشروع الاتفاق الجاري إعداده بين الحكومتين البريطانية والتركية وخاصة فيما يتعلق بتمسك العثمانيين بجزيرة الزخونوية. إذ ترى حكومة الهند أنه على الرغم من الخوف من أن اعتراف بريطانيا بالسيادة التركية على جزيرة الزخونوية والساحل - ساحل الأحساء، الواقع بين "العقير" ونقطة تواجه تلك الجزيرة قد يؤدي إلى بعض الخلاف أو الاحتكاك في المستقبل بين البريطانيين والأتراك، فإن حكومة الهند على استعداد للموافقة على مشروع الاتفاق الإنجليزي التركي بما احتواه

(1) F.O.424, Confidential (10376), NO. 238 Ibid.. Piecec NO. 387: Sir Gerald Lowther, to Sir Edward Grey.constantinople, June 16, 1913 (Telegraphic) NO.218.

(2) Ibid: India office to Foregin office.June24,1913, Piece NO.451.

(٣) د. صلاح العقاد: المرجع السابق صفحة ١٩٤ - ١٩٥.

من البند المشار إليه بخصوص جزيرة الزخنونية وفي إطار الشروط التي عرضتها حكومة الهند والتي وافقت عليها جميعا الحكومة التركية⁽¹⁾.

وهذا يعنى تنازل بريطانيا عن شيء تمسكت به من قبل لصالح قطر وهو جزيرة الزخنونية في سبيل تركيا بإنهاء سيادتها على قطر واستقلال قطر عن البحرين.

وقد تضمنت مذكرة حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية عدة ملاحق كان الملحق الأول عبارة عن برقية من الماركيز كروو Crewe المفاوض البريطاني موجهة إلى حكومة الهند البريطانية تفيد أنه بالنسبة لقطر في مجال المفاوضات التركية البريطانية فسوف تبقى مستقلة وذات كيان سياسي ولن تتبع البحرين، وذلك في إطار ما عبرت عنه الحكومة التركية من رغبتها في الجلاء الكامل من شبه جزيرة قطر. ويأمل الأتراك أن توافق بريطانيا على بقاء سيادتهم على ساحل الأحساء بحيث تمتد من الشمال حتى نقطة في الجنوب تواجه جزيرة الزخنونية الراغبين في إخضاعها أيضا لسيطرتهم⁽²⁾.

واحتوى الملحق الثاني على شروط حكومة الهند لإقرار اتفاق مع تركيا على الأسس السابق الإشارة إليها - وأعنى انسحابها من قطر والاعتراف باستقلالها تحت حكم آل ثاني، وعدم تبعية قطر للبحرين، في مقابل امتداد النفوذ التركي حتى جزيرة الزخنونية ونقطة على ساحل الأحساء تواجهها، وأن حكومة الهند ترى الموافقة على الاتفاقية إذا وافق الأتراك على شروط حكومة الهند وهي:

١- بخصوص استقلال قطر، فيجب أن تتخلى تركيا تماما عن كل ادعاءاتها السابقة بالسيادة على شبه الجزيرة القطرية، في الوقت الذي تعترف فيه تركيا لبريطانيا بالحرية في أن تدخل مع شعب قطر في اتفاقيات تتعلق بمسألة تجارة الأسلحة أو تأمين السلم البحري.

٢- أنه بالنسبة لمطالب حاكم البحرين بجزيرة الزخنونية فيمكن تخليه عنها بتقديم تعويض مادي محدود له.

٣- كفالة السماح باستمرار إقامة بعض رجال القبائل من البحرين على جزيرة الزخنونية كالعادة من أجل صيد الأسماك خلال شهور الشتاء، وأنهم لم يخضعوا لأية مضايقات أو تفرض عليهم أية ضرائب من أي شكل.

(1) India office, April 17, 1913. Ibid: India office to Foreign office. NO.52

(2) Ibid : Enclosure I in NO. 52: the Marouess of Crewe to Government of India, India office, April 7, 1913.

٤- بقاء جزيرتي "لبينات السلفية" و "لبينات العالية" في حوزة حاكم البحرين^(١).
 وحدد الملحق الثالث مبلغ التعويض الذي يقترح منحه لحاكم البحرين في مقابل تنازله عن مطالبته بجزيرة الزخنونية، إذ أجاب المقيم البريطاني العام في الخليج بأنه تم اقتراح تعويض لحاكم البحرين مبلغ ٠٠٠ راجنيه، وأنه لكي يكون الاقتراح مقبولاً تماماً من حاكم البحرين في نظير رفع يده تقديم هدية مناسبة من جانبهم إلى حاكم البحرين لإنهاء كل ادعاءاته، وهذه الهدية لن تتجاوز المبلغ المقترح عليه كتعويض^(٢).
 وأخيراً تم الاتفاق على تسوية شاملة للمشكلات التي تعترض سبيل العلاقات التركية البريطانية، حيث وقع كل من إبراهيم حقي باشا وزير خارجية الدولة العثمانية والسير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية اتفاقيات هذه التسوية وهي التسوية التي تضمنت على ما يلي:

(١) إعلان عام تمهيدي لمشروع المعاهدة^(٣).

(٢) مشروع اتفاق يتعلق بخط حديدي في آسيا الصغرى^(٤) ويتكون من ٢١ مادة.

(٣) مشروع اتفاق يتعلق بالخليج "الفارسي" وهو يتعلق بكل من الكويت وقطر والبحرين وأمور الخليج^(٥) وتشكل لجنة لتعيين الحدود وهذا الاتفاق احتوى على بنود تتعلق باستقلال قطر وهو موضوع بحثنا.

كما احتوى على أربعة ملاحق تتعلق باتفاقيات بريطانية كويتية لأعوام ١٨٩٩م و١٩٠٠م، ١٩٠٤م ورسالة السير إدوارد جراي إلى توفيق باشا رئيس وزراء تركيا في ٢٤ أكتوبر ١٩١٣م.

(٤) مشروع اتفاق يتعلق بتشكيل لجنة من أجل تحسين الملاحة في شط العرب وهو يحتوي على ٢١ مادة وله ملحق^(٦).

وبالنسبة لقطر فقد نصت المادة رقم (١٠) والمادة رقم (١١) من مشروع الاتفاق البريطاني العثماني بشأن الخليج على إقرار مستقبل قطر على النحو التالي:

(1) Ibid: Inclosure 2 in NO. 52: Government of India to the Marquess of Crewe, April 14, 1913.

(2) Ibid: Inclosure 3 in NO. 52: Government of India to the Marquess of Crewe, April 15, 1913.

(3) Ibid, Enclosure 1 In NO. 144: Draft Declaration

(4) Ibid, Enclosure 2 in NO. 144: Draft Convention respecting Railways in Asia Minor.

(5) Ibid, Enclosure 3 In NO. 144: Draft Convention Respecting the Persian Gulf, & C.

(6) Ibid, Enclosure 1 in NO. 144: Draft Convention respecting the Creation of a Commission for improving Navigation in the Chatt-el-Irab.

نصت المادة رقم (١٠) على أن تتنازل الدولة العثمانية تنازلاً نهائياً عن كل ادعاء لها بالسيادة على شبه جزيرة قطر، على أن يتولى حكم شبه الجزيرة آل ثاني حكماً وراثياً، وتعهدت الحكومة البريطانية بمنع حاكم البحرين من محاولة ضم قطر إلى سلطته.

كما نصت المادة رقم (١١) من الاتفاق المذكور على السماح لأهل البحرين بالنزول إلى جزيرة الزخنونية من أجل صيد اللؤلؤ، علماً بأن تلك الجزيرة صارت جزءاً من الأحساء التركي. وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تلزم نفسها في هذا الاتفاق بالاعتراف مسبقاً باستقلال قطر استقلالاً تاماً بعد انتهاء السيادة العثمانية، وأنها أعطت لنفسها الحرية في عقد معاهدات مع حكام قطر من آل ثاني بشأن تجارة الأسلحة أو السلم البحري في الخليج، فإن النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر إعلاناً باستقلال شبه الجزيرة القطرية ولم يكن الأمر يستدعي تنازلاً مماثلاً من بريطانيا لأنه لم تكن لها أية ادعاءات بالسيادة على شبه الجزيرة القطرية، هذا على الرغم من أن هذا النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر جاء نتيجة مفاوضات بريطانية عثمانية ولم يأت نتيجة مفاوضات قطرية عثمانية، وهذا فرضته طبيعة الصراع في الخليج الذي كان صراعاً بريطانيا عثمانياً.

وإزاء اتجاه الأمير عبد العزيز بن سعود بأنظاره إلى قطر بعد استيلائه على الأحساء قبل توقيع الاتفاق العثماني البريطاني بحوالي شهرين، فقد اتخذت السلطات البريطانية موقفاً محذراً بعدم اتخاذ أي موقف يغير الوضع القائم، أو خلق أي اضطراب بين الإمارات العربية التي يدخل حكمها في اتفاقات مع الحكومة البريطانية، بما فيها إمارة قطر المستقلة تحت حكم المرحوم الشيخ قاسم آل ثاني وأبنائه من بعده، والتي تم الاعتراف بها من جانب كل من الحكومتين البريطانية والعثمانية، وأن الحكومة البريطانية حريصة على استمرار علاقات الصداقة التي لها جذور بعيدة في الماضي^(١).

توفي الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في ١٧ يوليو ١٩١٣م الموافق لعام ١٣٣١هـ فخلفه في الحكم ابنه الشيخ عبد الله، وجاء ذلك في ظل المعاهدة العثمانية البريطانية، وفي ظل علاقات حسنة بين آل ثاني وآل سعود خاصة عندما تعهد الأمير عبد العزيز آل سعود أمام المندوبين البريطانيين، والمعتمد البريطاني في الكويت، والمعتمد البريطاني في البحرين بعدم الاعتداء على قطر^(٢).

(1) F.O.424,240 Ibid: Piece39: India Office, to foreign Office, India Office, October 15, 1913. Enclosure 2 in NO.39; Lieutenant-Colonel Sir P. Cox to Abdul Aziz- Saud Bushire, September 11, 1913.

(2) نفس المرجع السابق صفحة ١٢٠.

وتحققا للاتفاقية البريطانية العثمانية والخاصة بانسحاب تركيا من قطر، فقد أظهر الأمير عبد العزيز آل سعود اهتماما بموضوع جلاء الأتراك عن قطر ومن ثم سعي لمقابلة المسئولين البريطانيين لبحث مستقبل قطر وبقيّة مناطق الخليج العربي التي سيجلوا عنها العثمانيون، وقد أبدت حكومة الهند رغبتها الملحة في ضمان جلاء سريع للقوات التركية من قطر، ولكن طالما أنه لم يتم التصديق على الاتفاقية العثمانية البريطانية، فإنه من الصعب ممارسة ضغط على الحكومة التركية لكي تسرع في الجلاء، وإن أبدت الحكومة البريطانية تفاؤلا بأن التصديق على تلك الاتفاقية لن يتأخر طويلاً⁽¹⁾.

وأثار المقيم العام السياسي البريطاني في الخليج العربي موضوع اللقاء الذي طلب تديره معه الأمير عبد العزيز بن سعود برسالة منه في ٢٧ سبتمبر تشير إلى أن الأمير سيكون على استعداد لمقابلة المقيم العام البريطاني في الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر، وأنه تعهد بعدم مناقشة أية موضوعات أو يتخذ موقفا يتعارض مع سياسة الحكومة البريطانية. وفي هذا المقام ألح المقيم العام على حكومته لكي تمارس ضغطا على الحكومة التركية لكي تجلي قواتها العسكرية عن الأرض القطرية وأنه يجب عدم الاعتماد على حسن نية السلطات العثمانية بالبصرة بخصوص جلاء الأتراك عن شبه جزيرة قطر، وأنه إذا لم تتسحب الحامية العثمانية من قبل اللقاء المقترح بين كل من الأمير عبد العزيز بن سعود والمقيم العام البريطاني في الخليج فسوف تكون الأمور في غاية الحرج والصعوبة سواء للمقيم السياسي البريطاني أو للشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني⁽²⁾.

وقامت الحرب العالمية الأولى في صيف ١٩١٤م وكانت القوات التركية ما تزال موجودة على الأرض القطرية. وكان عدد هذه القوات ٢٧٥ جنديا وضابطا، ولم يكن بوسع الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني طرد الحامية التركية دون مساعدة قوية من بريطانيا بدون إراقة الدماء، وكانت أحوال هذه القوات سيئة، ومن ثم انتهزت بريطانيا الفرصة وأرسلت قوة عسكرية بحرية بريطانية لإجلاء الحامية التركية عن قطر، وذلك في ١٩ أغسطس ١٩١٥م وطلبت بريطانيا من الشيخ عبد الله إقناعهم فسلموا ورحلوا إلى البحرين على سفينة حربية بريطانية، وقامت بريطانيا بعد ذلك بمصادرة أسلحتهم وذخائرهم الموجودة في القلعة المحصنة بالدوحة وأسدل الستار على آخر وجود تركي في قطر.

وهكذا يمكن تتبع علاقة قطر بالدولة العثمانية في إطار الاستراتيجية العثمانية في

(1) Ibid; Piece NO. 76: India Office, to foreign Office, India 32 Office, October 29, 1913.

(2) Ibid: Incollosure.in : NO. Government of India to Marpuess of Crewe, October 26, 1913.

منطقة الخليج العربي في النقاط التالية:

١- بدأ اهتمام البريطانيين بمشيخة قطر في إطار المعاهدات المانعة التي وقعتها السلطات البريطانية مع مشيخات الخليج العربي بداية من عام ١٨٢٠م.

٢- زاد الاهتمام البريطاني بمشيخة قطر أثناء حملات جيش محمد علي الوالي العثماني على مشيخات الخليج سواء الأحساء أو الكويت أو قطر، وعندما انسحبت قوات محمد علي التي كانت تعمل في إطار الإستراتيجية العثمانية الموجهة نحو مشيخات الخليج العربية بعد عام ١٨٤٠م، ومن ثم عمل البريطانيون على إنهاء ادعاءات مشيخة البحرين بسيادتهم على قطر، بإبرام اتفاقية عام ١٨٦٨م تنازلت بموجبها مشيخة البحرين عن ادعائها عن قطر في مقابل مبلغ مالي سنوي يتولى المقيم السياسي البريطاني في الخليج باستلامها من الشيخ محمد بن ثاني (شيخ الدوحة) نيابة عن قبائل قطر ويقوم بتسليمها لشيخ البحرين، كما سبق أن ذكرنا.

٣- في إطار الاستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج، لم يكفد يمضي شهر على احتلال القوات التركية لميناء القطيف بالأحساء، حتى أرسل قائد القوات التركية في يوليو ١٨٧١م حملة عسكرية يقودها شيخ الكويت إلى الدوحة في قطر، وهناك استطاعت الحملة التركية إقناع الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني شيخ الدوحة، وأكثر الرجال نفوذا بقبول رفع العلم التركي، وكان والده الشيخ الكبير في ذلك الوقت قد شاخ وأعوزه الحزم، فلم يوافق على هذه الخطوة، واستمر يرفع العلم العربي على بيته، وحاول الرائد بيللي المقيم السياسي البريطاني في الخليج الاحتجاج على رفع العلم التركي، إلا أن الشيخ قاسم قدم تبريرا لخضوعه للأتراك أنه يعيش في البر، وتركيا قوة برية عظيمة، هذا إلى جانب أن الحكومة البريطانية قد أخفقت في تحقيق العدالة لرعاياه في غير حادثة واحدة من حوادث القرصنة، ولكن يبدو أن تركيا سحبت في عام ١٨٧٣م قواتها النظامية من الدوحة وأبدلتها بثلاثين رجلا من رجال الضبطية أو الشرطة^(١).

٤- كان شيوخ آل ثاني يشعرون بالضيق والتبرم من تصرفات ممثل تركيا في قطر قاسم أغا الذي كان يطلب استشارته في كل كبيرة وصغيرة، إضافة إلى ما كان يحصله من مبالغ كبيرة من أموال أهل الدوحة. ومع ذلك قبل الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني منصب قائم مقام العثماني عام ١٨٧٦م، واستقبل في مايو ١٨٧٩م متصرف الأحساء التركي الذي قدم إلى الدوحة على ظهر السفينة التركية "الإسكندرية" واستعرض المتصرف التركي

(١) لوريمرج ج: دليل الخليج، القسم التاريخي ج ٢ صفحة ١٢١٧-١٢١٩.

الحامية التركية الموجودة في الدوحة - بما فيها من رجال الجاندرمة أيضاً - والتي يبلغ عددها ١٣٠ رجلاً.

٥- حاول الأتراك إحكام قبضتهم على قطر، فقام نافذ باشا والي البصرة بزيارة للدوحة في بداية عام ١٨٨٨م، والتقى أثناء زيارته بالشيخ قاسم ووعدته بلقب ووسام، وأنشئ في الدوحة مخزن للفحم، وبعدها بقليل وضعت حامية تركية قواتها كتيبه من المشاه - ٢٥٠ جندياً - في الدوحة، ورسا زورق بخاري تركي في مينائها. وفي يوليو عام ١٨٨٩م قام عاكف بك متصرف الأحساء بزيارة للدوحة. ربما كانت هذه الزيارة كانت ترتبط بمشروع - قد يكون هو الذي وضعه - لإقامة إدارة تركية مباشرة في قطر منظمة ودار للعوائد، لكن الشيخ قاسم عارض هذا التوجه التركي معارضة شديدة وأصر على أن يقدم استقالة كتابية من قائم مقام قطر. وفي عام ١٨٩٠م أذاع الشيخ بأن حكم قطر قد انتقل من بين يديه إلى أيدي المسؤولين الأتراك، ولكن والي البصرة لم يقبل هذه الاستقالة، ونصحة في أوائل عام ١٨٩١م بالمضي في تأدية واجباته بحماسة^(١).

٦- ازدادت العلاقات بين شيخ الدوحة قاسم بن محمد آل ثاني وممثلي الدولة العثمانية في البصرة والأحساء، وازدادت توتراً، فوصل والي البصرة إلى الدوحة لإجراء مفاوضات مع الشيخ قاسم استمرت شهراً - فبراير ومارس ١٨٩٣م وعندما فشلت المفاوضات لجأ الوالي العثماني إلى استعمال العنف مع القطريين، فاحتجز أحمد شقيق الشيخ قاسم و١٢ من أعيان الدوحة، ثم تحركت القوات التركية لتباغت الشيخ قاسم في الوجبة ولكنها فشلت، وتجمع أهل قطر وهاجموا القوات التركية فهزموها وشنتوا أفرادها، فعادت بعد أن تكبدت خسائر كثيرة متراجعة إلى حصن الدوحة، وقامت السفينة الحربية التركية (فيرنج) بإطلاق نيرانها لتغطية هذا الانسحاب، واضطر الوالي إلى إطلاق سراح الشيخ أحمد ووجهاء الدوحة الذين كانوا رهائن عنده، وظل الشيخ قاسم يعيش هادئاً في الوجبة، وظلت السفينة التركية والوالي على ظهرها راسية في ميناء الدوحة^(٢).

٧- رغم رغبة الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في الاستقالة من منصب القائم مقامية إلا أن الأتراك ظلوا يعاملون الشيخ قاسم على أنه قائم مقامهم في قطر، ولكن مسئولاً تركيا تم تعيينه كمساعد للقائم مقام في الدوحة في عام ١٨٩٣م، ولكن الجنود الأتراك قاموا عام ١٨٩٤م بقتل هذا المساعد التركي وزوجته وظل الشيخ قاسم رغم السنوات الستة التي

(١) لوريمر: المرجع السابق صفحة ١٢٢٢ - ١٢٢٥.

(٢) نفس المرجع: صفحة ١٢٤٨ - ١٢٤٩.

قضاها متقاعدًا في مدينة "الوسيل" رغم استقالته رسميًا من القائمقامية والرئاسة، ظل الحاكم الفعلي للدوحة وما حولها ولم يكن يتم إبرام شيء ذي خطر في قطر دون مشورته، وفي نفس الوقت نجح شقيقه الشيخ أحمد، وكان يقوم فعلاً بمهام القائمقام، وكان بالتالي وسيط التعامل مع السلطات التركية، ولكن في ديسمبر عام ١٩٠٥ لقي الشيخ أحمد مصرعه على يد خادم من خدمه من بني هاجر بسبب حقد شخصي^(١).

٨- خلال الأحداث الأخيرة في الدوحة، سلم السفير التركي في لندن مذكرة للورد "روزبري" يشير فيها إلى أن قطر ولاية تحت الحكم التركي، وبأنها تابعة لمتصرفية نجد، وقد لفتت حكومة الهند البريطانية النظر إلى هذه التعبيرات، فتعهد وزير الخارجية البريطاني - ما دامت هذه المراسلات ذات طابع رسمي - بأن يذكر للسفير التركي - فيما بينهما - بأن حكومة صاحبة الجلالة لا توافق على وجهة النظر الواردة في المذكرة التركية^(٢).

(١) لوريمر؛ المرجع السابق صفحة ١٢٠٥.

(٢) نفس المرجع صفحة ١٢٥٤.

الفصل التاسع

موقف بريطانيا من الإستراتيجية العثمانية في الخليج العربي

- مقدمة.
- محادثات بين الباب العالي والحكومة البريطانية.
- السياسة البريطانية في الخليج من حيث علاقتها بالحملة التركية.
- قضية السيادة التركية على الأحساء وموقف بريطانيا ١٨٧١ - ١٨٨١م.
- موقف بريطانيا من القرصنة.
- علاقة بريطانيا بالأحساء ١٨٧١ - ١٩٠٧م.
- علاقة الأحساء الخارجية بدول أخرى غير بريطانيا ١٨٧١ - ١٩٠٧م.
- بريطانيا وإستراتيجية مدحت باشا في الخليج في إطار التنافس العثماني البريطاني.
- تقارير عثمانية عن علاقة سكان الخليج بالدولة العثمانية ١٨٧١ - ١٩٠٧م.

مقدمة:

أتاحت الخلافات التي نشبت بين الأسرة السعودية الحاكمة في نجد فرصة مناسبة للتدخل . فقد نشب الصراع بمجرد موت الأمير فيصل بن تركي في سنة ١٨٦٥ بين ابنيه عبد الله وسعود ، وأفاد الأتراك من هذه الفرصة ليجعلوا من عبد الله قائمًا لنجد باسمهم . ويحصلوا منه علي اعتراف بسيادتهم على وسط الجزيرة العربية .

محادثات بين الباب العالي والحكومة البريطانية:

ويبدو أن إشارة إلى نوايا الحكومة التركية قد وصلت إلى مسامع حكومة الهند في أوائل سنة ١٨٧١ ، ففي فبراير من نفس السنة صدرت الأوامر للرائد هربرت المقيم السياسي في بغداد بتحري الأمر . ولم يجد في البداية ما يعزز هذه الشائعة لكنه أخيرًا - في أواخر مارس - كتب تقريره الذي جاء فيه أن حملة تركية ستُرسل قريبًا عن طريق البحر من العراق للقطف للوقوف إلى جانب عبد الله في وسط الجزيرة . وعلى الفور ، لفتت حكومة الهند نظر حكومة صاحبة الجلالة إلى عدم رغبتها في نشوب هذه الحرب من جانب الباب العالي لأنها ستخرق السلم في البحار ، وقد تؤدي إلى تدمير التجارة البريطانية ، إلى جانب المشكلات السياسية التي ستتجم عن حرب مثلها ، وبالإضافة إلى ذلك فقد أبلغ الرائد هربرت في بغداد بأن النية تتجه إلى مد السيادة العثمانية إلى "البحرين ومسقط والقبائل العربية المجاورة في جنوب الجزيرة العربية" ، وأجرت حكومة الهند اتصالًا جديدًا بحكومة صاحب الجلالة ، وفي نهاية إبريل أو أوائل مايو ورد تأكيد من الباب العالي في القسطنطينية بعدم وجود أية نوايا توسعية في هذه المنطقة ، وأضاف الأتراك في ردهم يقولون إن هدفهم الوحيد هو عودة الهدوء إلى نجد ، وأنهم لا يودون إحداث ما من شأنه تعكير السلم في البحار لكنهم سيقترضون على نقل قوة عن طريق البحر إلى أقرب نقطة على الساحل يمكن منها السير إلى نجد في الداخل^(١) .

وفي مايو تأكد أن مدحت باشا - الذي وصف البحرين سنة ١٨٧٠ بأنها "بلاد تابعة للسيطرة العثمانية .. وهي جزء من قائمقامية نجد" - كان يعرف يقينًا الأعداء التي تعلل بها الباب العالي ، فأعلن أن قائد الحملة قد صدرت له أوامر صريحة "بعدم التعرض لجزر البحرين على الإطلاق" . وفي نفس الوقت سأل شاه إيران ممثل بريطانيا في طهران عن

(١) لوريمر : المرجع السابق صفحة ١٤٠٥ .

نوايا الحكومة التركية فيما يتعلق بالبحرين، وأبلغ بالتأكيدات التي صدرت عن الباب العالي. أما رئيس الوزراء في القسطنطينية فقد وضح أنه ساخط بعض الشيء على المصالح البريطانية، واهتمامها بحركة التوسع التركية أصبح ضرورياً تخليصه من اعتقاده الراسخ بأن السلطات البريطانية هي المحرض الأول للقبائل العربية كي تتمرد على سلطة تركيا في الجزيرة والخليج.

السياسة البريطانية في الخليج من حيث علاقتها بالحملة التركية:

وكان احتمال اضطراب حبل الأمن في الخليج، وهو حدث مستبعد قد أوقع حكومة الهند في مأزق، ووضح الآن أكثر من أي وقت مضى عدم كفاية الأسس الرسمية، أي المعتمدة على اتفاقيات قائمة بالفعل، للتدخل العسكري في الأمر. ولم تكن المشكلة هي الأعمال العدائية بين الموقعين على اتفاقية السلم الشاملة، بل الحرب المحتملة بين الموقعين عليها وغير الموقعين، ولم يكن في الاتفاقية نص يتعلق بهذه الحالة. وتقدم بعض مشايخ العرب إلى الرائد بيللي المقيم العام في الخليج يتساءلون عما إذا كانت السلطات البريطانية ستمنع القبائل البحرية من الوقوف إلى جانب الأمير سعود الوهابي في نجد ضد الأتراك. كما أرسل سعود كتاباً إلى المقيم يخطر فيه بضرورة منع شيخ الكويت من تقديم العون للأتراك، وإلا فإنه حرق في أن يقوم بأعمال بحرية ضده، ومن ناحية، كان احساس من جانب السلطات البريطانية بأن منع القبائل العربية من تقديم عونها لسعود يعني تأييداً بشكل غير مباشر للحملة التركية، ومن الناحية الأخرى، كان ثمة خوف من أن يؤدي إطلاق حريتهم الكاملة إلى اضطراب التوازن القائم في الخليج، وإلى تقديم تبريرات للأتراك يمارسون بمقتضاها مزيداً من التدخل وضم أرض هذه القبائل إلى الدولة العثمانية.

وأخيراً في ٣٠ مايو سنة ١٨٧١ صدرت التعليمات للمقيم السياسي بزيارة البحرين ليؤكد للشيخ أنه طالما ظل ملتزماً باتفاقية سنة ١٨٦١ مع الحكومة البريطانية فإن هذه الحكومة - بدورها - ستوفي بالتزاماتها نحوه^(١). وفي ٥ يونيو صدرت تعليمات جديدة للرائد بيللي بأن يمنع شيوخ عمان المتصالحة من القيام بأية عمليات بحرية سواء في صف الأتراك أو ضدهم، وأن يستخدم نفوذه مع غيره من الشيوخ لتحقيق السلم في البحار. ولم يرسل أي رد حتى ذلك الوقت إلى سعود أمير الوهابيين. وحين نشبت هذه الأزمة لم تكن ثمة سفينة

(١) يبدو أن الهدف كان هو تأكيد تقديم المعونة. أما في الاتفاقية فلم تعد الحكومة البريطانية بأن تتجاوز حمايتها "زعماء وقبائل الخليج..." فقط.

بريطانية واحدة في الخليج. ولكن أخيراً وصلت السفينة "بولفيتش" إلى البحرين يوم ٣ يونيو، ومرت السفينة "مجبای" بجاشك يوم ٥ يونيو ووصلت السفينة "لينكس" هانجام في ١٦ يونيو.

وأبلغت الحكومة التركية بالتعليمات التي صدرت للمقيم السياسي، وقدم كبير الوزراء شكره وامتنانه، ولكنه أضاف، أنه إذا شاء بعض مشايخ عمان المتصالحة الوقوف إلى جانب تركيا فإن الحكومة التركية لا بد أن تقبل هذا من جانبها، فهي لا تعرف شيئاً عن اتفاقيات السلم البحرية هذه. ولتفادي هذا المأزق قدمت نسخ من الاتفاقيات المعقودة بين الحكومتين البريطانية والشيوخ المتصالحين للوزير التركي^(١).

قضية السيادة العثمانية على الأحساء:

لقد ثارت مشكلة حادة بسبب تداخل استبدال السيادة التركية على ساحل الأحساء بالسيادة البريطانية الفعلية ونتيجة عدم وضوح حدود هذه الحقوق التركية المزعومة، أو التي يطالب الأتراك بالاعتراف بها. فمن ناحية، كانت لدى بريطانيا الرغبة في عدم الاعتداء على تركيا، ومن الناحية الأخرى كان أي تنازل للباب العالي يعني مزيداً من عمليات القرصنة.

رأي حكومة الهند:

وجاء رأي حكومة الهند وكانت بدأت مناقشة هذه المشكلة في سنة ١٨٧٨ وأوضحت آراءها تحديداً في مايو ١٨٧٩م منكرًا الاعتراف بأي حق لتركيا بالسيادة على أي مكان جنوبي العقير باستثناء مدينة الدوحة بقطر التي تقيم فيها حامية تركية. واعتبرت حكومة الهند مشيخات عمان المتصالحة خارج النفوذ التركي تماماً سواء مناطقها الساحلية أو الداخلية كما أوصت ترتيب الأمور مع شيخ البحرين بحيث تفرض الحماية البريطانية على إماراته، وبألا تمنعه السلطات البريطانية من مطاردة المعتدين على الجزر حتى الأرض التركية. ولضمان تحديد الوضع السياسي لهؤلاء المشايخ العرب، من وجهة نظر العلاقات الدولية، اقترح أن يدفعوا في المستقبل جزية صغيرة للحكومة البريطانية في مقابل تعهد هذه بحمايتهم أما بالنسبة لمنع القرصنة فقد أصدرت حكومة الهند تعليماتها باستمرار مطاردة السفن الحربية البريطانية للقراصنة في المياه التركية بل وحتى على الأرض التركية ما دامت في نطاق مرمي مدافع السفن، على أن يعهد إلى المقيم السياسي البريطاني في

(١) لوريمر: المرجع السابق صفحة ١٤٥٢.

الخليج بمعاقبة القراصنة الذين يتم القبض عليهم تحت هذه الظروف، وتكون السلطات التركية مسئولة عن دفع التعويض في كل الحالات التي يرتكب القراصنة فيها رعايا أقاليم تابعة لتركيا.

رأي حكومة صاحبة الجلالة:

وكان مفروضاً أن يتولى مكتب الهند تنفيذ توصيات حكومة الهند غير أن وزير الخارجية كانت تعتقد أن قبول الباب العالي هذا المخطط - الذي كان يعني تنازلاً من جانبها عن بعض المطالب الإقليمية واعترافاً بحق دولة أخرى في التدخل في مياه تركية - ليس متوقعاً. كما أن إعلان الحماية البريطانية الواضحة كان - في رأي لورد سالسبوري - سيؤدي إلى نتائج أوخم وأخطر من هذه التي تبذل الجهود لتجنبها. وكانت وزارة الخارجية تميل إلى الأخذ بأن يكون تدخل البحرية البريطانية في المياه التركية قاصراً على الأمور الخطيرة فقط وبعد موافقة السلطات التركية المحلية على ذلك.

وقف عمل السفن الحربية البريطانية على شاطئ الأحساء مايو ١٨٧٩:

وفي نفس الوقت كان موضوع استخدام السفن الحربية البريطانية ضد القراصنة في المياه التركية أو على الساحل التركي قد صدر به تفويض من حكومة الهند في مارس ١٨٧٩ ورفع قائد عام البحرية في الهند إلى الاميرالية البريطانية التي أبلغته بدورها إلى وزارة الخارجية. وفي مايو ١٨٧٩ صدرت الأوامر بإيقاف عمل هذه السفن الحربية. وأفاد المستشارون القانونيون لحكومة صاحبة الجلالة بأن هذا العمل - حتى بالنسبة للظروف الخاصة على ساحل الأحساء - أمر يمنع القانون الدولي.

مفاوضات مع تركيا:

وبمضي الوقت، ولعدم وجود أية دلائل تشير إلى أن هذا الاضطراب سيتوقف في القريب، أصبح ضروريا توجيه الانتباه بإصرار من وقت آخر عن طريق ممثلي بريطانيا للحكومة التركية، ولكن هذه لم تقابل تلك المحاولات كلها إلا بالإرجاء والمراوغة، وهكذا صدرت التعليمات لسفير صاحبة الجلالة في القسطنطينية بأن يتخذ من الإجراءات ما يجعل الحكومة التركية تسمح بتدخل بريطاني يهدف أساساً لوقف القرصنة على مدي ثلاثة أميال شمالي "العديد"، وكذلك كان من المقرر التعاون مع الحكومة التركية لفرض هيبة هذه الحكومة نفسها في مياهها، ودامت المفاوضات على هذا الأساس في القسطنطينية معظم سنة ١٨٨٠، لكنها لم تؤدِ إلى نتيجة تذكر.

ولما فشلت كل السبل المؤدية إلى تسوية هذه المشكلة تسوية ودية قررت حكومة صاحبة الجلالة أخيراً سنة ١٨٨١م ألا يتقيد ضباط البحرية البريطانية في الهند الشرقية بمسافة الأميال الثلاثة في مطاردة سفن وقوارب القرصنة في المياه التركية، وبعدها شرح وزير الدولة لشتون الهند الأمر لحكومة الهند فأشار إلى أن الهدف من ذلك أشمل مما يبدو في الظاهر، فهو يعني في الحقيقة أن لقادة السفن البريطانية في الخليج حرية العمل وقت الضرورة لمنع الاضطراب في البحر أو توقيع العقاب على مرتكبيه، على أن يتجنبوا - بطبيعة الحال - إثارة مشاكل لا داعي لها مع الحكومة أو السلطات التركية حيث لها وجود، وأن يتجنبوا أيضاً المساس بسيادة السلطان في المناطق التي يتمتع فيها بسيطرة فعلية على طول الساحل شمالي العديد. ولم ينتج عن المفاوضات والمحاادثات التي دارت من قبل - وأشرنا إليها - أي تحديد دقيق لأماكن تركيا في شرق جزيرة العرب، والواقع قد تجنبت السلطات البريطانية إثارة هذه المشكلة مع تركيا. فقد كان من المعروف أن مزاعمها في هذا الصدد مبالغ فيها وتشمل البحرين أو على أي مكان شرقي خور العديد على إطلاق، إلا أن حكومة صاحبة الجلالة تجنبت الوصول إلى قرار بهذا الشأن.

عمل السلطات البريطانية حيال قرصنة أحمد بن سلمان ١٩٠٥-١٩٠٧:

وفي يونيو ويوليو ١٩٠٥ خرج الكابتن ف.ب. بريدو الوكيل السياسي في البحرين في رحلتين شراعتين كل منهما أربعة أيام للبحث عن أحمد بن سلمان صحبه حوالي ٥٠ رجلاً مسلحاً من رجال شيخ البحرين لكنه لم يستطع اكتشاف مخبأ القرصان. لكن كابتن بريدو عثر على عبد هارب من عبيد أحمد شهد بعينه عملية القرصنة الثانية التي ارتكبتها سيده، وقد أرسل إلى القطيف ليُدلى بشهادته أمام السلطات التركية. ويبدو أن القائم قام التركي هناك ألقى بالشاهد في السجن لكنه أيضاً ألقى القبض على أربعة رجال من أنصار أحمد، وردت العصابة على هذا العمل بقرصنة ثلاثة ارتكبت في يوليو.

وفي سبتمبر قام كابتن بريدو بزيارة القطيف حيث التقى بالقائم مقام الجديد الذي وصل مؤخراً لقاء ودياً كانت نتيجته إطلاق سراح العبد الذي كان شاهداً، ثم أعتق فيما بعد، وفي صيف سنة ١٩٠٦ حين عاد أحمد بن سلمان إلى الظهور ظل قارب بريطاني مسلح موجوداً في البحرين أو على شواطئ اللؤلؤ طوال موسم الغوص. وفي أغسطس زار هذا القرصان الدوحة، ورغم أن زيارة هذه تمت خلسة فيما يبدو فقد طلبت السلطات البريطانية تفسيراً لزيارته من الشيخ جاسم. ولم يتخذ أي إجراء آخر.

:١٩٠٧

وفي يونيو ١٩٠٧ وبعد ما أشيع من أن أحمد علي وشك أن يعاود أعمال القرصنة قامت سفينة صاحبة الجلالة "لابونج" بزيارة القطيف لكي يناقش قائدها هذا الأمر في لقاء ودي مع القائم مقام، إلا أن الأخير رفض الاجتماع وقوبل الضابط البريطاني ورفاقه بمعاملة بلغت من السوء ما جعل حكومة صاحبة الجلالة تتقدم باحتجاجات على ذلك إلى الباب العالي.

علاقة بريطانيا بالأحساء ١٨٧١-١٩٠٧

العلاقات العامة والسياسية:

نبدأ الآن عن علاقات بريطانيا بالأحساء وكان معظم هذه العلاقات متعلقاً بعمليات القرصنة مما أشرنا إليه فيما سبق أو بأمور البحريين وسنشير إليه فيما بعد ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنه في سنة ١٨٨٤م كانت السفينة "مبارك" وهي سفينة تاجر هندي في البحريين راسية في ميناء القطيف فأرغمتها السلطات التركية على أن تنقل جنوداً من القطيف إلى العقير. وحين رفع ممثلو بريطانيا الأمر إلى الباب العالي، دفع التعويض عن هذا العمل وقد قدر بمبلغ ٥٠ روبية.

العلاقات التجارية :

وقد سبق أن أشرنا إلى وجود جالية هندية كانت تعمل في التجارة بالقطيف قبل أن يحتلها الأتراك، وسنواصل الآن متابعة هذه الجالية بين عامي ١٨٧١ - ١٨٩٠م.

وباحتلال الأتراك الفعلي للأحساء وإقامة دور للجمارك والعوائد انتهت الفترة الذهبية للتجارة الخارجية وإن ظلت حالة الجالية الهندية المشتغلة بالتجارة على حالها من الازدهار عدة سنوات تالية. وقد قدر حجم التجارة بين أيدي هؤلاء التجار - حين كانوا في قمة رخائهم - بما لا يقل عن ١٥ آلاف من الروبيات كل سنة. وفي المواسم التي تزامن العمل كان يضاف إليهم حوالي ٦٠ تاجرًا هندوكياً أيضاً تصحب سبعة منهم عائلاتهم في القطيف.

وحوالي سنة ١٨٨٠ بذل هانجام رام تيكام داس وشركاه - وهو أحد كبار التجار الهنود في البحريين - جهوداً كبيرة لتحسين حال الجالية بأن أقام وكالة قوية تكون مسئولة عن تجارة الهنود في القطيف، وتبعته في ذلك وكالة هندية أخرى.

: ١٨٩٧ - ١٨٩٠

وأخيراً بدأت تجارة الهنود في الانهيار بسبب تعسف جامعي الضرائب والعقبات التي يقيمها أمامهم المسئولون في الميناء بايعاز من التجار المحليين ولمصلحتهم. وكانت البضائع المصدرة إلى الهند خاضعة لضريبة قدرها ١٪ فقط لكن الضريبة التي كانت

تجمع بالفعل كانت تصل إلى ٨٪ وكان المفروض أن ترد نسبة الـ ٧٪ عندما يثبت وصول هذه البضائع إلى الهند لكن محصلي الضرائب نادراً ما كانوا يفعلون ذلك، وقد قدرت الضرائب الزائدة التي حصلت من التجار الهنود في ثلاثة المواسم المنتهية سنة ١٨٩٤م بمبلغ يتجاوز ١٩,٥٠٠ روبية، بلغ ما تمت استعادته منها - بعد طلب ممثلي بريطانيا من الباب العالي - مبلغ ٥٠١٢ روبية فقط. وكانت المضايقات الأخرى التي يشكو منها التجار الهنود تتمثل في التأخير المتعمد لوزن بضاعتهم أو حجز سفنهم مدداً طويلة دون مبرر في الحجر الصحي، وكذلك في الأوامر التي كانت تجعل من المتعذر عليهم الحصول على دواب يستخدمونها في نقل بضاعتهم، وفي تقصير السلطات التركية في تقديم العون لهم لاسترجاع ديونهم. وزادت الاضطرابات السياسية ومظاهر الخروج على القانون من صعوبات الموقف، وبعد الهجوم العنيف الذي شن في سنة ١٨٩٥م على بيت أحد أصحاب وكالة السادة جانجارام تيكام داس وشركاه، انسحب التجار الهنود تدريجياً من القطيف كلها، وأصبح عملهم خلال سنة ١٨٩٧ هو نصف وربما ثلث ما كان عليه. وما بقي من العمل كان يسير سيراً سيئاً عن طريق وكلاء مسلمين من أهل البلاد.

١٩٠١-١٩٠٣م:

وحاول تجار الهند البريطانية في البحرين، بما عهد عنهم من إصرار، تعزيز مركزهم في القطيف، فعرضوا، في سنة ١٩٠١ أن يسهموا بدفع مبلغ ١٢٠٠ روبية في كل سنة - لمدة خمس سنوات - في مقابل تعيين وكيل قنصلي بريطانيا في القطيف. وفي نوفمبر سنة ١٩٠٣م وبمناسبة زيارة لورد كيرزون للبحرين - جددوا طلبهم بإيجادهم حماية قنصلية في الأحساء، وعرضوا أن يساهموا في نفقاتها بمبلغ ٢٠٠٠ روبية في كل سنة.

وكانت ضرورة القيام بعمل إيجابي ضرورة ملحة، ما دام المبلغ الذي جمع دون وجه حق من تجار الهند البريطانية قد وصل في سنة ١٩٠٣ فقط إلى أكثر من ٢٥ ألف روبية. وقد تم لفت نظر الباب العالي إلى هذه الإجراءات عن طريق ممثلي بريطانيا العظمى، وتم الحصول على وعد من والي البصرة بتصحيح هذا الوضع وبرد المبالغ التي سبق تحصيلها دون حق. ونتيجة هذا الوعد، تم التخلي عن المشروع المقترح وهو الحصول على اعتراف بالوكيل السياسي في البحرين كوكيل قنصلي للأحساء أيضاً، تم تعيين وكيل أهلي تابع له في القطيف.

علاقات الأحساء الخارجية بدول أخرى غير بريطانيا العظمى ١٨٧١-١٩٠٧م

ظلت العلاقة الوثيقة بين الأحساء والبحرين بسبب اعتماد هذا الإقليم تجارياً على إمارة البحرين مستمرة بحكم الضرورة في ظل الحكم التركي. وكانت هذه الإمارة هي التي

تتأثر بإعمال القراصنة على الساحل التركي مما وصفناها سابقاً ، وكانت الأحساء هي القاعدة - كما شرحنا ذلك في تاريخ البحرين - التي تود تركيا أن تتطلق منها لتأكيد سيطرتها على جزر البحرين.

مذبحة شيوخ البحرين وأتصارهم في الأحساء وعمل السلطات البريطانية حيال ذلك

١٩٠٠ - ١٩٠٤م:

وقد وقعت حادثة مؤسفة - لا تتصل بأي من هذه المشاكل - لكننا لا نستطيع إهمالها ، ففي نهاية سنة ١٩٠٠م خرج سلمان بن دعيج ابن عم عيسى بن علي شيخ البحرين للصيد بالصقور على شاطئ الظهران في الأحساء ، وكان بصحبته أبناء دعيج وبشير وابن شقيق له اسمه عبد الرحمن ابن راشد ، وتبع الشيوخ ٢٠ خادماً وأربعة أدلاء: أحدهم من آل مره ، والثاني من عجمان والباقيان من بني هاجر. وفي الصباح الباكر ليوم ٣ ديسمبر هوجم مخيم الشيوخ إلى جوار بئر ابن عقدان على مسافة خمسة أميال من دوحة عين السيح.. هاجمته عصابة مكونة من حوالي خمسين رجلاً من بدو آل مرة التابعين لآل بحيح يقودهم راشد بن مقارح شيخ فرع آل بحيح الذي قُتل ابن من أبنائه في العام السابق في عراق نشب مع العمارة رعايا شيخ البحرين. ولم ينج من هذه الجماعة كلها سوى بشير ابن الشيخ سلمان واثنين من رجال القبائل استطاعوا النجاة من الموت ، وفروا جرحى. كما قتل أيضاً رجل من دواسر البحرين كان في خيمة الشيخ سلمان وقت حدوث هذه المباغثة فشاركه المصير. ومن الجانب الآخر قتل القائد راشد وابن من أبنائه كما جرح واحد أو أكثر من رجال القبائل. وحمل آل بحيح معهم فيما حملوا ثلاثين بعيراً وعشرين بندقية. وكان يبدو أن هدفهم هو النهب لا الانتقام ، وكان مسلكهم هذا منافياً لكل التقاليد العربية. وقد قام محمد بن عبد الوهاب من القطيف بالسفر إلى مكان الحادثة خصيصاً للقيام بدفن جثث الشيخ سلمان ورفاقه.

وقام القنصل البريطاني في البصرة بإبلاغ النبا مباشرة إلى والي البصرة وكان من المتوقع أن تبادر السلطات التركية لتقديم التعويض العاجل ويبدو أن هذه السلطات في البداية كانت تقلل من شأن الانتقام من آل بحيح ، وكانت أيضاً تخشى الإجراءات الانتقامية التي قد يقوم بها شيخ البحرين ضد هذه القبيلة. والحقيقة إن خطاباتهم لشيخ البحرين كشفت عن استعدادهم لقبول قيام الشيخ بالانتقام منهم ، لكن السلطات بمجرد أن عرفت قدرة هذه القبيلة على الإفلات والمراوغة ، وعرفت أيضاً أن السلطات البريطانية ستحول بين شيخ البحرين والقيام بعمل انتقامي مفاجي هدأت حماسها وأصبحت تنظر للقضية ببرود واضح.

وقد تأخرت حكومة صاحبة الجلالة في تقديم مطالبها واحتجاجاتها الشديدة إلى الباب العالي بسبب شكها فيما إذا كانت سلطة تركيا تمتد جنوباً حتى مكان وقوع الحادثة، لكنها أخيراً - في أغسطس سنة ١٩٠١م قدمتها على أساس أن آل بحيج يقيمون في أرض تابعة لتركيا، وقبل أن تقع الكارثة التي وقعت للأتراك كما ذكرنا سابقاً في القطيف بالقرب من العقير في إبريل ١٩٠٢م كانت الحكومة التركية قد خضعت لطلب بريطانيا فيما يتعلق بمذبحة الظهران حتى إنها أرسلت أوامر صريحة مشددة إلى مسئوليتها المحليين لإلقاء القبض على القتلة وعقابهم. وبما أن آل بحيج قاموا أيضاً بدور بارز في مذبحة الأتراك في القطيف فقد زاد هؤلاء بمبرر جديد للعمل. وزاد احتمال نجاح المفاوضات المتعلقة بقضية شيخ البحرين خاصة بعد انتصار القوات العثمانية على آل مرة في سبتمبر سنة ١٩٠٢.

وفي نفس الوقت طلبت حكومة الهند من شيخ البحرين أن يحدد التعويض الذي يرى أنه يستحقه. وأجاب الشيخ بأن قتل ثلاثة من أقربائه لا بد أن يقابل بتسليم ثلاثة في مقابلهم ودون قيد أو شروط آل بحيج. وبالنسبة للدية فإنه يستحق مبلغ ٢٣,٥٢٠ روبية عن العشرين تابعاً والضيف الدوسري. أما قيمة الممتلكات التي نهبوها فتصل إلى ١١,٦٢٠ روبية. وقد اعترض الأتراك على هذه المطالب، من حيث نوعها وكمها كذلك، ومن المحتمل أن نجاحهم وانتصاراتهم على تلك القبيلة كان لا يكاد يكفي لتغطية تعويضاتهم هم عن كارثة القفطية. وفي الداخل، تقدم آل بحيج - عن طريق الثاني شيوخ الدوحة في قطر - بطلب لشيخ البحرين لتسوية الأمور ودية. وسمحت السلطات البريطانية للشيخ بإجابتهم إلى مطالبهم، غير أن آل بحيج تراجعوا أخيراً، ولم تبدأ المفاوضات المنتظرة.

وفي سنة ١٩٠٣م حين لم تكن أية خطوات اتخذت من جانب السلطات التركية لتعويض شيخ البحرين عن هذه الكارثة استمرت المفاوضات دائرة حولها بين الحكومة البريطانية والباب العالي، وثبت كذب ادعاء السلطات التركية بأن هؤلاء القتلة قد لقوا حتفهم في الاشتباكات التالية مع القوات التركية. وسرعان ما وضح أن الباب العالي لا يود ولا يستطيع أن يقوم بأي عمل بهذا الصدد، وقررت حكومة صاحبة الجلالة الترخيص لشيخ البحرين بالتأثر من آل بحيج على ألا يقوم بعمله هذا في إقليم تابع لتركيا. وأبلغ هذا القرار للباب العالي في أكتوبر سنة ١٩٠٤م، لكن الترخيص سحب من الشيخ نظراً لسوء تصرفه في بعض الأمور الوارد تفصيلها في تاريخ البحرين.

وفي فبراير ١٩٠٥م حدث اعتداء جديد على رعايا البحرين من جانب قبيلة آل بحيج في

دوحة حويقليل في بر القارة، وكان الضحايا في هذه المرة هم بحارة سفينتين صغيرتين تابعتين للحد في جزيرة المحرق نزلوا إلى البر لجمع بعض الأخشاب فهاجمهم عصابة من ٢٥ بدويًا، وجرح عبد كان مملوكًا لهم. وفي ١٩٠٧ يبدو أن آل بحيح كانوا يعتبرون أنفسهم بسبب منع الشيخ لهم من الدخول إلى البحرين على عدا دموي لكل أهل هذه الجزر من العرب.

بريطانيا وإستراتيجية مدحت باشا في الخليج

في إطار التنافس العثماني البريطاني

رأينا اهتمام بريطانيا بالخليج وإماراته العربية منذ القرن السابع عشر بعد تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠م، ومن الهند باشرت السلطات البريطانية هناك نشاطا تجاريا عبر مياه الخليج العربي إلى البصرة في العراق من الفرات إلى الشام ثم البحر المتوسط إلى أوروبا، وكان البريطانيون يحرصون على عدم منافسة أية قوة أخرى لانفرادها بالنشاط في الخليج، وقد رأينا أنها تحالفت مع عرب الخليج ومع فارس في تخليص إمارات الخليج العربية، ومياه الخليج من الوجود البرتغالي في القرن الثامن عشر، ثم الوجود الهولندي، ومتابعة المحاولات الفرنسية من أواخر القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر للوجود في منطقة الخليج، بحيث شهدت بدايات القرن التاسع عشر انفرادًا بريطانيًا بالنفوذ في إمارات ومياه الخليج العربي.

ولكن تطلع العثمانيين إلى الوجود في منطقة الخليج العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد أثار استياء البريطانيين واستكراههم للمحاولات العثمانية التي نفذها مدحت باشا امتدادًا من العراق، وهو الكاره لكل نفوذ أوروبي ومعاد للوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي وفرض معاهدات تكبل أمراء وشيوخ الإمارات العربية الخليجية، ومن ثم فإنه رغم محاولات مدحت باشا للتحرك نحو الأحساء بسرية كبيرة فإن البريطانيين الذين علموا من الأمير سعود بن فيصل آل سعود بتحركات القوات العثمانية في المنطقة أخذوا في اتخاذ مواقف ضد هذه التحركات.

ويرجع تخوف بريطانيا وقلقها من التحركات العثمانية في منطقة الخليج العربي إلى الأسباب الآتية:

(١) خشية البريطانيون من السيطرة العثمانية الكاملة على شبه الجزيرة العربية وخاصة سواحلها الشرقية المطللة على الخليج العربي والجنوبية المطللة على البحر العربي والمحيط الهندي، والسواحل الغربية المطللة على البحر الأحمر في الوقت الذي

احتلت فيه بريطانيا ميناء عدن اليمني عام ١٨٢٩م.

(٢) الخشية من فارس لأن تبقي لها في مياه الخليج أسطول كبير لتحقيق ادعائها في البحرين مما يهدد انفراد النفوذ البريطاني في منطقة الخليج.

(٣) خوف بريطانيا من قيام الدولة العثمانية بعد سيطرتها على ساحل الخليج العربي بإماراته العربية بالمحاولة لمد سيطرتها على ساحل الخليج العربي الفارسي بحكم العداة القديم منذ عام ١٥٠٠م عند قيام الدولة الصفوية الشيعية المذهب وصراعها مع الدولة العثمانية حول العراق، ومحاولة نشر المذهب الشيعي في منطقة الخليج العربي.

(٤) خوف بريطانيا من سيطرة العثمانيين على إمارات الخليج العربي والأحساء والقضاء على قوة الأمير سعود بن فيصل آل سعود سيوطد النفوذ العثماني في المنطقة ولن تستطيع بريطانيا التي تسعى للسيطرة على الخليج بدون منافسة، مع السيادة العثمانية على منطقة الخليج العربي^(١).

(٥) أدت حملة الأحساء إلى قيام صراع بريطاني عثماني في منطقة الخليج العربي مما ساعد على زيادة الاضطراب في المنطقة، إذ أن بريطانيا كانت تشجع القبائل وكانت تمنحها الهبات والأموال للقيام بالثورات ضد العثمانيين. فوقفت بريطانيا أمام محاولات مدحت باشا إرسال سفينتين إلى جزر البحرين وإقامة مخازن للفحم هناك، مما دفع بالحكومة العثمانية إلى توقف مدحت باشا عن الدخول في صراع مع البريطانيين بالنسبة للبحرين التي تعبرها بريطانيا مشمولة بحمايتها.

(٦) وصلت أول إشارة إلى مسامح حكومة الهند البريطانية عن نية الدولة العثمانية إعداد حملة الأحساء أوائل عام ١٨٧١م، وفي شهر فبراير من نفس العام صدرت الأوامر للكولونيل هيربرت القنصل البريطاني في بغداد بالتحري عن الأمر وقد كتب هيربرت في أواخر شهر مارس تقريراً للحكومة البريطانية بأن حملة عثمانية سيتم إرسالها عن طريق البحر من العراق إلى القطيف للوقوف إلى جانب الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود في وسط الجزيرة العربية، كما ذكر أن نية العثمانيين تتجه إلى مد السيادة العثمانية إلى البحرين ومسقط والقبائل العربية المجاورة في جنوب الجزيرة العربية^(٢).

(٧) تقدمت الحكومة البريطانية باستفسار إلى الحكومة العثمانية عن صحة أخبار

(١) د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق صفحة ١٩٠.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦م، الكويت ١٩٧٥ صفحة ١٢٨.

إعداد حملة عسكرية لضم الأحساء ومناطق أخرى في الخليج والجزيرة العربية إلى السيادة العثمانية، وجاء الرد العثماني بأن الباب العالي لديه نوايا توسعية، وأن هدف الحملة هو تحقيق الأمن والاستقرار في نجد.

(٨) لجأت بريطانيا منذ بداية اهتمامها بالخليج العربي بالألا تكون لها سياسة معلنة واضحة تجاه أقطار الخليج العربي بحكم وجودها غير الشرعي في المنطقة وخشية من إعلانها روابط لسياسة معينة تجاه الخليج العربي قد تؤدي إلى إثارة قوى أخرى تربطها بالخليج بروابط اتفاقية أو تجارية كبلاد فارس وغيرها، ومن ثم تسعي تلك الدول إلى إبعادها عن المنطقة، ولذلك لجأت بريطانيا إلى التعامل مع كافة الأطراف في منطقة الخليج العربي حسب اتجاهات سياسية متغيرة تتمشي مع مصالحها السياسية والاقتصادية^(١).

وهذا اتضح من موقفها من إستراتيجية الدولة العثمانية التي تعهد بتفويضها مدحت باشا، تلك الإستراتيجية الساعية لفرض السيادة العثمانية على منطقة الخليج والجزيرة العربية، حيث أن بريطانيا تابعت من بداية تحركات حملة مدحت باشا إلى الأحساء وهي في طور الإعداد بالعراق، وساعدت الأمير سعود بن فيصل آل سعود في رفضه للوجود العثماني، ودافعت عن البحرين أمام الرغبة العثمانية في ضم البحرين للسيادة العثمانية، وأظهرت استياءها من نزول قوات عثمانية إلى شبه جزيرة قطر، وحرصت على ألا يمتد الوجود العثماني أبعد من شبه جزيرة قطر^(٢).

(٩) جاء الاتجاه إلى إعادة النظر في السياسة البريطانية في الخليج نحو التبلور منذ بعض الوقت في أوساط المسؤولين من مكتب شئون الهند البريطاني، وذلك ردًا على التحركات العثمانية لمحاولة تحجيم التوسع البريطاني الذي وجد في الخلافات الداخلية في المنطقة، في تلك الفترة فرصة لفرض السيطرة السياسية على بقية أجزاء المنطقة، الأمر الذي أظهر العثمانيين كقوة مناوئة للسياسة البريطانية في منطقة الخليج العربي، ومن ثم ركزت سلطات الهند البريطانية على أن تجعل سفنها في أبحار دائم في الخليج، وقد تبني ذلك وزير الهند منذ أغسطس عام ١٨٦٩م، وهو عام أفتتاح الملاحة العالمية في قناة السويس^(٣).

(١) د. عبد العزيز عبد الفني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، الرياض ١٩٨٢ صفحة ٣٢.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ١٣٩.

(٣) جون كيلى: بريطانيا والخليج، عمان - مسقط ١٩٧٩م صفحة ٤٨٤. ولوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي ج ٢ - الدوحة صفحة ١٣٩٧.

(١٠) استقدمت حكومة الهند البريطانية عدة بوارج حربية إلى الخليج للدفاع عن نفوذها، ومنحت الكولونيل "بيللي Belly" المقيم السياسي البريطاني في الخليج سلطات واسعة للتصدي للتحرك العثماني بحجة العمل على إقرار الأمن في مصائد اللؤلؤ، تم أخذت بريطانيا تتقرب من شيوخ الإمارات العربية وتحثهم على عدم التعاون مع العثمانيين الذين كانوا جادين في تسيير حملتهم العسكرية إلى الأحساء، كما أقدمت بريطانيا إلى ما هو أبعد من التحريض، حيث أخذت تحدد الحدود بين المشايخ العربية على الخليج ولصالحها فقط^(١).

(١١) أسفر الصراع العثماني البريطاني في منطقة الخليج العربي عن وجود عثماني في المنطقة، اسمى على الأقل في بعض المناطق، وفعلى في بعض المناطق الأخرى، وفي بعض الأحيان، لكن لا يمكن تفسير عدم استقرار الوجود العثماني بوجود معارضة من بعض الزعماء المحليين فقط، وإنما كانت الأطماع الأوروبية وبخاصة البريطانية متجهة إلى منطقة الخليج، مما جعل الوجود العثماني في المنطقة في حالة مد وجزر حسب تعاون الزعماء المحليين مع الإدارة العثمانية.

(١٢) كانت بريطانيا تخسر منطقة ثم تصل إليها يدها من جديد وتعيدها مرة أخرى، وأحياناً يتقلص الوجود البريطاني في بعض المناطق لتخضع للسيطرة العثمانية، وكثيراً ما كان ذلك يحدث بمساعدة الزعماء المحليين، وكل تلك الظروف جعلت بريطانيا والدولة العثمانية تميلان إلى المصالحة غير المعلنة، والاتفاق الذي يتمشي مع المصالح السياسية لكلا الطرفين. وقد دارت المراسلات بذلك الشأن بين الدولتين حتى عقدت اتفاقية عام ١٩١٣م بينهما لتقسيم مناطق النفوذ في منطقة الخليج العربي^(٢).

تقارير عثمانية عن علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية ١٨٧١-١٩٠٧م

مقدمة:

يتناول هذا البحث أساساً عرض التقارير والمراسلات التي بعثها القنصل العثماني الفخري في لنجه المدعو محمد بن عبد الله الخاجه، في الفترة من ١٣١٦ - ١٣٢٥هـ / ١٨٩٨ - ١٩٠٧م مع تقارير أخرى رفعت إلى الدولة العثمانية قبل ذلك. منها: الخطاب الذي بعث به ثلاث

(١) عبد العزيز الشميل: الوجود العثماني في منطقة الخليج الأحساء ١٨٧١ - ١٩١٤م، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، كلية الآداب جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م صفحة ٧٣ - ٧٧.

(٢) نفس المرجع، صفحة ٨٠ - ٨١.

وعشرون شخصاً من أهالي بندر بوشهر إلى مدحت باشا؛ لفتح قنصلية عثمانية فيه، وخطاب مماثل قدم باسم ثلاثة عشر شخصاً من أهالي المنطقة إلى القنصل العثماني في مومباي. وتكمن أهمية هذه التقارير التي وقعها محمد بن عبد الله في لفت انتباه الدولة العثمانية إلى سياسات الإنجليز في المنطقة من جهة، وما مارسته السلطات القاجارية (الحاكمة آنذاك) في إيران من ضغوط على أهالي تلك البنادر من العرب من جهة ثانية، وكيفية استعادة الدولة العثمانية لمكانتها في المنطقة من خلال استمالة شيوخ الإمارات من جهة ثالثة. ومما يجدر ذكره هنا أنه بعد افتتاح القنصلية العثمانية في لنجه بزمن، تعرض علم الدولة العثمانية لعمل استهزائي من بعض الأشخاص مما أدى إلى قيام الحكومة الإيرانية بترضية الدولة العثمانية والاعتذار لها عن ذلك، كما جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في (١٣ شعبان ١٢٢٧هـ / ٣٠ أغسطس ١٩٠٩م) ^(١).

الوثائق العثمانية المتعلقة بالخليج العربي

دخل العثمانيون إلى مسرح الأحداث في الخليج العربي حوالي منتصف القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مما جعل للمصادر التاريخية العثمانية أهمية بالغة. فإضافة إلى الكتب التاريخية المؤلفة باللغة العثمانية، فهناك عشرات الآلاف من الوثائق المهمة المتعلقة بتاريخ الخليج والجزيرة العربية وقبائلها وحواضرها في الأرشييف العثماني، مفتوحة للباحثين ممن يود دراسة تاريخ المنطقة والاطلاع عليها، والاستفادة منها في كشف النقاب عن كثير من الأحداث التاريخية للمنطقة والتي لا تتحدث عنها المصادر الأخرى. وهذا الأمر ليس للتقليل من شأن المصادر الأخرى المؤلفة بلغات عربية وأجنبية؛ وإنما لكون الوثائق العثمانية تورد تفصيلاً للأحداث وكشفاً للغموض وتوضيحاً للكثير من المسائل التاريخية عن تلك الحقبة التي تمتد أربعين سنة على وجه التقريب.

ومن الطبيعي أن يكون هناك تفاوت بين بعض مناطق الخليج من حيث تعلقها بالدولة العثمانية، وبالتالي فإن الوثائق الخاصة بالمناطق المرتبطة بالحكم العثماني بشكل، أكثر من وثائق المناطق الأخرى التي لم ترتبط بذلك الحكم. ومع ذلك فلا يخلو الأرشييف العثماني من وثائق تتعلق بمناطق الخليج كافة. وذلك بحكم الجوار والعلاقات الثنائية من جهة، والأحداث التي ارتبطت بالقوى الموجودة في الخليج، سواء أكانت إدارية محلية لم ترتبط بالحكم العثماني، أو تلك التي تعلقت بذلك الحكم من جهة أخرى.

(١) د. سهيل صابان: علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال بعض التقارير العثمانية (١٢٨٨-١٢٢٥هـ/١٨٧١-١٩٠٧م).

ومهما يكن من أمر فإن وثائق الخليج الموجودة بالأرشيف العثماني - سواء أكانت تقارير أو مراسلات إدارية - تكشف النقاب عن أمور غير واردة في المدونات التاريخية، ولاسيما تلك الموضوعات المتعلقة بالوجود العثماني في المنطقة.

فتح قنصلية عثمانية في بوشهر

تبين من الخطاب^(١) الذي رفعه أهالي بندر بوشهر في (٢٦ ربيع الأول ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م) إلى والي بغداد مدحت باشا والذي حمل أسماء وأختام ثلاثة وعشرين شخصاً^(٢) أن السبب الأساسي الداعي لفتح القنصلية العثمانية في هذا البندر هو: تغير معاملة السلطان الإيرانية عن السابق لأهالي الكويت والبصرة القاطنين في بندر بوشهر والمترددتين إليه؛ لأجل التجارة، وعدم الاستجابة لطلباتهم، وعدم تمكينهم من تحصيل حقوقهم، ووقوع التعدي عليهم وعلى إمام مسجد أهل السنة والجماعة الشيخ عبد الله بن إبراهيم، حتى تكون هذه القنصلية العثمانية ترعى شؤونهم على غرار القنصلية الإنجليزية والقنصلية الهولندية الموجودتين في هذا البندر. فوجور قنصلية عثمانية فيه، تدافع عن حقوقهم وترفع المظالم عنهم، وتخاطب السلطات الإيرانية بمشكلاتهم سوف يكون له أكبر الأثر في التخفيف من المعاناة التي يعانون منها مع السلطات الإيرانية^(٣).

وقد بين الخطاب الذي رفعه مدحت باشا إلى نظارة الخارجية في (١٧ ربيع الآخر ١٢٨٨هـ / ٥ تموز ١٨٧١م) - عطفًا على أهالي بندر بوشهر السابق - أهمية هذا البندر بكونه متميزاً في الحركة التجارية النشطة، وأن مجموعة كبيرة من تجار الكويت والبصرة والأحساء والقطيف يقصدونه، وأن القنصلية الهولندية تقوم بمتابعة بعض المعاملات الخاصة لرعايا الدولة العليا، غير أن ذلك غير كاف في الحد من معاناتهم. وأضاف مدحت باشا على كل ذلك تعرض أهالي البندر العرب السنة، وهم أكثر من غيرهم من حيث الاعتقاد المذهبي، بتغيير مذاهبهم من لدن السلطات القاجارية. وذكر في نهاية الخطاب أن ميزانية ولاية بغداد قادرة على تحمل مصروفات فتح القنصلية ورواتب موظفيها، وهي تبلغ شهرياً خمسة

(١) أنظر نص الخطاب العربي الذي صورته الباحث من الأرشيف العثماني في نهاية هذا البحث.

(٢) وهم: إمام الجامع عبد الله بن إبراهيم، والسيد عبد الرحيم صادق، وعبد الوهاب إبراهيم، وعبد السلام بن عبد الوهاب إبراهيم، وإبراهيم بن أحمد بوشهاب، وعبد اللطيف بن أحمد الدوسري، وموسي بن أيوب الميمني، وسالمين أبي معراج (معراج)، وإبراهيم بن إسماعيل، وعلي بن محمد إسماعيل، وإسماعيل بن محمد إسماعيل، وإبراهيم بن أحمد ثامر، وجاسم بن زيد، وإبراهيم بن علي عيدان، ومحمد بن خميس، وخميس بن خليفة، ومحمد إسماعيل، وجمال بن علي، وهاشم بن داود، وسليمان بن عيسى الميمني، وجمعة بن خلف، وحسين بن يوسف، وإبراهيم بن علي عيدان. الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

آلاف قروش، إشارة منه للباب العالي باستعداده لفتح القنصلية المذكورة إذا وافقت عليه. وقد استجاب الباب العالي لذلك وعلى تعيين أحمد أفندي قنصلاً للدولة العثمانية في بندر بوشهر في (٢١ رجب ١٢٨٨ هـ / ٥ أكتوبر ١٨٧١م)^(١).

خطاب القنصل العثماني في مومباي

ومن خطابات المهمة التي تبين مدى أهمية السواحل الشرقية للخليج العربي للدولة العثمانية، الخطاب الذي بعث به القنصل العثماني في بندر بومباي حسين حسيب إلى نظارة الخارجية العثمانية في (٢٣ ربيع الأول ١٢٩٤ هـ / ٧ إبريل ١٨٧٧م)، بدءاً من لفتحه وحتى شيراز ولا سيما أهالي بندر عباس وبندر بوشهر، من أهل السنة والجماعة، وأنهم مرتبطون بالخلافة الإسلامية ارتباطاً معنوياً، وأن اسم الخليفة تقرأ في الخطب، وأن دعوات الخير تتلي على المنابر، لنصرة الجيش العثماني في حربه ضد روسيا، وأنه على الرغم من محاولة السلطات الإيرانية رفع السلطان من الخطب إلا أن الأهالي لن يسمعوا لها، وأن بعض الأهالي قدموا مساعدات مالية للقنصلية العثمانية في بندر بوشهر، مشيراً إلى أن التجار القادمين إلى بومباي من أهالي تلك البنادر قد أكدوا أنه في حال قيام الحرب بين الدولة العثمانية وإيران فإن أكثر من مائة ألف متطوع من أهل السنة والجماعة من أهالي تلك السواحل، جاهزون للحرب في صفوف العثمانيين ضد إيران. وقد ذكر القنصل حسين حسيب أنه أرفق خطاباً مقديماً من ثلاثة عشر شخصاً من أعيان الأهالي في تلك السواحل^(٢)، تضمن استعدادهم للحرب مع العثمانيين ضد الروس. إلا أن الأمر الصادر من الباب العالي ردّاً على

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

(٢) وقد ظهر الخطاب ضمن التصنيف المذكور. وعلى الرغم من أن أصله باللغة العربية إلا أننا لم نعثر إلا على ترجمته العثمانية. وترجمته إلى اللغة العربية على النحو الآتي: نحن شوافع على مذهب أهل السنة والجماعة. من أهالي بندر عباس وبندر لنجه وبندر علو (هكذا) وبندر محار (٩) وبندر كنگار (كنكان) وبندر ظاهر (ظاهري)، والواقع كلها في داخل خليج البصرة (الخليج العربي) تابعين لإيران. وعلى الرغم من أن عدد سكاننا يتراوح ما بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف، فإننا كلنا من أهل السنة وعلى المذهب الشافعي. وبمقدورنا تجهيز مائة ألف جندي. وعلى الرغم من الظلم الذي نتعرض له على يد السلطات الإيرانية، إلا أننا من القديم معترفين بسلاطين آل عثمان بأنهم أئمة المسلمين وخلفاء (الرسول) رب العالمين. وقد قال تعالى في محكم تنزيله المبين نستعذ بالله «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم». وبناء على ذلك فإن طاعة السلطان عبد الحميد الثاني - الذي هو سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين وحامي الدين المبين وهادم أساس المشركين - والانقياد لأمره واجب. كما أن الدعاء بالنصر للخلافة على الأعداء فرض علينا. وامتثالاً لهذا الأمر الإلهي، فإن علماء المنابر والعوام من الناس يدعون بطول العمر والنصر لجناب الخليفة، مواظبون على ذلك. ولا سيما في حرب الدولة العلية في وجه الروس المنحوسين أعداء الدين المبين. كما أننا مع سلاطين آل عثمان من القديم بـ اللهم انصر سلطان المسلمين. وعلى الرغم من أننا تابعين لإيران في الظاهر، إلا أننا مع سلاطين آل عثمان باطناً وقلباً، كما سبق بيانه. وبناء على معرفتنا بذلك فإننا مستعدون بالتضحية بالمال والجسم في خدمة الدولة العلية. وقد اجتمع لذلك الآن حوالي أربعة آلاف شخص، للحفاظ على حدود الدولة العلية. والمرجو من جنابكم إبلاغنا بكيفية التحرك. الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/274/16634

خطاب القنصل اشتمل فقط على تصدير خطاب من المشيخة الإسلامية لعلماء المنطقة بأن الدولة العثمانية تقدر ذلك التصرف منهم، وأنها راضية عنهم كل الرضى^(١)، دون اتخاذ خطوة أخرى في هذا الصدد حسب على الباحث.

تقارير القنصل العثماني الفخري في لنجة

عثر الباحث على عدة تقارير: خطابات وبرقيات، أرسلها القنصل العثماني الفخري في لنجة محمد بن عبد الله الخاجة، تبين مدي ارتباط الأهالي في السواحل الشرقية للخليج العربي بالخلافة العثمانية. وهذه التقارير باللغة العربية، ما عدا التقرير الأخير؛ حيث كان باللغة العثمانية. وقد تبين للباحث من خلال قراءته تلك التقارير أن ضعف صاحبها في اللغة العربية واضح. وعلى الرغم من ذلك الضعف اللغوي، إلا أن نشاط القنصل في إبلاغ الباب العالي بالتحركات الإنجليزية كان واضحًا. كما أن حسه الديني واهتمامه الوطني للنجة كانا ظاهرين في تلك التقارير.

وقد تبين من التقارير الثلاثة الأولى الآتية أنه كان تاجرًا من تجار لنجه، من خلال القيود الموجودة في أسفلها. إلا أن تقريره الرابع الذي صدر في عام (١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م) ومن خلال القيد الذي وضعه في أسفل التقرير بين أنه قنصل فخري للدولة العثمانية. وقد تكون هناك تقارير أخرى في الأرشيف العثماني، إلا أن الباحث لم يطلع على غير ما أدرجه في هذا البحث، على الرغم من متابعة الموضوع منذ عدة سنوات.

وسوف نورد أدناه تلك التقارير مرتبة بحسب تسلسلها التاريخي:

١- التقرير الأول: برقية بعثها محمد بن عبد الله بصفته أحد تجار لنجة ووكيل شركة خاصة، وذلك في ٧ تموز ٣١٤ (رومي / ٣٠ صفر ١٣١٦هـ / ٢٠ تموز ١٨٨٩م). وقد طلب فيها الباب العالي إرسال خطاب إلى الشيخ محمد بن خليفة وآخر إلى السفارة الإيرانية في اسطنبول، حتى لا يقع على أهالي لنجه، بسبب الصراع الدائر بين الطرفين، بعد استيلاء الشيخ محمد بن خليفة على لنجه. ونصها:

لحضور حضرة جناب الصدارة العظمى

في ١٤ صفر ٣١٦ (١هـ / تموز ١٨٩٨م) الشيخ محمد بن خليفة استولي على بلدة لنجه وضبطها دون ضرر لأحد من الأهالي والسرياز (السركال). وعموم الأهالي انقادوا له مع الشكر. ولا تدري إيش (ماذا) يقع بينه وبين الإيرانيين بعد هذا. فنسترحم تلفراف من دولتكم

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/274/16634

للشيخ المذكور، كي لا يقع ضرر على التبعية العثمانية الموجودين في لنجه . وتسليمهم
الأمنية (أي تأمينهم) على أنفسهم وأموالهم . وكذا تلغراف لسفارة إيران باستحصال أمر
لحكومة العجم (أي إيران) على المحافظة (على أرواح الأهالي في لنجة) فرمان.

٧ تموز ٣١٤ (ارومي / ٣٠ صفر ١٣١٦هـ / ١٩ تموز ١٨٩٨م)

أحد تجار لنجه ووكيل أجنته إدارة المخصوص

محمد بن عبد الله حاجا

٢- التقرير الثاني: برقية بعثها محمد بن عبد الله الخاجة ، علي غرار التقرير الأول، في ١٩
تموز ١٣١٤ (رومي / ٢ ربيع الأول ١٣١٦هـ / ٣٠ تموز ١٨٩٨م) . وقد طلب فيه من الباب
العالي للمرة الثانية الشروع في اتخاذ ما يوفر أمن أهالي بندر لنجة ، بسبب الصراع
بين الشيخ محمد بن خليفة والسلطات القاجارية في إيران ، في خضم الأحداث التي
شهدتها ، وممانعة القنصل الإنجليزي في توفير الأمن للأهالي . ونصها:

إن الاغتشاش (الاضطراب) الذي ظهر في بندر لنجه قبلاً عرضت لمقامكم السامي
والأهالي أمنهم منسلب ، وشدة من الاضطراب . وأتى مركب من دولة إيران ، وفيه دريا
بكي (أمير البحر) . والآن نتخاير مع الشيخ محمد بن الشيخ خليفة ودولة الإنجليز يكره
وترفض أن نرسل استمبوط (سمبوك: قارب حربي سريع) من أبو شهر ، لأجل محافظة تبعة
(رعايا) الدولة العلية العثمانية . والأمر لكم .

وكيل أجنته (شركة) إدارة المخصوصة بلنجه محمد^(١)

٣- التقرير الثالث وهو عبارة عن برقية مطولة بعثها محمد بن عبد الله الخاجة في
٦ أغسطس ١٣١٤ (رومي / ٣٠ ربيع الأول ١٣١٦هـ / ١٨ أغسطس ١٩٨٩م) إلى الصدر
الأعظم . وهذه البرقية أيضاً باللهجة العامية وليست بالعربية الفصحى . وقد شرح فيها
ملخص ما دار في لنجة بين الشيخ محمد بن خليفة وأمير البحر الفارسي . وبين فيها
أيضاً تضرر أهالي لنجة من ذلك الصراع وأن الإنجليز ساعدوا رعاياهم في الخروج
من لنجه ، بينما الأهالي لم يلتفت إليهم أحد . ومع ذلك فهم قد أخذوا معهم عزيز
أموالهم وتفرقوا في الأطراف : في عمان ودبي والشارقة ومسقط : تخليصاً بأرواحهم
وأموالهم من تلك الفتنة التي شهدتها لنجة . وقد ذكر فيها أيضاً بوجود ألف شخص
مسلحين في خدمة الشيخ محمد بن خليفة في لنجة وأطرافها ، جاهزين لخوض غمار

(١) الأرشيف العثماني ، تصنيف 722/51 HR.MTV.

الحرب إذا ما قامت السلطات الإيرانية بإعلان الحرب عليه. مشيراً في نهاية التقرير بضرورة تدخل الدولة العثمانية في ذلك الصراع ولا سيما أنه تحمل عنوان الخلافة الإسلامية التي يجب عليها الدفاع عن المسلمين أينما كانوا؛ حتى لا يخرب البندر بعد أن غادروه أهله، ولم يبق فيه سوى ثلاثمائة شخص. ويبدو أن الدولة العثمانية استجابت له، فعينته قنصلاً فخرياً، كما تتضح من التقرير الرابع.

ونص البرقية:

"إلي حضور حضرة الصدارة العظمى"

بعد استيلاء الشيخ محمد (بن خليفة) على لنجه بتاريخ ٣ ربيع الأول (قدم) من أبوشهر إلى لنجه برس بوليس غانبوط (غاليوط) الحضرة الشاهانية إيران (أي قدم قارب حربي لشاه إيران) دفعه حاجي أحمد خان دريا بكي (أمير البحر) وتوروده بواسطة معتبرين أهالي البلد صارم (صارت) المحاربة فيها بين دريا بكي والشيخ محمد علي أجلاه من القلعة. والمذكور الشيخ محمد جاوب دريا بكي (قائلاً) أنه أتى ليس عاصياً على الدولة، والقلعة هذه بيتي المسكني وحرم آبائي وأجدادي. والآن ما بقي في حالي شي. ولم أزل أنا وتوابعي على خطر. وفي وجل عظيم. فهذا الاضطرار (جعلني) أجزد دخول البلد. والآن قطعياً ما أنزل من القلعة. هذا حرم (حرام) وأنا في حماية الله تعالى ثم في حماية الدولة. وهذا بيراقها (علمها) منشور على رأسي. و(لماسمع) دريا بكي هذا الكلام من الشيخ وعدم نزوله من القلعة أو عده بمواعيد. وفي ٤ ربيع الأول من الشهر يوم الحد الفضل ورد غانبوط (غاليوط) دولة الإنجليز المسمى اسكبي بن أبو شهر. وأول نتيجة نتجت من قبل كل حركة ركز العودة (العود) على بيت وكيه، ونشر بيراق دولة الإنجليز. وقيل هكذا مع وجود وكلائهم من سالفه الزمان، ما نشر هكذا البيراق قطعياً. وبعد ذلك دريا بكي أعلن على القبطان اسكبس بخروج تبعة الإنجليز من البلد، وأنه يطلق الأطواب (جمع طوب، أي المدفع) بحرًا من برنس بوليس على البلد، وبحرب القلعة. وقبطان اسكبس أعلن على توكيه في البحر في البر (أن) يعلن إلى تبعية (أي الرعايا الإنجليز) بالخروج ليلاً قبل الصباح، والوكيل أعلن إلى تبعية الإنجليز بالخروج، والذي لم يكن كمن خروجه عاجلاً يدخل بيت الوكيل تحت البيراق ومنزل عسكري من اسكبس وتحت بالبيت لمحافظة، وعملوا السياسة لمصالحهم، وتبقوا بالهلاك، وتأسفوا على مطانهم (لعل: مطانهم) وفراق من أزلهم، ومفرقة (مفارقة) بعض الأهالي في السفائن بحرًا والفقراء برًا وأصحاب الأحمال الثقيلة من التجار المعتبرين، وتجروا في أمورهم لعدم السعة، فنقل الأهالي وتحميل أموالهم وضيق الوقت والليل ولا

يفرقوا ما يحدث من الشيخ (محمد بن خليفة) ومن دريا بكى (أمير البحر) لما شاهد وحامت الأمور متوقف عن ما أعلنه (أعلنه) سابقاً. وذلك النهار الساعة ثماني عربي سافر من لنجه (إلى) بندر عباس والجاش (بحارة)، ويرجع (إلى) لجنه . ومع رجوعه ما ندري ما يحدث من الاغتشاش.

٤- التقرير الرابع: بعثه محمد بن عبد الله الخاجة في (١٧ محرم ١٣٢٣هـ / ٢٤ مارس ١٩٠٥م). وهو مثل سابقاته باللغة العربية العامية . وقد شرح فيه ما قام به القنصل الإنجليزي المقيم في بوشهر من أعمال في البحرين ضد الشيخ علي بن أحمد بن علي آل خليفة ، من نهب لممتلكاتها وإقامة العساكر في منزله ، بعد أن فر الشيخ إلى قطر ولم يتمكن القنصل الإنجليزي من القبض عليه . ولم توضح البرقية سبب رغبة ذلك الشيخ علي ، وأنه أخذها إلى عدة جهات لبيعها ؛ تنكيلاً به . ونصها:

"حضرة أفندينا ذي الأكرام ذي الدولة نظارة الجليلة الخارجية"

(وزير الخارجية الجليلة)

أعرض لمقامكم المقدس العالي من مدة شهر واحد قبل الآن جنرال فنصل دولة الإنجليز المقيم في بوشهر وصل البحرين . وبرفقته ثلاثة أساطيل (سفن) إنجليزية. وطلب من الشيخ عيسى بن علي شيخ البحرين أن يقبض له علي ابن أخيه الشيخ علي بن أحمد بن علي ، ويسلمه له بلا سبب. فأبى الشيخ عيسى عن ذلك الطلب ، ولا قبل . حيث إنه لم يجد لذلك سبباً ، ولم يقدر قبضته خوفاً من وقوع الفساد والاغتشاش في البحرين . فلما أحس الشيخ علي بن أحمد بهذه المادة (أي الموضوع) فر من البحرين خوفاً على نفسه. والتجأ عند الشيخ جاسم (قاسم بن محمد) الثاني (آل ثاني) في قطر. وجنرال القنصل المذكور لما بلغه هذا الخبر شدد الأمر على الشيخ عيسى بن علي ووبخه ، ونزل من الأسطول وبمعيته مقدار خمسين نفراً من عسكر الإنجليز ، مكملين (أي مجهزين) السلاح. وهجموا جبراً علي (أي منزل) الشيخ علي بن محمد أحمد واعتصب (أي نهب) جميع ما كان في البيت من ذهب وفضة وحلي ونحاس وأسلحة وأواني وصناديق وأسرة ، وكشفوا على النساء وفتشوا عليهم ولم يحترمهم . واعتصبهم الخيل والإبل وجميع الحيوانات وستة سفن بين صغار وكبار ، ومقدار ألفين (هنا كلمة غير واضحة) واثواب النسوان وأثاث البيت كله ، ولا يبقى لهم حاجة الذي يستتفعون بها. وحملة الجميع في بوابير (سفن) البوسطة (البريد) إلى بندر بوشهر والكويت ومسقط ؛ لأجل البيع . وأحرق السفن في البحرين . ونساء الشيخ علي بن أحمد خرجوا من البيت ، وراحوا في بيت الشيخ عيسى بن علي. وجنرال قنصل المشار إليه ضبط

بيت الشيخ أحمد بن أحمد ، وخطا (وضع) فيه مقدار خمسين نفراً (من) عسكر الإنجليز ،
وخلال (أي أبقى) عندهم أسطولاً (سفينة واحدة) في البحرين ؛ لأجل المحافظة وبنفسه رجع
العبد العاجز بعرضه لمسندكم العالي ، ولطفاً يلتمس العفو أفندم. حرر في ١٧ من شهر
محرم ١٣٢٣ (هـ/ ٢٤ مارس ١٩٠٥م)

العبد العاجز الأقل شهبندر فخري لنجه: محمد بن عبد الله الخاجه (الختم) (١).

٥- التقرير الخامس: بعثة محمد بن عبد الله الخاجه في (١٥ صفر ١٣٢٣هـ / ٢٠ أبريل
١٩٠٥م). وهو مثل سابقاته باللغة العربية العامية . وقد أشار فيها إلى العلاقات الثنائية
المتمازة التي كانت تربط بين الإنجليز والسلطات الإيرانية . حيث ذكر باتفاقهم
على بيع الإيرانيين أراضي لإنجليز في بندر بن عباس ، ورغبتهم في الحصول
على قرض من الإنجليز ، بغية دفع ديون الروس واستلام الجمارك منهم ، وتسليمها
لإنجليز ، ونصه:

" حضرة أفندينا الأكرم ذي الدولة ناظر الجليلة الخارجية "
(وزير الخارجية الجليلة)

أعرض لمقامكم المقدس بتاريخ ثامن (ال) ثامن الشهر صفر الجاري قد ورد علي لنجه
أدميرال (أمير البحر) في دولة الإنجليز من مومباي ، وبمعيته خمس أساطيل حربية ، وتواجه
(توجه) مع دريا بكي (أمير البحر) حاكم بنادر وجزائر فارس ، وتبادلا من المراسم الودادية
(الود) ما هو لائق في شأن الدولتين. ومع مجيء الأدميرال المذكور من مومباي قد دخل
مسقط والشارجة (الشارقة) من أحد بنادر عمان ، وأظهر لهم المحبة والصدقة . وفي عاشر
من شهر صفر الجاري سافر من لنجه إلى جزيرة هانجام وجزيرة هرمز. ولا بد (أن) يدخل
بندر عباس ، ومنها يسافر إلى جهة الهند . ودولة الإنجليز قصدوا (من تلك الزيارة) أن تبتاع
من دولة إيران أحد عشر ألف ذراع (من) الشاه من الأرض في بندر عباس . ودولة إيران قد
قبلت ذلك ، واعدة دولة الإنجليز بإعطاء الأرض لها . وعرفت (ذلك من) دريا بكي من هذه
الخصوص . ودريا بكي في أحد عشر من (ال) شهر الجاري سافر من لنجه في (ب) السفائن
الشراعية إلى جزيرة هانجام . ومنها يتوجه إلى بندر عباس . حسب الإشعارات المخيفة أن
دريا بكي بهذه الأيام من بندر عباس يتوجه على كلكته . والشاه زاده (أي ابن الشاه) إجلال
الدولة ابن ظل السلطان متعين لحكومة البنادر وجزائر فارس . ويحتمل أنه يصل إلى بندر
بوشهر . وهذه المواد ما تخلوا من الأمور السياسية بين دولة إيران والإنجليز . يحتمل أن

(١) الأرشيف العثماني ، تصنيف 114/46 HR.SYS.

هذه المواد من جهة الجمارك قصدهم يأخذون القرض من دولة الإنجليز ويسلمون إلى دولة روسيا، ويسترجعون منهم الجمارك، ويجعلون في تصرف الإنجليز. والله أعلم بحقيقة هذه الأمور بعد هذا، مع أخذ الحقائق والصحة، يعرض العبد لمقامكم العالي لطفاً يلتمس العفو منما (مما) تجاسر بعرضه. والأمر لولية أفندم.

حرر في ١٥ الخير ١٣٢٣ (هـ/ ٢٠ أبريل ١٩٠٥م) العبد الأقل لنجه فخري شهبندر (القنصل الفخري للدولة العثمانية في لنجه) محمد بن عبد الله الخاجة (الختم)^(١).

٦- التقرير السادس: وهو بخلاف التقارير السابقة باللغة العثمانية. بعثه محمد بن عبد الله الخاجة إلى عزت باشا، الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني في (٣٠ ذي القعدة ١٣٢٥هـ / ٤ يناير ١٩٠٨م). وقد تضمن هذا التقرير معلومات عن أهالي الإمارات العربية، ونظرتهم الإيجابية إلى الدولة العثمانية، وما يجب على الدولة العثمانية القيام بها في منطقة الخليج؛ حتى تستعيد نفوذها بين الأهالي. وقد اقترح فيه القنصل منح بعض الأوسمة لشيخ الإمارات؛ بغية استمالهم نحو الدولة العثمانية؛ بعدها الخلافة الإسلامية. ولأجل استجابة السلطات العثمانية في إستانبول للطلب، أرسل القنصل المذكور معروضاً آخر إلى عزت باشا في (٨ ذي الحجة ١٣٥٢هـ / ١٢ يناير ١٩٠٨م)، أي بعد أسبوع واحد من معرضه الأول، فوائد تسيير السفن العثمانية للملاحة في منطقة، ليس فقط في استمالة قلوب الأهالي الطيبين نحو الدولة العثمانية، بل لوجود فوائد مادية أيضاً من نقل البضائع والمسافرين إلى مختلف الموانئ، سواء في الخليج العربي أو الموانئ الهندية، مشيراً إلى أن أجرة النقل حتى لو كانت فوق أجرة السفن الإنجليزية فإن الأهالي سوف يرجحون استخدام السفن العثمانية على غيرها من السفن الأجنبية، ولاسيما السفينتين العثمانيين اللتين قدمتا إلى الخليج العربي بالأعلام العثمانية، قد أدخلت السرور في قلوب الأهالي.

وفيما يلي الترجمة العربية للتقرير السادس:

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.SYS. 114/46

قنصلية الدولة العلية العثمانية في لنجه الرقم ٦٣

إلى جانب عزت باشا، الكاتب الثاني لحضرة جناب السلطان

سيدي صاحب الدولة؛

إن أهالي البر والبحر من الخليج الفارسي^(١) وجزيرة عمان الواسعة التي تتشكل من أهل السنة والجماعة، طيبون في خلقهم وطبائعهم، أهل صدق في مسلكهم، بعيدون كل البعد عن الحيل والخديعة، ليس للتمدن الشيطاني نصيب فيهم، ولهم رغبة أكيدة في الخلافة العظمى، وعلى وجه الخصوص لجناب سلطان السلاطين. الدمعة التي تسقط من عيونهم أثراً من ذلك الشوق والرغبة، وتشكل مجرى كبيراً من الماء كالبحر المتلاطم. وقد افتتحت قنصلية فخرية للدولة العلية في موقع لنجة منذ عدة سنوات بأمر سلطاني، ووضع عليها العلم العثماني الذي يموج مع الخليج وتتور العيون به. ويمسح أولئك الأهالي عيونهم بالظل الذي يعكسه ذلك فينعشون بذلك. بل إنهم يرون أن نطق اسم الخليفة على غير وضوء مخالف للأداب. وهذا في الحقيقة يبين مدى إخلاصهم، ويوضح هوية اعتقادهم في الخلافة العظمى. وفي خضم السياسة العالمية الجارية حالياً في الخليج الفارسي وفي سواحل عمان، تقوم الدول المعروفة^(٢) بتسيير سفنها بشكل منظم ودون أي انقطاع؛ بغية استمالة الأهالي وإيقاعهم في مخالب شرورهم. وفي مقابل ذلك فإن عدم رؤية الأهالي للسفن العثمانية يؤدي بهم إلى الحزن والأسى الشديدين. والنقطة البادية لذلك الخليج يبدأ من الموقع الذي يسمى بالكويت والمناطق المجاورة له في الخليج البصرة. وهو من ممالك الدولة العلية كما لا يخفى عليكم. وبناءً على أن بندر عباس وبوشهر ولنجه والقرى مختلفة الأسماء الموجودة في اليمين واليسار وفيما بعدها تابعة للحكومة الإيرانية، ونظراً لكون أهالي هذه المنطقة من أهل السنة والجماعة، فهم لا يتجرأون من إبراز نسبتهم إلى الخلافة العظمى الإسلامية جهراً؛ خوفاً من الحكومة الإيرانية. إلا أن كل فرد منهم وفي كل فرصة سانحة يدلي - بما تدور به لسانه - بالحديث عن خضوعه للسلطنة السنية وتفانيه في سبيلها مالأً وبدناً. وهذا الإخلاص منهم تجاه الدولة العلية وشوقهم إليها معروف لدى الجميع. وهذا الوضع يحير الأجانب كافة ويفيظهم. ولذلك وبغض النظر عن تفرعات ذلك وتفصيلاً، فإن أهالي الخليج جاهزون في كل وقت لإبراز حسن نيتهم واثار محبتهم تجاه

(١) يستخدم العثمانيون الخليج الفارسي حيناً وخليج البصرة أحياناً والخليج العربي حيناً آخر. والقصد من كل تلك المسميات واحد، كما يتضح مما ورد في الوثيقة وهو الخليج العربي وأهل الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص.

(٢) وهي الإنجليز بالدرجة الأولى، ثم الروس والفرنسيين وإيران وغيرهم. أبو ظبي: توحيد الإمارة الاتحاد / عبد العزيز عبد الغني - أبو ظبي: مركز الوثائق والبحوث، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م. صفحة ١١٩.

جناب الخليفة ، ولذلك فإن المطلوب من جناب السلطان عطف عنان الرحمة لأصحاب الاشتياق من هؤلاء الأهالي القاطنين في الساحل العماني الملاصق برًا بمكة المكرمة ، وبحرًا بقضاء قطر في سنح نجد . علمًا أن الإنجليز لا يتأخرون ولو للحظة واحدة في حيك آلاف السياسات والحيل والدسائس تجاههم ، متمنين من الأهالي والمشايخ بالسماح لهم في الموافقة على رفع الأعمال الإنجليزية ، ويبدلون قصاري جهدهم في الوصول إلى بغيتهم ، ويوزعون لذلك أنواعًا من الهدايا والخلع والنقود . وعلى الرغم من ذلك فإن الأهالي المتدينون يأتون حتى إلى مقر القنصلية (العثمانيون) ، واضعين الأعمال العثمانية على سفنهم الشراعية ؛ وبحسب الآية الكريمة " ومن يتولهم منكم فإنه منهم " فإن هؤلاء الأهالي سليمي الاعتقاد ، الذين لم يبق فيهم أحد غير مسلح ؛ أسد قلوبهم نمور ميراجهم ، منتفزين من كافة العباد ومبتعدين عنهم ، ملجئين فقط إلى الخلافة الإسلامية الكبرى ومنتظريها ، كما سبق أن بينت ذلك لسفارة الدولة السنية في طهران في مختلف المناسبات . حتى لا ييأس هؤلاء الأهالي الموحدون في المذهب الواحد وفي الكيان الواحد ، ولا يصابون بالضعف والفتور في شوقهم إلى المستقبل المأمول والاعتماد عليه ، فإن عدم الرد من السفير المذكور ومن أصحاب المناصب على ما يجب على الدولة العلية القيام به من تقديم المساعدات المادية والمعنوية إليهم حسب المصلحة العامة والظروف المواتية ، سوف يزيد من ذلك الضعف والفتور . وبما أن السفير المذكور شمس الدين أفندي مطلع عن كثب على أعمال الأجانب ونفوذ الأعداء ، دون أدنى شك ، وبالنظر لكون هؤلاء الأهالي (الخليجيين) إخواننا في الدين ، ومعدودين من بريو مكة المكرمة ، ومجاورين لقضاء قطر من البحر ، وبما أن إلقاءهم في صحيفة النسيان غير متوائم وشأن جناب الخليفة وينافيه ، ونظرًا لأن هؤلاء الأهالي الوديعه الكبرى في أعناقهم ، وهم لا يفتؤون يطلبون مقدم سفينة عثمانية إلى جزرهم ؛ حتى تقر بهم عيونهم وقد شاهدنا بحمد الله - تعالى - ليس مقدم سفينة واحدة وإنما العديد من السفن المشعشة والمهيبة إليها في هذه الأيام ، فإن رد طلبهم المناهي لمرضاة جناب الخليفة ، سوف يخل بنظرتهم الإسلامية (إلى الدولة العثمانية) كما لا يخفى . والحقيقة أن الجهد الذي أقدم على بذله في ليلي ونهاري ، منصب كله في استمالة قلوب هؤلاء وغيرهم . ولذلك فإن قبول مطلبهم واستجابة رغبتهم ، سوف يزيد من دعوات الخير لديهم إزاء الخلافة العثمانية التي تشكلت بالدولة المحمدية والسلطنة الأحمدية ، مادامت السماوات والأرض ، كما يزيد في هؤلاء الأهالي من اجتماعاتهم في العديد من المواقع في كل يوم جمعة ؛ لذكر مولد النبي ﷺ والذبح (لله تعالى) ؛ لإطعام المساكين والفقراء وتلاوة القرآن الكريم ، كما اتضح لنا ذلك من خلال مراقبة أوضاعهم والتي لم نفضل عنها ولو للحظة واحدة .

الخاتمة

بينت التقارير التي رفعها القنصل الفخري للدولة العثمانية في لنجة محمد بن عبد الله الحاجة مجموعة من الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الخليج العربي في الفترة التي بعث فيها تقاريره . ففي الوقت الذي تحث التقارير الأول عن طلب القنصل في إرسال الباب العالي لخطابين إلى الشيخ محمد بن خليفة والسفارة الإيرانية ، بغية عدم التعرض لأهالي لنجة في الصراع الذي وقع بين الطرفين ، ذكر التقرير الثاني طلب القنصل المذكور في توفير الأمن لأهالي لنجة في ذلك الصراع المحموم على النفوذ بين الشيخ خليفة والسلطات الإيرانية . وقد ذكر في التقرير الثالث أن الإنجليز ساعدوا رعاياهم في الخروج من البندر بأمن وسلام وأن أهالي البندر الأصليين لم يلقوا تلك المساعدة من أحد ، ما أدى إلى تكرار طلبه من الباب العالي في توفير الأمن للباقيين من أهل لنجة في البلد ، حتى لا يتعرض البندر للخراب . وهذه التقارير الثلاثة توضح بجلاء مدى تفاني القنصل في حبه للنجة وأهلها وسعيه الحسيس في توفير الأمن والسلامة لهم من أي اعتداء . أما التقرير الرابع فقد تناول ما قام به القنصل الإنجليزي المقيم في بوشهر من أعمال في البحرين ضد الشيخ علي بن أحمد بن علي آل خليفة ، من نهب لممتلكاته ، وأقامت العساكر في منزله ، بعد أن فر الشيخ إلى قطر ولم يتمكن القنصل الإنجليزي من القبض عليهم . وهذا التقرير يوضح طرفاً من سياسة الإنجليز تجاه الأهالي في الخليج ، ولاسيما إذا أعترض أمراً صادراً من القنصل أو المسئول الإنجليزي في المنطقة ، فالويل له . كما الأمر في الشيخ علي بن أحمد آل عيسى وتحدث التقرير الخامس عن العلاقات الثنائية الممتازة التي كانت تربط بين الإنجليز والسلطات الإيرانية . حيث ذكر باتفاقهم على بيع الإيرانيين أراضي للإنجليز في بندر عباس ورغبتهم في الحصول على قرض من الإنجليز ، بغية دفع ديون الروس واستلام الجمارك منهم ، وتسليمها للإنجليز وعلى الرغم من أهمية تلك التقارير في توضيح جوانب من تاريخ الخليج العربي الحديث ، فإن التقرير السادس قد بين عدة أمور مهمة ، تتعلق ببعض الأوضاع السياسية والاجتماعية للإمارات العربية في تلك الفترة . وتلك المعلومات ، تعكس وجه نظر معدها القنصل المشار إليه إلى أهالي الإمارات وحكامها وكذلك إلى الدولة العثمانية وخلافاتها . وهي وجهة نظر إيجابية ، ترمى إلى توثيق علاقات الدولة العثمانية بالحكام المذكورين من خلال استمالتهم إليها ، في خضم التحركات الإنجليزية ، على وجه الخصوص ، في الخليج العربي . ويمكن تلخيص تلك الأمور في الآتي :

- ١- إن أهالي الإمارات العربية من أهل السنة ، المذهب الرسمي للدولة العثمانية. وأنهم طيبون في أخلاقهم ، مستقيمون في طبائعهم ، صادقون في مسلكهم ، باعدون عن الحيل والدسائس . وأن لهم رغبة أكيدة في الارتباط بالخلافة العثمانية ، كما هو كذلك شأن أهالي الساحل الشرقي للخليج العربي ، في كل من بندر عباس وبندر بوشهر ولنجة .
- ٢- أنما تقوم به الدول الأجنبية في الخليج من أعمال سياسية ، غير مقبولة لدى الأهالي ، الذين لا يرغبون في وجود هؤلاء فيما بينهم ، ولا سيما الإنجليز. وأن عدم سير السفن العثمانية في الخليج مدعاة لدى الأهالي للحزن والأسى.
- ٣- عدم رغبة الأهالي رفع الأعلام الإنجليزية على سفنهم ، على الرغم من الضغوط الشديدة عليهم من الإنجليز ، الذين يقومون بحبك الحيل والدسائس ضد هؤلاء الأهالي الطيبين.
- ٤- أن عدد السكان في كل من إمارة أبوظبي ، ودبي ، والشارقة ، ورأس الخيمة ، وأم قوين ، يتكون من خمسة الآف نسمة تقريباً .
- ٥- أن القنصل المذكور أقترح بمنح شيوخ الإمارات أوسمة عثمانية ، لتوثيق العلاقات معهم وقد عد القنصل الوقوف مع هؤلاء الحكام ضد السياسات الأجنبية في المنطقة واجباً دينياً للدولة العثمانية ، عليها القيام بها^(١).

(١) د. سهيل صابان: علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال بعض التقارير العثمانية (١٢٨٨-١٣٢٥هـ / ١٨٧١-١٩٠٧م) بحث منشور في مجلة الخليج للتاريخ والآثار ، العدد الثالث ، ربيع الأول ١٤٢٨هـ أبريل ٢٠٠٧م صفحة ٦٩-٩٠ .
وقام بمراجعته وتدقيقه الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الحميدان أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة الملك سعود .

تعليق:

تأكيداً للجهد الذي بذله الدكتور سهيل صابان عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود في الحصول على هذه التقارير العثمانية عن علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال رجالها في المنطقة في فترة ذات أهمية كبيرة في تاريخ الخليج العربي وتاريخ الوطن العربي بصفة عامة، وهي فترة بداية حملة مدحت باشا إلى الأحساء عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م.

وتثميناً لهذا الجهد المشكور من الدكتور سهيل صابان رأينا أن نسجله في مؤلفنا عن الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي حتى يمكن الاستفادة منه، خاصة أن الدكتور سهيل أورد تقارير وثائقية من الأرشيف العثماني بتصنيفاته الأكاديمية الواضحة والدقيقة، وبهذا يعتبر هذا البحث إضافة للدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة بالنسبة لتاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها بالأقطار العربية بصفة عامة والأقطار الخليجية بصفة خاصة.

وقد احتوى بحث الدكتور سهيل صابان على مقدمة تتناول الوثائق العثمانية المتعلقة بالخليج العربي حتى عام ١٩٠٩م - وهو عام انتهاء حكم السلطان عبد الحميد للدولة العثمانية، منها فتح قنصلية عثمانية في بوشهر. وخطاب القنصل العثماني في بومباي بالهند، وتقارير القنصل العثماني الفخري في "لنجه".

كما احتوى البحث على استعراض لمحتويات ستة تقارير عثمانية، أولها برقية من أحد تجار "لنجه" إلى الباب العالي، ثانيها برقية مماثلة من نفس التاجر، وثالثها برقية من نفس التاجر إلى الباب العالي، ورابعها برقية مماثلة من نفس التاجر إلى الباب العالي في تاريخ لاحق، وخامس التقارير برقية للصدر الأعظم في اسطنبول من التاجر نفسه من "لنجه" وسادس التقارير من نفس التاجر محمد بن عبد الله الخاجة نفسه القنصل الفخري للدولة العثمانية في لنجه إلى عزت باشا الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني في يناير ١٩٠٨م. وختم الباحث دراسته بخاتمة علق فيها على هذه البرقيات المحفوظة في الأرشيف العثماني باسطنبول؟ ليؤكد الروابط الإسلامية بين الدولة العثمانية وعرب الأقطار الخليجية.

المصادر والمراجع العربية

١. عبد العزيز عبد الرحمن الشميل: الوجود العثماني في منطقة الأحساء، ١٨٧١ - ١٩١٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨م.
٢. كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، المبحث الرابع من كتاب دراسات في التاريخ العثماني ترجمة وتعليق دكتور سيد محمد السيد دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣. يوسف كمال بك حتاح، ود. صديق الدمولوجي: مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٢م.
٤. عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٨ أجزاء، بغداد ١٩٤٩م.
٥. د. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨م.
٦. د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث القاهرة، ٢٠٠٠م.
٧. د. رأفت الشيخ: أفريقيا في التاريخ المعاصر، القاهرة، ١٩٩٠م.
٨. أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ونشر تيودور شوموفسكي، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسى، عالم الكتب القاهرة، ١٩٦٩م.
٩. لوريمر: دليل الخليج - القسم التاريخي، ترجمة الديوان الأميري لقطر، الدوحة.
١٠. محمود بهجت سنان: البحرين، درة الخليج العربي، دمشق، ١٩٦٢م.
١١. خالد العزي: الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢م.
١٢. محمود علي الداود: أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، ١٩م.
١٣. د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦١م.
١٤. د. أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية، بيروت، ١٩٦٥م.
١٥. د. مديحة درويش: تاريخ الدولة السعودية.
١٦. د. رأفت غنيمي الشيخ: العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٣م.
١٧. حسين بن غنام: تاريخ نجد.
١٨. د. محمد مرسى عبد الله: إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى.
١٩. د. أرنولد ويلسون تعريب عبد القادر يوسف: الخليج العربي.
٢٠. د. عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩م.
٢١. خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.
٢٢. عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد.
٢٣. محمد بن عمر الفاخري: دراسة وتحقيق د. عبد الله بن يوسف الشبل: الأخبار النجدية.
٢٤. محمد بن عبد الله الأنصاري الإحصائي: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ط٢، الرياض، ١٩٨٢م.
٢٥. فيليبي، تعريب عمر الديراوي: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية.
٢٦. أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته.
٢٧. إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، القاهرة، ١٩٢٣م.
٢٨. محمد عرابي نخلة: تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨ - ١٩١٣م الكويت، ١٩٨٠.
٢٩. د. عبد الفتاح أبو علي: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض، ١٩٨٦م.
٣٠. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، القاهرة، ١٩٦٦م.

٢٢. د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة.
٢٣. د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٧٦م. د.
٢٤. رأفت غنيمي الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ١٩٧٥م.
٢٥. Longring, Iraq, 1900 - 150.
36. د. مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، بغداد ١٩٧٥م.
٣٧. د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر، ١٨٦٨ - ١٩١٦م، الكويت، ١٩٧٥م.
٣٨. د. عبد العزيز عبد الغني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٢م.
٣٩. جون كيلى، بريطانيا والخليج، مسقط، ١٩٧٩م.
٤٠. أمين سعيد: الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة.
٤١. د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ٤ أجزاء القاهرة.
٤٢. شفيق جحا، منير البلعكي، بهيج عثمان: المصور في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت.
٤٣. محمد سهيل طقوس: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة.
٤٤. محمد بك فريد: تاريخ الدولة العلمية العثمانية، تحقيق دكتور إحسان حقي، ٢٠٠٦م.

الوثائق:

- (١١) الأرشيف العثماني بإستانبول، وثائق الباب العالي، قسم رئاسة الوزراء، وثائق خاصة بمخصصات آل رشيد وأعيان جبل شمر، نظارة الخزينة، دائرة التحريات، رقم ٧٦٧، بتاريخ شوال ١٣٢٢هـ.
- (١٢) الأرشيف العثماني بإستانبول، وثائق الباب العالي، بخصوص الإرادة السنوية الصادرة في ٢٤ رمضان ١٣٣٤هـ، رقم ١٢٣٨، موجهة إلى نظارة الحربية الجليلة بشأن تعيين الأمير سعود بن رشيد باشا قائداً عاماً للقوات في منطقة نجد.
- (١٣) ج.ج. لوريمر (ب.ت)، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، طبعة جديدة معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ص ٥٧٢.
- (١٤) د. أبو علي، عبدالفتاح حسن، النقود والموازن والمقاييس في سنجق الحسا في العهد العثماني ١٨٧١ - ١٩١٣م، قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية (A. C. O. S) المنعقد في تونس في المدة من ٢٠ - ٢٦ يناير ١٩٨٤م.
- (١٥) للاطلاع على سير الوقعة ونتائجها ارجع إلى الريحاني، أمين (١٩٨٨م) تاريخ نجد الحديث، دار الجيل، بيروت، ص ١٤٠ - ١٤٧.
- (١٦) من خطاب الأميرالاي التركي العثماني حسن شكري إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود، مؤرخ في ١٠ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ، انظر ذلك تفصيلاً في الزركلي، خير الدين (١٩٨٥م)، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ج ١ دار العلم للملايين، ص ١٥٥ - ١٥٦، وذلك نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام، ولدينا صورة من هذه الرسالة من خلال ما أورده الشيخ آل بسام. وورد نصها في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢هـ.
- (١٧) ورد نص هذه الرسالة في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢هـ، وقد أوردها الزركلي في كتابه شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٥٧ - ١٥٨، نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق للشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن آل بسام. ولدينا صورة عن هذه الرسالة من خلال ما أورده الشيخ آل بسام.

- (١٨) من الرسالة نفسها.
- (١٩) من الرسالة نفسها.
- (١٠) الزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٦٤.
- (١١) الريحاني، تاريخ نجد، ص ص ١٤٨ - ١٤٩.
- (١٢) صورة التحريرات الواردة من متصرفية نجد: إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.
- (١٣) جدول الإحصائيات: إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.
- (١٤) صورة التحريرات الواردة من وكالة معاونيه قائمقام قضاء قطر: إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.
- وهذه الوثائق مترجمة إلى العربية ومحفوظة بقسم الوثائق بالديوان الأميري بالدوحة.
٤٥. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٤٩.
٤٦. الزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٧٣.
٤٧. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، ص ٥٠.
٤٨. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٤٩.
٤٩. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٤٩.
٥٠. الزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٧٣.
٥١. الريحاني، تاريخ نجد، ص ص ١٤٩ - ١٥٠.
٥٢. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٥٠.
٥٣. لمعرفة المزيد عمّا دار من مناقشات حادة بين الملك عبدالعزيز والفاروقي، ارجع إلى الريحاني، تاريخ نجد، ص ص ١٦٠ - ١٦١.
٥٤. الريحاني، تاريخ نجد، ص ص ١٦١ - ١٦٢.
٥٥. الزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٧٤.
٥٦. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٦٣.
٥٧. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤م) القاهرة ١٩٦٦.
٥٨. حسين بن غنام: روضة الأفكار والأفهام لمرتابد حال الأمام وتعداد غزوات ذي الإسلام، المسمى تاريخ نجد تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد - القاهرة ١٩٦١م.
٥٩. د. سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة وهو كتابان مدخل عام ودراسة للكويت، نشره معهد الدراسات والبحوث العربية - القاهرة ١٩٦٧م، والكتاب الثاني يتناول ساحل عمان ونشره معهد البحوث والدراسات العربية أيضاً - القاهرة ١٩٧٢م.
٦٠. د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي - القاهرة ١٩٧٤.
٦١. شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) - إدارة العلاقات شعبة البحث عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي - مترجم - القاهرة ١٩٥١م.
٦٢. ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وقصائد أخرى نبطية، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر السابق الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٩هـ تحت إشراف دار الكتب القطرية.
٦٣. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨ - ١٩١٦م الطبعة الأولى - الكويت ١٩٧٥م.
٦٤. سالدانا (جى. أي) الشئون القطرية من سنة ١٨٧٣ إلى ١٩٠٤م مترجم بقلم أحمد العناني ونشرته لجنة

- كتابة تاريخ قطر وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر - الدوحة ١٩٧٦م.
٦٥. لوريمر (ج.ع) دليل الخليج - القسم التاريخي ٧ أجزاء، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير قطر - الدوحة ١٩٦٩م.
٦٦. حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين. طبعة ثانية القاهرة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.
٦٧. محمود شكري الألوسي: تاريخ نجد، حقه وعلق عليه محمد بهجت الأتربي - الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٤٧هـ.
٦٨. أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته - الطبعة الثانية بيروت ١٩٥٤م.
٦٩. إبراهيم أبو ناب: (قطر قصة بناء دولة) الدوحة بدون
٧٠. أحمد أبو حكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية. القاهرة.
٧١. د. جمال الدين زكريا قاسم: الخليج العربي - دراسات الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤) القاهرة ٦٦.
٧٢. د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي القاهرة (١٩٧٤م).
٧٣. د. عبد العزيز المنصور: (التطور السياسي لقطر) (١٨٦٨ - ١٩١٦) الكويت (١٩٧٥).
٧٤. د. عبد العزيز المنصور: (التطور السياسي بقطر) (١٩١٦ - ١٩٤٩) الكويت (١٩٧٩).
٧٥. ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ١٩٦٠م).
٧٦. محمود شكري الألوسي: (تاريخ نجد) القاهرة (١٣٤٧هـ).

المصادر الإنجليزية:

1. The Encyclopedla Britannica, 14ed, Vol. 51.
2. Finkel, Caroline: Opams Dream, New York, Basic Books, 2005.
3. Standard jay shaw, Eryliaishaw: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.
4. J. J. Norwich (1996): Byrantium, the Decline and Fall, London.
5. Howarth, David, (1964) The Desert King, Ibn Saud and His Arabia, New York, Toronto, London, p. 64.
6. Howarth, The Desert King, p. 65.
7. India Office, L+S/ 18, No B164, from Townley to Foreign Office, dated on 12th Feb. and 17th Feb. , 1905.
8. Philby, H. St. J. B. , Arabia (1930) London, p. 189.
8. F. O 424, Confidential (9482); Futher Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Tuekey and Arabia 217, picec 68.
- 9 . Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No 217.
- 10 . Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No221.
11. 3 - Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No 238.
12. 4 - Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No 240.
- 13 - Lewis bernard : The Emergence of modern Turkey . Oxford University press , 2002 .
- 14 - Amira K. Bennison , " Muslim Universalism and Western Globalization " in Globalization in world history . (London Pimlico, 2002).

المؤلفون

أ. د. رأفت غنيمي الشيخ

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- عميد كلية الآداب جامعة الزقازيق سابقاً.
- مؤسس وأول عميد لمعهد الدراسات الآسيوية.
- مؤسس وأول عميد لكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قناة السويس.
- مستشار رابطة الجامعات الإسلامية.
- عضو المجالس القومية المتخصصة. رئاسة الجمهورية.
- عضو مجلس إدارة إتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو المجمع العلمي المصري.
- عضو لجان الترقيات بالمجلس الأعلى للجامعات.
- تأليف ٣٦ كتاباً في التاريخ والدراسات الإسلامية.
- كتابة ١٥٠ بحثاً في مؤتمرات محلية ودولية.

أ. د. ناجي عبد الباسط هدهود

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- وكيل معهد البحوث والدراسات الآسيوية - جامعة الزقازيق.
- رئيس قسم الحضارات الآسيوية بمعهد الدراسات الآسيوية.
- عضو إتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- تأليف ١٠ كتب في التاريخ الحديث والمعاصر.
- المشاركة في مؤتمرات بمصر واندونيسيا وتركيا.

د. محمود رمضان

- مدير مركز الخليج للبحوث والدراسات التاريخية - خبير الآثار والعمارة الإسلامية.
- باحث وخبير حاصل على درجة الدكتوراه في الآثار والعمارة الإسلامية، وتخصصه العلمي الدقيق (الآثار والعمارة والفنون الإسلامية في قطر «العمارة الدفاعية الإسلامية»).
- عُين خبيراً للآثار بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث بالدوحة سابقاً ، دولة قطر.
- شغل وظيفة خبير ثقافي تاريخي بمجلس شؤون العائلة بدولة قطر أيضاً.
- شغل وظيفة خبير جمع التراث بالمؤسسة العامة للحى الثقافى " كاتارا Katara " بالدوحة.
- شغل وظيفة مدير مركز مُسَيِّمِر للدراسات والبحوث التاريخية بالدوحة. يتولى حالياً إدارة وتنفيذ ومهام الإشراف على المشروع العلمي الخاص بإعداد دراسة تاريخية وثائقية عن الخليج والجزيرة العربية في وثائق الأرشيف العثماني بإستانبول - تركيا.
- أصدر له ١٦ مؤلف علمي. شارك بمجموعة كبيرة من الأبحاث العلمية محلياً وإقليمياً ودولياً.
- المراسلات: القاهرة - جوال: ٠١٢٢٣٥٧٢٥٤٠ (+٢). الدوحة - جوال: ٥٥٤٧٦٧٢٣ (+٩٧٤).
- البريد الإلكتروني: E-mail:dr.mahmoudramadan@yahoo.com

الفهرس

٧	مقدمة
	الفصل الأول
٩	الدولة العثمانية
	الفصل الثاني
٤٣	مشيخات الخليج العربي
	الفصل الثالث
٦٥	الغزو البرتغالي الهولندي الفرنسي البريطاني لمنطقة الخليج
	الفصل الرابع
٨٣	بداية التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي
	الفصل الخامس
١٠٣	مدحت باشا
	الفصل السادس
١٢٧	الأحساء
	الفصل السابع
١٦٣	الكويت والإستراتيجية العثمانية
	الفصل الثامن
١٩٠	قطر والإستراتيجية العثمانية
	الفصل التاسع
٢٢٤	موقف بريطانيا من الإستراتيجية العثمانية في الخليج العربي
٢٤٩	الخاتمة
٢٥٢	تعليق
٢٥٣	المصادر والمراجع العربية



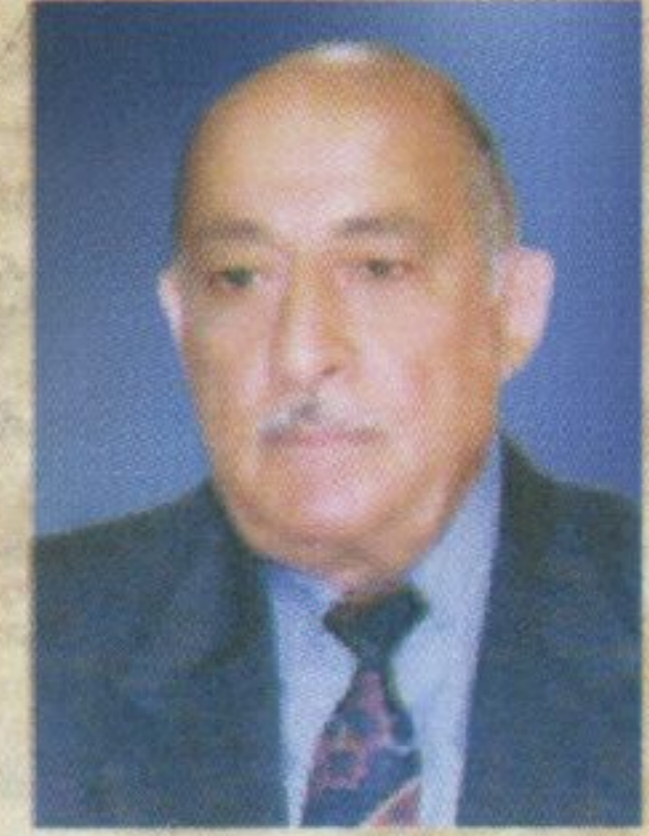
هذا الكتاب

يلقى الضوء على جهود الدولة العثمانية لخدمة الإسلام والمسلمين في مرحلة هامة من تاريخ الوطن العربي الكبير، وخاصة منطقة الخليج العربي الذي كان مطعماً لقوى إستعمارية أوروبية، بداية بالبرتغال ثم هولندا ثم فرنسا ثم أخيراً بريطانيا.

كان للدولة العثمانية الدولة الإسلامية استراتيجية نحو منطقة الخليج العربي تتمثل في إخلاء هذه المنطقة من القوى الإستعمارية الأوروبية المعادية للشعوب العربية والإسلامية، ومن ثم دخلت في صراعات متواصلة مع تلك القوى حتى كانت الحرب العالمية الأولى التي أنتجت خروج المحمد

العثماني من منطقة الخليج العربي ليستأثر والوجود البريطاني منفرداً بالمنطقة.

وقد رحبت قبائل وشيوخ مشيخات الخليج بالوجود العثماني منذ القرن السادس عشر انطلاقاً من الارتباط الإسلامي الذي يربط بين مشيخات العربي والدولة العثمانية، وكراهية هذه المناسبات للوجود الإستعماري الأوروبي.



د. رأفت غنيمي الشيخ



د. ناجي عبد الباسط هدهود



د. محمود رمضان

Bibliotheca Alexandrina



1236462

